فرح الإيمان
بهجة الحياة

مُحاضرات في أهمّ قضايا الإيمان المسيحيّ

الأب فرنسوا ڤاريّون اليسوعيّ



الأب
فرنسوا ڤاريّون
اليسوعيّ

فرح الإيمان بهجة الحياة

مُحاضرات في أهمّ قضايا الإيمان المسيحيّ

جمعها الأب برنار هوسِه

نقلها إلى العربيّة
الأب صُبحي حموي اليسوعيّ

الطبعة التاسعة

دار المشرق
بيروت

لا مانع من طبعه

بولس باسيم
النائب الرسوليّ للّاتين في لبنان
بيروت، ١٤ أيلول ١٩٨٨

ظهر هذا الكتاب بالفرنسيّة تحت عنوان:
Joie de croire, joie de vivre
par François Varillon
Éditions du centurion, Paris, 1981

دار المشرق ش.م.م.
ص.ب. ١٦٦٧٧٨
الأشرفية، بيروت ١١٠٠ ٢١٥٠ لبنان
www.darelmachreq.com

ISBN 2-7214-5316–5

التوزيع: **المكتبة الشرقيّة ش.م.ل.**
الجسر الواطي - سنّ الفيل
ص.ب: ٥٥٢٠٦ - بيروت، لبنان
تلفون: ٤٨٥٧٩٣ (٠١)
فاكس: ٤٨٥٧٩٦ - ٤٩٢١١٢ (٠١)
Website: www.librairieorientale.com.lb
E-mail: admin@librairieorientale.com.lb
E-mail: libor@cyberia.net.lb

التصميم والإخراج: **جان قرطباوي**

المقدّمة

الأب فرنسوا ڤاريّون (١٩٠٥–١٩٧٨) راهب يسوعي فرنسي. كان أديبًا لامعًا وكاهنًا مطّلعًا على التفكير اللاهوتي العصري. بعد ان درّس الأدب الفرنسي والفلسفة مدّة من الزمن، عُيّن مرشدًا في حركات العمل الكاثوليكي، فراح يهتمّ بالشبيبة الفرنسية طوال السنين ويلقي المحاضرات والمواعظ ويُعدّ الكتب الأدبية واللاهوتية والروحية. ولا شك أن بعض اللبنانيين لا يزالون يذكرون حتى اليوم تلك المواعظ الرائعة التي ألقاها بمناسبة الصوم الكبير في كنيسة جامعة القديس يوسف في بيروت.

عبّر الأب ڤاريّون على افضل وجه عن تلك الحياة والدينامية اللتين يجدهما بنو جيلنا في الانجيل المقدّس. ففي السنوات العشر الأخيرة من حياته، استطاع، بفضل دورات المحاضرات التي نظّمها والكتب التي ألّفها، ان يعمّق ويجدّد الايمان في قلوب العديد من معاصريه. كان مقتنعًا بأن الذكاء شيء لا يستطيع المسيحي ان يستغني عنه، فلم يألُ جهدًا لتوسيع آفاق الرؤية المسيحية وإظهار تماسكها وحاليتها،

متكيّفًا مع جميع فئات السامعين، سواء أكانوا من العمّال أم من اهل العلم.

كان الأب ڤاريّون «معلّمًا روحيًا» بارعًا، تقليديًا وجريئًا في آن واحد، يعود الى الدين المسيحي الاصيل، لكنه ينفض عنه الغبار ليعيد اليه قوّته وحيويته، فيشرحه كعطية من الله الذي يحبّ الانسان، وكتحقيق للانسان على أصحّ وجه.

دعته الظروف الى استخدام طرق تربوية اثارت الاعجاب، لأنه كان منفتحًا على الآخرين. فابتكر لونًا جديدًا يجمع بين التفكير والرجوع الدقيق الى الكتاب المقدس والتعبير عن الحقائق الجوهرية والحوار مع الفكر المعاصر. وكانت المحاضرات تلتهم وقته، لأنه كان يجدّدها من سنة الى سنة، حريصًا على إغناء تفكيره بكل ما كان يستخلصه من مطالعاته وتأمّلاته.

ترك بعد وفاته كمية كبيرة من المخطوطات. وكان الأب برنار هوسيه من المقرَّبين اليه، فجمع تلك النصوص والمذكّرات المنسوخة التي كان السامعون يوزّعونها، واستطاع، بفضل عمل دائم استغرق سنوات طويلة، ان يعيد تأليف اهم المحاضرات وان يجعل منها فصولاً متكاملة لكتاب يحتوي على رأي الأب فرنسوا ڤاريّون في اهم قضايا الايمان المسيحي.

بيروت في ١٥ أيار ١٩٨٨

الأب صبحي حموي اليسوعي

المدخل

جوهر الايمان

المعنى واللاّمعنى

لا شك ان اوضاعًا متأزّمة كالتي نمرّ بها اليوم لا تخلو من الفائدة. أنا اعلم بأن الازمة قد تكون قاتلة، ولكنّ هناك ايضًا أزمات تنتج عن النموّ.

كان پيغي يميّز، سواء في حياتنا الفردية ام في تاريخ الحضارات، بين الحِقَب والعصور. فالحقبة زمن لا يجري فيه ايّ شيء يُذكر، اذ إن الافراد والجماعات تعيش على اندفاعها، فلا تُدعى الى قرارات هامّة. أمَّا العصر فهو زمن يجري فيه شيء يُذكر، وتُحضّ فيه الحرية، وهي أهم ما في الانسان، فلا تستطيع البقاء في الركود. العصر ساعة حاسمة في التاريخ، يجب فيها الخروج من السبات، مهما كلَّف الامر. ليس النيام مَن يدخلون ملكوت الله.

نحن نعيش في عصر، ولا شك. علينا ان نتَّخذ قرارات هامة ولا يجوز لنا ان نتهرَّب منها. القرار كلمة ستسمعونني ألفظها مرارًا كثيرة، اذ ان قيمتنا بقيمة قراراتنا. وسواء أكانت صغيرة ام كبيرة، فبها نحن أناس أصيلون.

الزمن المتأزّم، كالذي نحن فيه، يجب ان يكون زمن تيقّظ (هناك ازمات قاتلة) وزمن تفاؤل، لا سيّما وان الازمة الحاضرة، وهذا امر لا يخفى علينا، ليست أزمة كنسية فقط، بل ازمة حضارة تتأثّر الكنيسة بردّ فعلها طبعًا.

وبكلمة مختصرة، تمتاز الأزمة الحضارية الحاضرة بالفرق القائم بن تحكّم الانسان المتزايد في مجمل إمكاناته (التقنية والاقتصادية والسياسية الخ) وغياب اهداف مشتركة يزداد الشعور به يومًا بعد يوم. هناك ادراك وتقدّم متزايدان على

صعيد الامكانات ولامعقولية على صعيد الاهداف. يصعدون الى القمر، كما قال اندره مالرو: ان كان للانتحار، فلا فائدة فيه. ويسعون وراء الرفاهة، ولكن لماذا؟ ليعملوا (او ليكونوا) ماذا؟

هل الحياة لها معنى؟

فالسؤال المطروح على كل انسان هو السؤال عن معنى الوجود. كتب پول ريكور: «صحيح أن الناس يحتاجون الى العدل والمحبة، ولكن قد يكونون اشدّ حاجة الى المعنى». ماذا يعني كل ذلك في آخر الأمر؟

السؤال الأساسي في الفلسفة هو هذا: لماذا يوجد شيء ولا لاشيء؟ وعلى الصعيد العملي، يصبح هذا السؤال: لماذا يجب ان يكون هناك نموّ وقدرة وازدياد! الى اين يوصلنا ذلك؟ فهذه هي مسألة معنى الحياة ولامعناها.

امور كثيرة لها معنى، والحمد لله! فالصداقة لها معنى والحب له معنى، والثقافة لها معنى، وهذا شأن التقدّم الاقتصادي والاجتماعي، وتقدّم العدالة في العالم. المعنى موجود في كل مكان.

ولكنّ هناك لامعنى. فتلك الفتاة التي في سن العشرين، والتي أزورها في المستشفى، مطّلعة على حقيقة حالها: انها مصابة بالسرطان وستموت بعد بضعة اشهر، مع انها جميلة جدًا وموهوبة وكانت تتوقّع مستقبلاً رائعًا. في نظرها وفي نظر الاقرباء، أن يحصدها الموت في سنّ العشرين هو امر غير معقول ولا معنى له. قالت لي: «اتمرّد». لم استنكر تمرّدها، بل اجبتها: «اتمرّد معكِ». فتعجّبت، لظنّها أني سأقول لها إن التمرّد خطيئة. أمام اللامعنى، امام اللامعقول، التمرّد موقف صائب.

وذلك الوالد الذي رُزق اربعة اولاد والذي مات فجأة بسبب ضربة مكبح خرقاء على طريق مبلّل، هذا أمر غير معقول. يمتد البحر ويجوّع الألوف

والالوف من الباكستانيين، وهذا أيضًا امر غير معقول، لا معنى له.

كيف يمكننا ان نتجنّب طرح هذا السؤال: ما الذي سيتغلّب في آخر الأمر: المعنى ام اللامعنى؟ هل اللامعنى هو الذي سيكون المنتصر؟ هل الموت هو نهاية كل شيء؟ وهل الموت هو ذلك الحجر الذي سيتعثّر به كل ما له معنى، وهل سنضطرّ الى القول مع پول فاليري: «كل شيء يذهب الى تحت الارض ويعود الى اللعبة»؟ انها لعبة الطبيعة: ستكون جثثنا سمادًا لبقول احفادنا!

وبألفاظ اقرب الى الفلسفة، هل الطبيعة ستنتصر في آخر الأمر على حريتنا، على تلك الحرية الرائعة التي تمكّننا من الارتفاع فوق كائنات الطبيعة؟ لا أظن اننا نستطيع ان نتجنّب السؤال عن المعنى.

يمكننا، ولا شك، ألاّ ننتبه الى هذا الأمر، فنحن محاطون بأناس غائصين في معاني الوجود الجزئية، من حب وصداقة وثقافة وتقدّم اقتصادي وسياسي. قد يقول فيهم بسكال انهم يلهَون، اي انهم يعيشون عيشة سطحية. يمكننا ألاّ ننتبه الى السؤال الاساسي، لكنه لا بدّ ان يُطرح علينا حالما ننتبه.

يظهر الدين المسيحي بمظهر جواب على ذلك السؤال الذي يحدّد هويتنا البشرية. فالمسيحي هو المؤمن بالجواب الذي يأتي به الله في يسوع المسيح على ذلك السؤال البشري. والايمان المسيحي يجعل منّا خصوم اللاّمعقول او اللاّمعنى وأنبياء المعنى، او، اذا شئتم، شهود المعنى.

المسيحي هو القادر على إضفاء معنًى ثانٍ، اعمق بكثير، على ما كان له معنى (كالصداقة والحب والثقافة والموسيقى وحتى الرفقة البسيطة)، والقادر على اضفاء معنى على ما لا معنى له. وهذا ما قلته لتلك الفتاة في المستشفى، في مرحلة ثانية، بعدما تمرّدتُ معها على لامعنى موتها الباكر: «هل نبقى عند هذا الحدّ؟ هل تعتقدين بأنك تستطيعين ان تُضفي معنى على حدث الموت هذا، علمًا بأنه غير معقول ولا معنى له؟ أوليست عظمة حريتنا في ان المعنى لا يكمن في الاشياء، بل في أنه علينا نحن ان نُضفي معنى على ما لا معنى له؟»

التمييز بين اللامبالاة والشكّ

أريد هنا ، على سبيل الاستطراد ، ان أُظهر الفرق القائم بين اللامبالاة والشك. علينا ان نتفهَّم مَن أسمّيهم الشُّكّاك الصادقين ، مَن «يبحثون». فصاحب الشك لا يرفض المسيح ، بل يتردّد لأنه لا يعلم.

أَمَّا اللامبالاة فهي شيء آخر تمامًا. هي ألاَّ يريد الانسان أن يعلم اين هي ذروة الوجود ، بل «يَلهى» للتهرّب من طرح السؤال في معنى الحياة ، ولخنق صوت الضمير الذي لا يسعه إلاَّ ان يسمعه ، مهما خفَّ انتباهه. لا نَدِنْ احدًا ، لأننا لا نعلم هل هناك لامبالٍ في الحقيقة وعلى وجه تام. لنقُلْ فقط : ان كان هناك لامبالٍ تامّ (والله أعلم) ، فهو لاانساني او فاقد الانسانية.

أَمَّا فيما يختصّ بالشك ، فعلينا ان نكون على جانب كبير من الفطنة. قال جان لاكروا : «اذا كان كثير من بني جيلنا يقفون من العقائد («حقائق الايمان») موقف عدم اليقين الجزئي ، او حتى التام ، فذلك يعود غالبًا الى انهم لا يستطيعون بحسب ضميرهم ان يقفوا موقفًا آخر». كل فعل بشري ، بما في ذلك وبوجه خاص فعل الايمان ، لا يكون بشريًا ، ما لم يكن له مبرِّر. أجمع علماء اللاهوت على انه أمر طبيعي ان نفهم ايماننا ، وان نسعى لفهم ما نؤمن به. لعقلنا نصيب ، ونصيب كبير ، في فعل الايمان. لسنا ايمانيين ، علمًا بأن النزعة الايمانية موقف لا نصيب فيه لفعل الايمان.

كتب أيضًا جان لاكروا : «ما من شيء أسوأ من عقلانية خالية من الروحانية ، إلاَّ روحانية خالية من العقلانية (لا يدور الكلام على عقلانية عُليا مقصورة على عقول ذكيّة بوجه خاص ، بل على العقلانية البسيطة التي نجدها عند الذي يسعى لبناء ايمانه وتبريره). كثيرون يدعون اليوم ، انقلابًا على تعقّليّة جافَّة (اتّصف بها تعليم مسيحي معيَّن مدة سنين طويلة) ، الى العودة الى ايمان خالص لا يسعى الى اي نوع من التبرير... بذلك ينسون (وهذا أمر جوهري) ان الايمانيّات تدمر الايمان كما ان التقليديات تدمر التقليد. وهم يُنكرون كل

إمكانية حوار، ولا يلبثون ان يغرقوا في العنف وعدم الصواب (او البلاهة)».

مَن كانت اقتناعاته ما هي وجعل كل استقامته في التفكير الديني ولم يجد سبيلاً الى الايمان، يجب، لا ألاَّ نرميه بحجر فحسب، بل ان نقول فيه: إنه على صواب. لا يحق لأحد ان يقول ما تقوله الكنيسة، ان لم يَرَ ان من واجبه بحسب ضميره ان يقوله.

كان القديس توما الاكويني (وهو حجّة في ما يختص بتقليد الكنيسة اللاهوتي) لا يخاف ان يقول: «الايمان بالمسيح أمر حسن في حد ذاته، لكن الايمان بالمسيح خطأ اخلاقي، إن رأى العقل ان هذا الفعل سيّئ. فعلى كل واحد ان يخضع لضميره، حتى ان كان ضميره خاطئًا». طبعًا، يجب ألاَّ يكون الخطأ اراديًا، ولو بوجه غير مباشر عن اهمال.

أقصد بكلامي اولئك الذين يشكّون، لأنهم يريدون قبل كل شيء ان يكونوا مستقيمين، بالشجاعة التي تنطوي عليها الاستقامة. لعلّهم يشاهدون بألم خمول المسيحيين: فهناك خمول عقلي، ان لم نعمل على تطهير معتقداتنا من الوجوه الاسطورية التي تنقلها ولا شك (فما اكثر الذين يُظهرون عبادةً لله ليست في الحقيقة سوى تستير لعبادة السلطة او الحُكم). وهناك خمول أخلاقي، ان أوَّلنا الانجيل بما يتماشى مع السهولة (ما اكثر الذين يخلطون بين المحبة والصدقة، او بين الحب والعاطفة، فيصبحون عاجزين عن ادراك المعنى الحقيقي لما ورد في رسالة القديس يوحنا: «الله محبة»!).

ان الذين يشكّون عن استقامة ضمير يرفضون اعتناق حقائق الايمان الى ان يروا بوضوح، يرفضون الاكتفاء بايمان ساذج. المهمّ ان لا يمرّوا بجانب جبل الهِمْلايا وهم يقولون: لا شيء في هذا المكان. فإنه لا يسع الانسان ألاَّ يعترف بأن الحركة اليهودية المسيحية الكبرى التي انطلقت من ابراهيم غنيّة بثروات طائلة. عليهم على الأقل ان ينظروا بإعجاب، ولكن علينا نحن ان ندرك أنهم قد يستطيعون النظر بإعجاب، من دون ان يقتنعوا، وأن تحفّظهم لا يُشتبَه فيه من جرّاء ذلك.

ليس صاحب الشكّ الصادق ذلك الشكّاك الذي يجعل من الحذر مبدأً ، فهذا التصرّف مرض من امراض العقل. وليس هو ذلك الانسان الذي يخاف الالتزام والذي يلجأ ، بسبب هذا الخوف ، الى الشكّ النظري ، فهذا التصرّف مرض من امراض الارادة. فهل انت تشكّ لانك تخاف الالتزام؟ الايمان هو التزام ، لا رأي فقط. فلا يؤمن الانسان بوجود الله ، كما يعتقد او لا يعتقد بوجود صحون طائرة. ان كان الله موجودًا ، كان امرًا أساسيًا ان يلتزم الانسان نحوه ، وانْ يلتزم من صميم كيانه.

من الواضح جدًا ان هناك كثيرًا من مرضى العقل وكثيرًا من مرضى الارادة. والمرض الكبير أن لا ينتبه الانسان ، أن يدَعَ السؤال الاساسي عن الوجود ومعناه الأخير يخرج من ذاته ، او ، بعبارة أخرى ، ان لا يسعى لاستخلاص جوهر الايمان.

جوهر الجوهر

فإن هناك جوهرًا. لا اقول ذلك انا ، بل المجمع الفاتيكاني الثاني : « هناك ترتيب او تسلسل لحقائق التعليم الكاثوليكي ، بسبب صلتها المختلفة بأسُس الايمان المسيحي ». وهذا يعني أنه لا توضع جميع الأشياء على مستوى واحد. لا ارفض ان ألقي عليكم محاضرة في الملائكة ، لكني اقول لكم أولاً إن مسألة الملائكة اقلّ اهمية بكثير من سرّ الثالوث. وحتى العقائد المتعلّقة بمريم العذراء ، فهي اهم بكثير من الملائكة ، مع أنها اقل أهمية من الثالوث والتجسّد. واذا كان لمريم العذراء من اهمية ، فبالنسبة الى الثالوث والتجسّد ، اذ انها ام يسوع المسيح.

لا اقول إن هناك الجوهري والثانوي ، لأني اعتقد بأنه ما من شيء ثانوي ، اذا ادرك الانسان معنى الاشياء. لكني اقول ، مع ذلك ، إن هناك الجوهري

والاقل جوهرًا ، ما هو مرتبط بالجوهري ارتباطًا مباشرًا الى حد بعيد او قريب. وما يُعوز الناس كثيرًا في ايامنا هو القدرة على استخلاص جوهر الايمان ، او ، اذا صحّ التعبير ، جوهر الجوهري.

ما اتمنّاه هو ان يكون المسيحيون قادرين على الاجابة بسطرين على هذا السؤال : في آخر الأمر ، بماذا تؤمن؟ واتمنّى كذلك ان يجيب غير المؤمن أيضًا بسطرين على هذا السؤال : بماذا لا تؤمن؟ بماذا ترفض انَ تؤمن ، بماذا بالضبط ؟

ما نؤمن به هو ذاك الجواب الذي يجيب الله به على السؤال الحتمي عن معنى الوجود. وهذا الجواب يلخَّص كله في قول مأثور يُعدّ تقليديًا في الكنيسة منذ القرون الاولى. ويبدو ان أول من استعمله هو القديس ايريناوس ، اسقف ليون ، الذي توفّي في حوالى السنة ٢٠٠. وما زال آباء الكنيسة يردّدونه ويفسّرونه ، في الشرق والغرب على السواء. هذا هو : «صار الله انسانًا لكي يصير الانسان الله».

هل هذا هو في الحقيقة جوهر ايمانكم؟ ان قلتم في انفسكم ، وانتم تُصغون الى هذه الجملة الصغيرة ، إنّ لفي ذلك مبالغة ، يعني ردّ فعلكم أنكم لم تبلغوا حتى اليوم جوهر الايمان. قد يُطرَح غالبًا هذا السؤال : «ألَا تقوم الخطيئة الاصلية بالضبط على رغبة الانسان في ان يصبح الله؟». في هذا السؤال التباس رهيب : اجل ، تقوم الخطيئة الاصلية على رغبة الانسان في ان يصبح الله بفضل قواه الشخصية. ولكن ما ليس هو بالخطيئة الاصلية ، لا بل هو جوهر الايمان ، هو ان يتقبّل الانسان تلك العطية الخارقة ، ان يتقبّل تأليهه.

هل فكّرتم بقدر كافٍ لتفهموا ان تجسّد الله ، لو لم تكن الامور على ذلك ، لكان مجرَّد زيارة يقوم بها الله للأرض ، كالتي نراها في جميع الاساطير الوثنية ، حيث «يتنزَّه» الآلهة على الارض وهم متنكّرون؟ لو لم تكن الأمور على ذلك ، لوجب علينا ان نقول إن الله استعار لباسنا البشري ليظهر بيننا مدةً من الزمن ، ويبشّرنا بأخلاقية يمكننا ان نقول فيها إنها افضل من جميع الاخلاقيات.

وبعد ذلك ، عاد الى السماء ، حيث يراقب كيف نتصرّف في هذه الدنيا لكي يكافئنا ، ان مارسنا الفضائل المسيحية ، او يعاقبنا ، ان فضّلنا السير في طريق الخطيئة : ها نحن في عالم الاساطير !

لا تعجبوا ان يرفض بنو جيلنا رفضًا باتًا ، ولا سيّما الشبّان ، ان يدخلوا في مثل هذا التفكير. ان كان هذا هو الايمان ، وجب على الانسان الذكيّ ان يخرج منه بأقرب وقت. لا امزح ، وما اقوله هنا أليم جدًا ، لأني اخشى ان يكون هناك حتى اليوم رجال ونساء ، وربّما مناضلون مسيحيون وكهنة وراهبات يعيشون في عالم الاساطير وهم لا يدرون.

والقول المأثور الذي أقترحه عليكم ، لأنه يعبّر عن جوهر الايمان ، هو من صلب التقليد في الكنيسة. اقول لكم بطريق العَرَض : لا نُسَمِّ تقليديًا ما تعلّمه بعضنا في مطلع هذا القرن. فهناك اختلاطات لا بدّ من تحطيمها بقوّة. كثير من الناس في ايامنا يقولون إنهم تقليديون ، بالاشارة الى ما تعلّموه في صغرهم. لكننا قبل خمسين سنة تربّينا في عصر كانت فيه الكنيسة بعيدةً الى حد ما عن تقليدها. ليس في هذا الأمر حجر عثرة ، فإنّ في حياة الكنيسة ساعات انخفاض في التوتّر. هذا ما نجده الى حد ما في عمل الكاتب ، فاننا قد نرى في بعض اجزاء من عمله اشياء تقارب السخافة. وهذا ما نجده أيضًا في مجموعة اصوات عند الموسيقار ، فهناك لحظات نشعر فيها بأنه ينسى مَن هو ، من شدّة ضعفها. مثل ذلك الانخفاض في التوتّر أمر عادي في عمل كبير. لكنه لا يطول عادةً ، لأن العبقريّ لا يلبث ان يستعيد نبوغه.

وهذا ما يجري في حياة الكنيسة. فهناك ساعات يُبتعد فيها عن جوهر التقليد. ليتذكّر الاكبر سنًّا فيكم هل حدّثوهم كثيرًا عن القديس بولس في أيام شبابهم. لا ، خوفًا من الحرية ! وهذا مثل من عشرات الأمثلة. فعلينا ان ننتبه لعدم الخلط بين تقليد الكنيسة وما علّمونا ، وكان ، في اغلب الاحيان ، غريبًا الى حدٍ ما عن تقليد الكنيسة الصحيح (اقول : الى حدٍ ما ، اذ لا تجوز المبالغة ، لأن الانخفاض في التوتر ليس هو خطأً).

تجسّد الله وتأليه الانسان هما حقيقتان مترابطتان. هذا أمر تقليدي على الاطلاق، وهو نواة الايمان والشيء الدائم والثابت، وما لا يعدّله ايّ اطار ثقافي جديد، وما لا تطرحه الكنيسة ابدًا على بساط البحث، وان طرحت على بساط البحث كيفية التعبير عنه، وهذا امر لا بدّ منه.

ما زالوا يقولون لنا، ولكن ربّما قالوه بالفاظ بالية جدًا، كما يقال في قماش بالٍ: «يُرى النور من خلاله»:

النعمة المقدِّسة: النعمة تعني العطية، والمقدِّس يعني المؤلِّه. القدّوس هو اسم الله في العهد القديم. وبالتالي، فما هو مقدِّس هو مؤلِّه. تعلَّمنا جميعًا ان هناك النعمة المقدِّسة، ولعلَّهم اهملوا ان يضيفوا ان المقصود هو تأليهنا.

الخلاص: هل هناك كلمة أبلى من هذه الكلمة؟ رجل مثقَّف ماركسي ساعدني على توضيح فكرتي في الخلاص. قال لي: «أرى ان هذه الكلمة تثير اربعة أسئلة:

«من هو المخلَّص؟»

«من هو المخلِّص»

«مخلَّص من اي شيء؟»

مخلَّص للانتهاء الى اي شيء؟»

«اليك الجواب الماركسي: من هو المخلَّص؟ الانسان. من هو المخلِّص؟ طبقة العمَّال المنظَّمة في حزب. مخلَّص من اي شيء؟ من الاغتراب (اللاعدالة والاستغلال الخ). للانتهاء الى ايّ شيء؟ الى المجتمع بدون طبقات، الى المدينة المتكاملة والأخوية».

بعد ذلك، عرضتُ الجواب المسيحي: «من هو المخلَّص؟ الانسان. من هو المخلِّص؟ يسوع المسيح. مخلَّص من اي شيء؟ من محدودية الخليقة (نحن كائنات محدودة!) المضاعفة بالخطيئة، وهي اغتراب اعمق بكثير. للانتهاء الى اي شيء؟ لا الى المجتمع بدون طبقات، بل الى حياة ابدية مؤلَّهة، وهي لا تنفي

الهدف البشري القائم على مجتمع تتوفّر فيه العدالة والاخوّة (نقول هنا، بين قوسين، إننا لن نؤلَّه ولن نذهب الى السماء – بحسب تعبير التعليم المسيحي القديم – ان لم نعمل منذ الآن، قدر المستطاع، على خلق عالم تتوفّر فيه العدالة والاخوّة والانسانية العميقة)». ما زالوا يحدّثوننا عن الخلاص، ولعلّهم اهملوا ان يضيفوا كل ذلك.

ابناء الله: هذه الكلمة لا تعني خليقة فحسب، بل خليقة تحيا أيضًا بحياة الله. لا يهب الأب لأولاده الحياة فقط، بل حياته هو. وعندما نقول إننا ابناء الله، نقول إن الله يهب لنا حياته، اي انه يُشركنا في الوهته، اي اننا مؤلَّهون. الأمر جدّي. أقول الآن اشياء رهيبة: فليس بقليل ان تجعل المعمودية منّا ابناء الله بالمعنى القوي!

الحياة الفائقة الطبيعة: أَجروا تحقيقًا في اوساطكم ورعاياكم ومدارسكم: ماذا تعني هذه العبارة؟ بعضهم يعدّ ظهور مريم العذراء في لورد ظاهرة فائقة الطبيعة، وبعضهم يقول ان الفائق الطبيعة هو ما لا يفسَّر في الطبيعة: فالصحون الطائرة هي ظاهرة فائقة الطبيعة. كم مسيحيًا يعرف الآن أن هذه الكلمة تعني، بأدقّ معانيها، دعوة الانسان الى المشاركة في حياة الله نفسها، الى التأليه؟

اذا كانت الكلمات قد امست بالية ومنحطّة، فلا ندع انفسنا تخسر الحقيقة التي تعلّمناها، لأن المقصود بها هو الجوهر.

المسيح يكشف من هو الانسان ومن هو الله

ان المعنى الاخير للوجود البشري هو اننا مدعوّون الى ان نصبح الله. أُحبّ ان تعود فتُروَّج في الكنيسة كلمة تأليه. وهنا أيضًا قد يفيد التحقيق : فهل تُقبل هذه الكلمة؟ اجل، لا بدّ من اضافة شيء من التوضيح : لن نصير الله للأبد كما ان الله هو الله، لن نصير لامتناهين ومطلَقين مثله، بل سنحيا بالحياة التي يحيا بها. ومن هنا حاجتنا الى ان نعرف علامَ تقوم هذه الحياة. نحن معنيّون، فلا فائدة في تكرار أننا سنحيا للأبد بحياة الله نفسها، ان لم نعرف علامَ تقوم هذه الحياة. لا يستطيع الله ان يكشف لنا ان دعوتنا هي ان نصبح ما هو، من دون ان يقول لنا من هو، وإلاَّ لسخر بنا.

ما هو السرّ؟

لا بدّ ان نفهم معنى كلمة سرّ كما يجب. حين كنتُ ولدًا، تصوَّروا أنهم كانوا يقولون لي إن السر هو ما لا نستطيع ان نفهمه. لم أكن ذكيًا في ذلك الزمان، فلو كان لي شيء من الذكاء، لكنت رددتُ : انه لأمر غريب! ان كان الله يكلّمني، فلكي افهم. غريب ان نصرّح من جهة بأن الله يكشف لي حياته عن محبة وان لا نستطيع، من جهة اخرى، ان نفهمه.

فكأني بالضبط اقول لأحدكم : اكنّ لك كثيرًا من الصداقة والعطف، فأعطني قليلاً من وقتك فأروي لك حياتي كلها، ما أُحبّه وما أعمله وما هي صداقاتي الخ. تقولون : ما ألطفه! فهذا برهان كبير عن صداقته. ولكن، ان أخذت اتكلّم الصينية، ماذا تقولون؟ لقد جُنّ، فهو يقول لي من جهة إنه سيُدخلني، عن محبة، في سرّ وجوده، ومن جهة اخرى يكلّمني بالصينية!

هذا تمامًا ما يقولون، حين يصرّحون بأن السر هو ما لا يُفهم. وانتم تلاحظون، في مثل معيَّن، ما كان عليه تعليم معيَّن، حين نسيت الكنيسة الى

حد ما تقليدها الخاص. فإن القديس اوغسطينس لم يحدّد قط السرّ بأنه ما لا يُفهم، بل ما لا ينتهي الانسان من فهمه، وهو امر يختلف كل الاختلاف.

أتاني رجل متزوّج، وسعيد جدًا في عائلته، وقال لي وقد مضت عشرون سنة على زواجه: «أُعلمك، يا ابتِ، ان زوجتي لا تزال لي سرًا». أجبته: «لا يعني ذلك أنها لغز، بل يعني أن عشرين سنة من الحياة المشتركة لم تكفِك للنفوذ الى اعماقها الأخيرة. نِعمَ الأمر، لأنك لن تزال تكتشف اعماقًا غير منتظرة عند زوجتك».

هذا شأن قطعة موسيقية من قطع الموسيقار باخ. أسألك عند خروجك من حفلة موسيقية: هل أحببت تلك القطعة الحوارية او ذلك التسلسل؟ فتجيب: مهلاً، انها لقطعة عميقة، فأحتاج الى سماعها مرّتين او ثلاثًا او اكثر... قد يزول السر بعد المرة الثانية عشرة، بما ان باخ ليس هو الله، ولكن لا بدّ من الوقت الكافي.

ان الله يجعلنا ننفذ الى سرّه. نحن معنيّون: ليست القضية قضية فضول عقلي، وليس المقصود ان نجيب عن سؤال فلسفي: مَن هو الله؟ بل المقصود ان نعرف ما هي دعوتنا: علينا ان نصبح ما هو. فمن واجبنا ان نعرف مَن هو.

وبكلمات اخرى، اقول إن معنى الحياة هو علاقتنا مع الله، وهي علاقة وثيقة حتى إننا سنحيا للأبد بحياته. والدين المسيحي هو في جوهره صحة علاقة. إفهموا أن عكس الصحّة ليس هو بالغلط (اثنان واثنان تساوي اربعة، هذا صحّ، واثنان واثنان تساوي خمسة، هذا غلط)، بل هو كذب أيضًا. فهناك علاقات صحيحة وهناك علاقات كاذبة. ان قال رجل لامرأة، بطريقة معيَّنة، إنه يحبّها، فمارس معها حركات الحب، وهو يفكّر في امرأة أخرى، كانت علاقته معها كاذبة، لا صحيحة.

كل شيء في الدين المسيحي يرمي الى ان تكون علاقتنا مع الله علاقة صحيحة. كل شيء في الدين المسيحي (من عقيدة واخلاق واسرار...) يهدف الى شيء واحد وهو ضمانة صحة علاقتنا مع الله والتصديق عليها. من الواضح ان

علاقتنا مع الله لا تكون علاقة صحيحة، ما لم نعرف من هو الانسان ومن هو الله، ما لم نطّلع على الحقيقة عن الانسان وعلى الحقيقة عن الله. لا يمكن ان تكون لنا علاقة صحيحة مع احد لا نعرفه! والمسيح، الذي صار انساناً ليصير الانسان الله، هو الذي يكشف لنا من هو الانسان ومن هو الله.

مَن هو الانسان؟

ان سألتموني: ما هو الانسان؟ أجبتكم: الانسان هو ما يقبل التأليه. إنه اعمق جواب، فوقَ جميع الاشياء المفيدة التي قد تقولها لنا العلوم الانسانية. لا يخفى علينا ان الطلاَّب يزدحمون على ابواب كلّيات العلوم الانسانية، من علم النفس وعلم الاجتماع وعلم النفس الاجتماعي والتحليل النفساني الخ. كل ذلك مشوِّق جدًا، لكنه لا يصل الى عمق اعماق الانسان ولا يخبرنا عمَّا هو سرّ الانسان، لان الانسان سرّ.

ولماذا الانسان شيء قابِل للتأليه؟ لمجرّد ان هناك انسانًا هو الله. انه انسان هو انسان تامّ. ويُضاف: يردِّد لنا الانجيل والقديس بولس ان المسيح هو انسان تامّ، ما عدا الخطيئة. واذا كان المسيح انسانًا تامًا، فلأنه غير خاطئ. وما يمنعنا نحن ان نكون بشرًا كاملين، هو أننا خاطئون.

ان كان هناك عضو من اعضاء الجنس البشري هو الله، فذلك ان في جميع الناس قدرةً على ان يصيروا ما هو الله. ان كان احد الناس الله، فذلك ان في امكانهم جميعًا ان يصيروا الله. ان سرّ كل انسان، ان معنى الانسان، ان معنى الحياة البشرية، هو اهلية الانسان الجوهرية لأن يصبح ما هو الله.

وإلاَّ، وجب القول بأن المسيح ليس انسانًا، بل هو جملة بين قوسين في تاريخ البشرية، ونيزك، وعَرَض سقط من السماء. لكن الكنيسة ناضلت طوال قرون للمحافظة على ناسوت يسوع المسيح، مهما كلَّف الأمر وبالرغم من كل العقبات. ليس المسيح جملة بين قوسين، بل هو، بالعكس، الانسان التامّ. لا شك ان هناك الانسان بحسب سقراط، والانسان بحسب نهرو الخ. لكننا نحن

المسحيين نؤمن بأن المسيح وحده يقول لنا ما هو الانسان الحقيقي. فالمسيح وحده يحقّق بالكمال تحديد الانسان: انه الانسان وهذا الانسان هو الله. وهذا يعني اننا نحن لا نصير بشرًا كاملين إلاَّ حين نؤلَّه.

أَصطدم ببعض الاعتراضات كهذا: لا يُهمّني ان اعلم بأني سأُؤلَّه، بل اطلب فقط ان أُؤنَّس. لا رغبة لي في ان اصير الله، بل في ان اصير انسانًا أصيلاً. لنحاوِلْ هنا ان ندرك ان المسيح، في العمل نفسه، يؤنّسنا ويؤلّهنا. لا حاجة الى الاختيار بين ان نصبح أناسًا على وجه تام وان نصبح ما هو الله. ارادوا ان يُقفلوا علينا في اختيار بين اثنَين: او الانسان او الله. فلو كان عليّ الاختيار بين الانسان والله، مع وجوب نفي احدهما، لاخترت الانسان، فإني أكون مطابقًا لمَقامي، اذ اني انسان وعليَّ ان اكون انسانًا، ولما استطعت ان اؤمن بإله يُرغمني على هذا الاختيار، لأن هذا الاله لا يسعه إلاّ ان يكون وثنًا. فأن نصبح ما هو الله لا يعني ان نكفَّ عن ان نكون بشرًا.

ما هي الفوارق القائمة بين المسيح وبيننا؟ انها اثنان: الأول انّنا مدعوّون الى ان نصبح ما هو. فكونُنا لسنا مثله منذ الحبَل بنا، بل علينا ان نصبح إيَّاه طوال حياتنا، يكفي لإقامة فارق لامتناهٍ بينه وبيننا، وهذا الفارق يبقى للأبد. والثاني اننا لا نصبح المسيح إلاَّ به وبه وحده. فالأنسان الذي يجب ان نصنعه هو المسيح، المقياس المطلق ومثال التأنُّس التام. ولا نصبح بشرًا إلاَّ به.

وفي هذين الفارقَين ما يكفي للمحافظة على تمييز لا يزول للأبد بين المسيح وبيننا. ان يسوع هو الانسان الاله الوحيد، لكن جميع الناس قابلون للتأليه، يصبحون بالفعل ما هو. ذلك ما يكشفه لي يسوع بمجرَّد وجوده كانسان إله. وقبل ان اسمع اقواله، ومنذ اللحظة التي أومن فيها بأن هناك انسانًا إلهًا، أومن بأن دعوتي هي أن أُصبح انا أيضًا إلهًا، ان أُصبح ما هو الله. كتب ج. موريل: «نصبح بالمشاركة ما هو الله بالطبيعة».

من هو الله ؟

يكشف لنا يسوع من هو الله : الله محبة . أجل ، نعرف ذلك ، ولكن هل نقف من هذا القول موقفًا جدّيًا ؟ ان كان هناك انسان هو الله ، فمن الواضح ان الله محبة . لو لم يكن الله محبة ، لصعب علينا ان نتصوّر التجسّد . ذلك بأن المحبة تميل بالعمق الى ان تكون الكائن المحبوب ، لا ان تتَّحد به فقط ، بل ان تكون وإيّاه واحدًا . نجد هذا الميل في الحب البشري ، لكنّه لا يحقَّق على وجه تام .

لا اظنّ ان هناك فرحًا يشبه فرح الحب ، وهو يفوق بما لا يقاس فرح الفن او البحث العلمي . فرح الحب فريد على الاطلاق ، لكنه لا يكون من دون ألم . الدخول في الحب هو الدخول في الفرح ، لكنه دخول في الالم أيضًا ، لا لمجرّد التعرُّض الدائم للخيانة والعادة والتباطؤ التدريجي في الشعور المتبادل ، بل لاعتبار اعمق بكثير ، وهو ان أمنية الحب العميقة لا تحقَّق في هذه الدنيا : لا ان نكون انت وانا متَّحدَين فقط ، بل ان نكون انت وانا واحدًا .

هذا ما يحقّقه الله في التجسّد ، فهو يصبح واحدًا معي . في يسوع المسيح ، لا يكتفي الله بالاتّحاد بالانسان ، بل هو واحد معه . هو الحب يحقَّق على وجه تام . فعندما تقول لي الكنيسة إن المسيح هو الله والانسان في آن واحد ، هو شخص واحد ، اعرف منذ تلك اللحظة ان الله محبة . والكتاب المقدس كله يعالج هذا الموضوع .

من القدرة الى الحب

تاريخ الوحي هو كلّه تحوُّل تدريجي لإله يُعدّ قدرة الى إله يُعبد على انه محبة . فبتلك النظرة يجب علينا ان نجدِّد قراءة الكتاب المقدس وان نبحث في تاريخ الاديان . من الطبيعي ان ينظر الانسان اولاً الى الله نظره الى القدير . اجعلوا انفسكم مكان الناس البدائيين الذين كانوا يشعرون بأنهم مُلقَون في عالم محفوف بالمخاطر ، وأن وجودهم سريع الزوال وأنهم تحت رحمة مخاطر الوحوش والعواصف والمدود العالية والأوبئة . فمن الطبيعي ان يبحثوا عن قدرة تحميهم .

وهذا شأن الوثنيين ، فإنهم قدّسوا كل ما يوحي بالقدرة ، كالصاعقة والشمس والاشجار والقمر الخ .

لكن فكرة القدرة فكرة ملتبسة الى حد بعيد . فإن القدرة قد تُكثر من الخير ، ولكنها قد تُكثر من الشر أيضًا . فهناك قوى تسحق وتسود وتلاشينا . كان هتلر قويًا جدًا مدةً من الزمن ، وستالين أيضًا . فهل ترضون بأن تُسلِموا انفسكم مقيَّدي الأيدي والارجل الى مثل هذه القوّة؟ ولذلك حاول الوثنيون ، امام تلك القدرة الملتبسة ، ان يستعطفوها ويستميلوها بتقريب الذبائح ورفع الصلوات .

وفي تاريخ العهد القديم ، تمَّ شيئًا فشيئًا تحوُّل من إله قدير الى اله محبة . وفي صميم ذلك التطوّر ، كشف الانبياء ان الله يريد العدل . فقالوا : تسعون لاستمالة قدرة الله ، تسعون لاستعطافها ، ولذلك تُحرقون البخور ، وتقرّبون الثيران والتيوس ، وتكثرون من الاعياد والحفلات ، وتحتفلون بالأهلّة . اعلموا ان هناك سبيلاً واحدًا لاستعطاف قدرة الله ، وهو ممارسة العدل فيما بينكم ، لأن الله يريد العدل . انها مرحلة الأنبياء الكبرى في صميم العهد القديم .

وأخيرًا كشف يسوع ان الله محبة . وهذا التاريخ الذي يروي تحوُّلاً تدريجيًا من إله هو مجرّد قدرة الى اله هو محبة ، أليس هو ، في الحقيقة ، قصة كل واحد منّا ؟ أوما علينا في كل حين ان نتحوّل الى اله ليس هو إلاَّ محبة ؟ فالقول بأن الله محبة هو القول بأن الله ليس هو إلاَّ محبة .

ليس الله إلاَّ محبة

المسألة كلها في «ليس إلاَّ» . ادعوكم الى المرور بنار النفي ، لأن الحقيقة لا تنجلي إلا ما وراءها . هل الله قدير ؟ كلاَّ ، ليس الله إلاَّ محبة ، فلا تقولوا لي إنه قدير . وهل الله لامتناهٍ؟ كلاَّ ، ليس الله إلاَّ محبة . فلا تحدّثوني عن شيء آخر . وهل الله حكيم ؟ كلاَّ ، هذا ما أسمّيه المرور بنار النفي ، ولا بدّ من المرور

بها . عن جميع الاسئلة التي تطرحونها عليَّ ، أُجيبكم : كلاَّ ثم كلاَّ ، ليس الله إلاَّ محبة .

ان قلنا إن الله قدير ، جعلنا في الخلفيّة قدرة قد تمارَس بالسيطرة والتدمير . هناك كائنات قديرة للتدمير (اسألوا هتلر ، فقد دمَّر ستة ملايين من اليهود !) . كثير من المسيحيين يجعلون من القدرة خلفية ، ثم يضيفون ، بعد فوات الأوان : الله محبة ، الله يحبّنا . هذا خطأ ! قدرة الله هي قدرة المحبة ، فالمحبة هي القديرة !

يقال احيانًا : ان الله على كل شيء قدير ! كلاَّ ، ليس الله على كل شيء قديرًا ، فلا يقدر الله إلاَّ ما تقدر عليه المحبة ، اذ ليس هو إلاَّ محبة . وكلَّ مرة نخرج فيها من دائرة المحبة ، نُخطئ في الله ونضع لنا إلهًا من الآلهة .

أظنّ أنكم تدركون الفارق الاساسي القائم بين قدير يُحبّنا ومحبة قديرة . فالمحبة القديرة لا تعجز عن تدمير اي شيء فحسب ، بل تقدر على البلوغ حتى الموت . أُحبّ عددًا من الناس ، لكن محبتي ليست قديرة ، لأني اعلم بأني غير قادر على اعطاء كل شيء للذين احبّهم ، اي على الموت في سبيلهم .

ليس في الله قدرة غير قدرة المحبة ، وقد قال لنا يسوع (وهو الذي كشف لنا من هو الله) : «ليس لأحد حب اعظم من ان يبذل نفسه في سبيل احبَّائه» (يو ١٥/١٣) . وقد كشف لنا قدرة المحبة بأن قبل ان يموت في سبيلنا . ولمَّا قبض الجنود على يسوع واوثقوه في بستان الزيتون ، قال لنا نفسه إنه كان يستطيع ان يستغيث بفيالق من الملائكة لينتشلوه من ايدي الجنود . لكنه تحاشى ان يفعل ذلك ، لأنه لو فعله ، لكشف لنا إلهًا كاذبًا ، لكشف لنا قديرًا بدل ان يكشف لنا الحقيقي ، ذاك الذي يبلغ حتى الموت في سبيل أحبَّائه . موت المسيح يكشف لنا ما هي قدرة الله : ليست قدرة سَحْق وسيطرة ، ليست قدرة اعتباطية تحملنا على هذا القول : ماذا يدبّر هناك في أزليته؟ كلاَّ ، ليس هو إلاَّ محبة ، لكن هذه المحبة قديرة .

أستعيد صفات الله (من قدرة وحكمة وجمال ...) ، لكنها صفات المحبة. ومن هنا هذه العبارة التي أقترحها عليكم : «ليست المحبة صفة من صفات الله، لكن صفات الله هي صفات المحبة».

المحبة
- قديرة
- حكيمة
- جميلة
- لامتناهية

ما هي المحبة القديرة؟ هي محبة تبلغ غاية المحبة. قدرة المحبة هي الموت : فبلوغ غاية المحبة هو الموت في سبيل الأحبّاء، وهو أيضًا الصفح عنهم. ان كان فيكم مَن اختبروا ألم الخلاف في داخل عائلة او حلقة اصدقاء، عرفوا ما أشقَّ الصفح الحقيقي. تحتاج المحبة الى قدرة شديدة جدًا للتمكن من الصفح، ممّا يسمَّى الصفح الحقيقي. ما أشدّ الحاجة في هذه الحال الى القدرة على المحبة!

ما هي المحبة اللامتناهية؟ هي محبة لا حدّ لها. أنا اصطدم بحدود في حبي البشري، في صداقاتي البشرية، لكن محبة الله هي لامتناهية، فهي قادرة ان تصبح انسانًا، وتبقى إلهًا في الوقت نفسه. انها تحقّق ما لا ننجح في تحقيقه، حتى في أوثق العائلات اتحادًا (لا يخفى عليَّ انَّ في الحياة الزوجية ما يشبه «الفلاش»، اي لحظات خاطفة يشعر فيها الرجل والمرأة بأنهما واحد، لكن هذه اللحظات لا تطول : فانّهما يفترقان ويعودان الى اثنين). لذلك قلت لكم إنه يستحيل الدخول في المحبة من دون الدخول في الألم، ان كان الانسان يحبّ حبًا حقيقيًا ووعى ما هو الحب، اي كان واحدًا مع الآخر. ليست لانهاية الله لانهايةً في المكان، ومحيطًا لا قعر له ولا شواطئ، بل هي محبة لا حدَّ لها.

ميزات المحبة

يعود السؤال : ما هو الحب؟ ليس المقصود ان نكون عاطفيين ، اذ يجب علينا ان نكافح العاطفية والعقلانية على السواء.

الحُبّ = قبول وعطاء

قلّبوا الاشياء كما تريدون ، فالحب هو عطاء وقبول. القبلة رمز جميل جدًا الى الحب ، وهي تدل على العطاء والقبول في آن واحد. لا تُعطى القبلة حقًا ، ان لم تُقبل. شفاه الرخام والتمثال لا تقبل القبلة ، اذ لا بد من شفاه حيَّة. والحال ان الشفاه الحيَّة هي شفاه تقبل وتعطي في آن واحد. والقبلة حركة رائعة ، ولذلك بالضبط لا يجوز الحطّ من قدرها واللعب بها ، بل يجب الاحتفاظ بها علامةً لشيء عميق جدًا (نحن هنا في صميم ما تعتقده الكنيسة في شأن الاخلاق الجنسية). القبلة هي تبادل النفخات ، وهو يعني تبادل اعماقنا : أَنفخُ نَفْسي فيك ، وأزفِر نَفْسي فيك ، وامتصّك فيَّ بحيث اكون فيك وتكون فيَّ.

اي أني أزيح عن المركز لئلاَّ اكون بعد اليوم مركزًا لنفسي ، بل تكون انت مركزي. أنت من احبُّه ، انت مركزي ، أحيا بك وفي سبيلك. وانا عالم بأنك انت أيضًا تزيح عن المركز وأنك لم تعد مركزًا لنفسك ، بل انت مركَّز عليَّ. اني مركَّز عليك وأحيا في سبيلك. وانت مركَّز عليَّ وتحيا في سبيلي ، وكلانا يحيا الواحد بالآخَر. الحب هو الحياة في سبيل الآخر (العطاء) والحياة بالآخَر (القبول). الحب هو الكفّ عن الحياة في النفس وبالنفس وفي سبيل النفس.

هذا هو جوهر سر الثالوث. ان كان الحب عطاءً وقبولاً ، فلا بدّ ان يكون هناك عدة اشخاص في الله. لا يعطي الانسان نفسه لنفسه ، ولا يقبل الانسان نفسه بنفسه. وحياة الله هي حياة القبول والعطاء هذه. فليس الآب إلاَّ

حركة نحو الابن ، وليس هو إلاَّ بالابن. سيّداتي ، ان اولادكنَّ هم الذين يمكّنونكنّ ان تكنَّ امَّهات. فبدون اولادكنّ ، لا تكوننَّ امَّهات. ليس الآب إلاَّ ابوَّة ، فليس هو إلاَّ بالابن وليس هو إلاَّ في سبيل الابن. وليس الابن إلاَّ ابنًا ، فليس هو إلاَّ في سبيل الآب وبالآب. وأَمَّا الروح القدس فهو القبلة المشتركة.

ولمَّا كانت حياة الله حياة القبول والعطاء هذه ، وبما انه عليَّ ان أُصبح ما هو الله ، لا يمكن ان اريد ان اكون انسانًا منعزلاً. فإن كنت انسانًا منعزلاً ، لا أشبه الله. وان كنت لا أشبه الله ، لا يجوز لنا ان نتحدَّث عن المشاركة في حياته للأبد. وهذا ما أسمّيه الخطيئة ، وهو ان لا أشبه الله ، وان لا أسعى لأصبح ما هو ، اي عطاءً وقبولاً.

ان لم يكن الله إلاَّ محبة ، كان فقيرًا ، مرتبطًا ، متواضعًا. يبدو ذلك مستحيلاً لأوّل وهلة ، ومع ذلك فإن هناك جملة للمسيح تسود كل شيء ، فلا بدّ ان نقف منها موقفًا جدِّيًّا. حين أرى يسوع راكعًا عند اقدام الرسل وعلى وسطه منديل ومنشغلاً بغسل اقدامهم ، عندئذ اسمعه يقول : «من رآني رأى الآب» ، اي «من رآني رأى الله» (يو ١٤/٩). اجل ، ان المفارقة شديدة ، وقد نشعر بترنّح عقلنا ، لكن لا حيلة لي. فإن الله لا يكشف لنا نفسه كائنًا لامتناهيًا. ليس الاله الذي نؤمن به إله الفلاسفة ، إله ارسطاليس او افلاطون ، بل هو الإله الذي أوحى به يسوع المسيح.

سنتقصّى هذا التأمّل انطلاقًا من اختبارنا البشري. فإن لم يكن لنا أيّة خبرة في الحب ، لا نعلم ما نقوله حين نقول : ليس الله إلاَّ محبة. لا بدّ من الكلام عن خبرة ، وإلاَّ كان كلامنا نظريًا وغير واقعيّ ، ونحن نعلم بأن الشبيبة تكره ما يعلَّم بسلطان ، من دون ان يكون له اية نقطة اتّصال بالاختبار.

في اختباري الانساني ، أرى أن الحب لا يكون من دون فقر . اتريدون ان تحاولوا ، مدة بضع لحظات ، ان تتصوَّروا نظرة حب لا يكون فيها إلاَّ حب؟ الأمر عسير جدًا ، لأن كل نظرة بشرية يداخلها دائمًا غير الحب . وحتى في أغرم نظرة ، نجد دائمًا نظرة الى النفس . انا خاطئ ، وهذا يعني أنَّ عليَّ ، في اللحظة التي اقول لك فيها إني احبّك ، ان أضيف ، إن كنتُ صادقًا : لكنَّ هناك احدًا افضّله عليك ، وهو أنا . تلك هي الخطيئة ، ايًا كان الشكل الذي تتَّخذه . الخطيئة الاصلية هي عجزي ان أحبّ حبًا خالصًا . وهذا هو السبب في ان الآخَر ليس كل شيء في نظري (كل شيء بالمعنى الدقيق) ، وهذا هو السبب في اني لستُ حركة خالصة نحو الآخر (خالصة بالمعنى الدقيق) ، كما ان الآب ، في الثالوث الاقدس ، هو حركة خالصة نحو الابن ، والابن حركة خالصة نحو الآب ، علمًا بأن الروح القدس هو تبادل هذه الحركة وديناميتها .

لكن هناك سبيلاً الى تصوّر نظرة حب ليس فيها إلاَّ الحب ، لأني اعتقد بأن في اختبار الحب البشري (سواء اكان حبًا زوجيًا ، ام عطفًا اخويًا ، ام حبًا ابويًا او امويًا ، ام بذلاً للنفس في سبيل الآخرين ، الخ) ما يكفي من الحب ، وإن داخله كثير من الانانية ، لنستطيع ان نفهم ما هو الحب ، اذا كان في الله ، في كل خلوصه وفي كل كماله .

حين ينظر رجل الى امرأته بنظرة حب ليس فيها إلاَّ حبّ ، ماذا يمكنه ان يقول لها؟ ما هي الجملة التي يمكنه ان يلفظها للتعبير عن نظرة الحب هذه؟ لا ارى إلاَّ جملة واحدة : « انتِ لي كل شيء ، انتِ فرحي كلّه » . انها قول فَقْر : ان كنتِ أنتِ كل شيء ، فلستُ أنا بشيء . خارجًا عنك ، انا فقير . ليست ثروتي فيَّ ، بل هي فيكِ . ثروتي هي انتِ ، وامَّا أنا فإني فقير .

اذا صحّ ذلك في الحب البشري ، فما أحراه ان ينطبق على الله ! ان الله هو الفقر المطلق . ليس فيه ايّ أثر تملّك . منذ الازل ، يقول الآب للابن : انت

لي كل شيء. فيجيب الابن للآب: انت لي كل شيء. وامَّا الروح القدس فهو دينامية هذه الحركة. أفقر جميع الكائنات هو الله. فإن ترنَّح عقلك أمام مثل هذه النظرة، قُل عندئذ: الله غنيّ، ولكن أَضِف فورًا: غنيّ بالمحبة، لا بالتملّك. والحال ان الغِنى بالمحبة والفقر هما شيء واحد بالضبط. الله هو لانهاية فقر. وأَمَّا التملّك فهو عكس الله.

اجل، نظرًا الى تعقّد الامور البشرية، لا بدّ من شيء من التملّك. فالذي لا يملك ايّ شيء هو المتشرّد. المصيبة أنه، ان لم يكن له اي شيء، يشقّ عليه كثيرًا ان يكون. وهذا يعني ان الكيان من دون التملك أمر مستحيل في هذه الدنيا. ولذلك تقول الكنيسة إن هناك حقَّ تملُّك: فلكي يكون الكائن البشري، لا بدّ من شيء من التملّك. لا في الله على الاطلاق. ولن ندخل في الله، ما لم نتجرَّد من كل تملّك. وليس الفقر المادّي الذي رافق يسوع في بيت لحم والناصرة إلاَّ علامة فقر اعمق بكثير. فقر الله كبير، لامتناهٍ، مطلق، وإلاَّ لما جاز لنا ان نقول إن الله محبة.

ما أبعدنا عن بعض التصوّرات التي تُطلق على الله! لنكن جدّيين، لأن هذا صميم ايماننا. هناك ملحدون ليسوا بجدّيين، ولكنْ هناك أيضًا مسيحيون ليسوا بجدّيين. ان اردنا ان نقف موقفًا حقيقيًا، وجب علينا ان نقارن بين المسيحي الجدّي والملحد الجدّي. والمسيحي الجدّي هو الذي يعترف بفقر الله.

ارتباط الله

لنحاول أيضًا ان نتصوّر نظرة حب امرأة الى زوجها، لا يكون فيها إلاَّ حب، ولنلجأ الى برهان الخُلْف. هل تستطيع هذه المرأة ان تقول لزوجها: أُحبّكَ، ولكن، ان دعاك وضعك الى بلد بعيد، سأبقى أنا هنا؟ وبعبارة أخرى، في الوقت الذي اعبّر فيه عن حبّي، أؤكّد لَكَ استقلالي عنك. من الواضح ان مثل هذا الموقف مستحيل وغير معقول. فمن أحبَّ أراد الارتباط:

احبّكَ فأتبعك الى اقصى العالم ، اريد أن اكون مرتبطةً بك .

ففي كل جماعة بشرية ، نجد هذه الجملة الضمنيَّة : اريد ان ارتبط بك . لماذا كثر في الوقت الحاضر عدد الجماعات التي تولد ولا تلبث ان تموت؟ لأنها تخلو من ذلك التأكيد على الارتباط المتبادل .

فإن كان الحب ، في الحب البشري ، يفترض ارادة الارتباط ، فما أحراه ان ينطبق على الله ، حيث المحبة تبلغ الكمال . ولكن لا نَنْسَ عبارة «ليس إلاَّ» ، ولا نخرجْ عن دائرة المحبة . إذا لم يكن الله إلاَّ محبة ، فهو اشدّ الكائنات ارتباطًا ، وهو لانهاية ارتباط . أبو الابن الضال مرتبط بابنه ، فإن لم يرجع ابنه ، بكى ، وان رجع ، كان في الفرح (لو ١٥) .

لنَحذَر من التباس يجب ازالته ، فإن هناك نوعَين من الارتباط : هل الطفل مرتبط بأمّه ام الأم مرتبطة بطفلها؟ على صعيد الكيان والحياة ، الطفل هو المرتبط بأمّه . ولكن ، على صعيد الحب ، اليست الأم هي المرتبطة بطفلها؟ ان ارتباط الولد بأمه غريب عن الحب والحرية . فإن لم تكن أمه هنا لتُرضعه ، جاع ولا شك . أَمَّا في الحب ، فالأم هي المرتبطة بولدها ، لأنها في تلك الساعة تقول له : انت فرحي كله . وان تعسَّر التنفّس على الولد ، وان كان مريضًا ، وان كان الطبيب قلقًا ، لا تعود الأم تعيش ، من شدة ارتباطها بولدها . ان الله اشدّ جميع الكائنات ارتباطًا ، في المحبة لا في الكيان .

تواضع الله

ان الله متواضع واشدّ الكائنات تواضعًا ، لا يسوع فقط ، وهو الذي نقول له : «يا يسوع الوديع والمتواضع القلب ، اجعل قلبنا مثل قلبك» ، بل الله في صميمه . اجل ، لا بدّ من التنبيه الى خطأ : ليس الله متواضعًا بمعنى أنه قد يكون ناقصًا او ضعيفًا . نحن نكون متواضعين ، حين نعترف بأننا مساكين . لكن الله ليس متواضعًا بهذا المعنى ، بل بمعنى ان المحبة لا تستطيع النظر من فوق الى تحت .

وهنا أيضًا ننطلق من اختبار الحب البشري. اتظنّون أن الرجل يستطيع، في فعل الحب، ان يقول لامرأته: «احبُّكِ، لكن لا تنسَي أني اعلى منكِ. أنا مُجاز في الفلسفة والعلوم، أمّا انتِ فلم تحوزي إلاّ على الشهادة الابتدائية»؟ افتظنّون ان في ذلك شيئًا من الحب؟ هل تستطيع النظرة المُنيفة او التي تنظر من فوق أن تكون نظرة حبّ؟ لا بالتأكيد. يجب التفكير في ذلك، وهذا يستغرق كثيرًا من الوقت، لا بل لا بد من الحياة كلها ليفهم الانسان قليلاً ما هو الحب. وهذه هي بالضبط الحياة المسيحية.

لمّا غسل يسوع اقدام الرسل مساءَ خميس الاسرار، نظر اليهم من تحت الى فوق، وفي هذه اللحظة قال لنا من هو الله. نبحث عن الله في المرِّيخ، في حين أنه يغسل اقدامنا. من الواضح ان غسل الاقدام هو درس في المحبة الاخوية، لكنه، على وجه اعمق، كشف عمّا هو الله. لا يسع الله إلاّ ان يقف موقف من هو تحت. وإلاّ، لما استطعنا ان نقول إن الله محبة. قلّبوا الاشياء من جميع وجوهها، لا تجدوا سبيلاً الى غير ذلك. إن تواضع الله هو عمق الله.

قد تقولون لي: لكن الله اكبر منّا! اجل، أكبر بالمحبة، بما انه مجرّد محبة. ففي التواضع اذًا يكون الله اكبر منّا، لأننا لن نصير متواضعين ابدًا، كما ان الله متواضع. ان الله الذي نؤمن به هو متواضع حتى اللانهاية، وبعبارة اخرى، هو مجرّد من كل مَقام. والمَقام هو غير الجوهري دائمًا. فينا شيء من المَقام، من التزييف، لا نجده في الله. الله ملء التواضع.

أسمع تلك الشبيبة التي يشقّ عليها ان تتحمَّل هذه الكلمات الطقسية: «لكَ الملك والقدرة والمجد»، واتفهّمها بسهولة. لا أقترح حذف هذه الكلمات، لأنها تقليدية وتعني شيئًا. لكن علينا ان نفهم أن كُنه المجد هو التواضع الذي بدونه لا تكون المحبة محبة حقيقية. فالمحبة التي ليست إلاّ محبة لا تنظر من فوق الى تحت، اذ ليس هناك نظرة حب تكون نظرة من فوق الى تحت. الانحناء على الشعب هو عدم حبّ الشعب، والانحناء على الولد هو عدم حبّ الولد. ان الله لا ينحني.

ما هو في صميم الله هو القدرة على الاحتجاب. أللبروز ام للاحتجاب يحتاج الانسان، في رأيكم، الى مزيد من القدرة؟ تفيدني خبرتي أنا بأنه يحتاج الى مزيد من القدرة على الاحتجاب. فإذا كان الله قديرًا واذا كنتُ لا استطيع ان افهم شيئًا من هذه القدرة إلاَّ انطلاقًا من خبرتي، استنتجتُ أن الله قدرة لا متناهية على الاحتجاب.

انظروا ماذا تصبح العبادة! أترككم عند هذه الصورة: فكِّروا في فتاة بسيطة، في قروية في الخامسة عشرة. وتصوّروا ان زيرًا رآها ووجدها جميلة فأراد ان يغويها. فعلم انها تسمّى مريم وانها تسكن الناصرة. وكلَّما اقترب، لاحظ أن عظمةً تنبعث منها، حتى انهارت جميع مساعي الإغواء. إنها عظمة لا يسع الانسان إلاَّ ان ينحني امامها. فارتمى المُغوي على ركبتيه امام تواضع هذه الفتاة الجليل. ولكي اعرف من هو الله، اواصل طريقي في الاتّجاه نفسه، وأصل عندئذ الى الله: ما أبعدنا عن جوبيتر وعن العقلية الابوية والنزعة الانتصارية! هذا هو الله الذي يكشفه لنا يسوع المسيح.

الموت والقيامة

لو اكتفينا بما قيل حتى الآن، لاصطدمنا، ولا شك، باعتراض رهيب: التأليه مستحيل، فإن الله هو بالضبط ما لا يستطيع الانسان ان يصير، والله لا يقدر على المستحيل. من الخطأ ان نعتقد بأن الله قادر على اي شيء. فالله لا يستطيع ان يجعل اثنين واثنين يساويان خمسة او ستة، هذا شيء غير ممكن. ومن ادَّعى ذلك تكلَّم ولم يقل شيئًا. حين نقول إن الله متعالٍ، نقول بالضبط إنه آخَر، آخَر على الاطلاق، وإن بينه وبيننا هوّةً لا تُعبَر أبدًا. وبناءً على ذلك، من تجاسر على القول بأن معنى الوجود البشري هو التأليه، قال شيئًا لا يبدو ممكنًا.

التحوُّل

لذلك اقترح عليكم تحويل الجملة «دعوتنا هي التأليه» الى الجملة التالية: «دعوتنا هي ان نحوَّل عن يد الله». لا يصبح الانسان ما هو الله، إن تقدّم بهدوء على طول مسطَّح مائل، ولم يصبّ كما هو في حياة الله نفسها. لا بدّ لذلك من تحوُّل جذري. ان اراد الانسان ان يصبح الله، وجب عليه ان يحوَّل

تحويلاً جذريًا. وهذا التحويل يفترض موت شيء وولادة شيء جديد. فإن كانت دعوتنا ان نؤلّه، فلا بدّ ان يكون مصيرنا على شكل موت وقيامة.

من المهمّ ان يحدَّد هذان اللفظان. عندما اتكلّم على الموت، طوال هذا العَرض، لا اعني مجرَّد موتنا الأخير، الموت الذي تنتهي به حياتنا، ساعة نلفظ النَفَس الأخير، بل اقصد ذلك الموت الذي لا بدّ منه طوال الحياة، الموت عن النفس، الموت عن الانانية المسمَّى تضحية. لا يخفى على احد أن إنجاب الاولاد وتربيتهم يفرضان الكثير من التضحيات. وعندما اتكلّم على القيامة، لا أعني العودة، بعد الموت، الى الحياة التي كانت قبل الموت. فالقيامة انتقال الى حياة تختلف كل الاختلاف.

اريد ان أبيِّن لكم ان الانتقال الى الحياة الالهية، الى حياة الله نفسها، الذي يتمّ، لا بعد الموت فقط، بل طوال الحياة، يفترض دائمًا موتًا وولادة جديدة او قيامة. نختار امثلتنا في أبسط أنواع الحياة. المطلوب ان نفهم ان النموّ ليس كُبرًا، بل هو تحوُّل. لا وجود للكُبْر إلاَّ في عالم الجماد. وحالما يتناول اهتمامنا جسمًا حيًا، وان كان حيوانيًا، يدور الكلام على التحوّل. سآتي بثلاثة أمثلة يبدو لي انها بسيطة وبليغة.

صبيَّة تصبح امرأة

ليست المرأة صبيَّة كبيرة، والمرأة التي تكون صبية كبيرة تكون مِسخًا. ولا تصبح امرأة إلاَّ بالتحوُّل، اي بالموت عن حالتها، عن وضعها كصبيَّة، للولادة الى وضع المرأة البالغة وحالتها.

نتناول هنا شيئًا أساسيًا. ان سألتُ الصبية ماذا يمكنني ان أعمل لكي أسرّها، أجابت عفويًا: أريد ان اكون كبيرة كأمّي. لكنها لا تفكّر ثانيةً أنه يجب عليها لذلك ان تتخلّى عن لُعَبها وعن حياتها الخالية من الهموم، للانتقال الى شيء جديد على الاطلاق، وهذا أمر لا يتمّ من دون ألم. إنها لا تعلم بأنه يجب عليها، لتصبح شخصًا بالغًا، ان تموت عن طفولتها لتلد الى البلوغ.

تبدو هذه الملاحظة قليلة الاهمية ، لكنها في الواقع تبلغ شأوًا بعيدًا ، لأن فيها وجهًا لما يُسمَّى في عصرنا الاسطورة. من الوجوه الاساسية في الاسطورة أن مِن طبع الانسان أن يُسقط في المستقبل صورة الحاضر كما هو ، من دون ايّ تحويل.

بهذا المعنى ، يمكننا ان نقول إن الكتاب المقدس يحتوي على الفن الاسطوري على صعيد البلاغة. فالكتاب المقدس يصوّر لنا الحياة الابدية بصورة راحة ، ونحن نميل الى تصوّر الحياة الابدية في خط تلك الراحة التي تهمّنا في حياتنا الارضية ، حين نكون تَعِبين. إذا تركنا مخيّلتنا تشرد ولم نؤدّبها بالتفكير ، تصوَّرنا تلك الحياة الابدية نوعًا من البطالة الهادئة الابدية. قد تقولون لي إن الليترجية تتجاوب مع ميلنا هذا ، اذ إننا نقول في رتبة الاموات : اعطهم ، يا رب ، الراحة الدائمة. لكن الليترجية تفترض أن نكون اذكياء.

تُصوَّر لنا أيضًا الحياة الابدية بصورة وليمة ، لأن الجلوس مع الآخرين الى المائدة ، في الحياة الحاضرة ، يدل على الاخوّة والسلام والفرح. ففي الكلام على الوليمة الأبدية ، تُسقَط في المستقبل صورة الحاضر كما هو. كل ذلك من الفنّ الاسطوري ، ولا بدّ من الاعتراف بأن العهد القديم والانجيل نفسه والليترجية لها وجوه اسطورية يجب نقدها نقدًا جدّيًا.

لا تستغربوا ان اقول لكم إن البلاغة الكتابية تحتاج الى نقد. فكلمة الله كلمة بشرية : خاطب يسوع بني جيله ، وكان يريد ان يفهموه ، فاستخدم الاساطير القديمة التي كانوا يفهمونها. فمن اختصاص علم اللاهوت ان يقوم بالنقد ، اي ان يفكّر ويفهم ما يختفي تحت الاسطورة ، لكيلا تستسلم مخيّلتنا للتجربة الصبيانيّة فتُسقط في المستقبل صورة الحاضر كما هو بدون ايّ تحويل.

نحن اذًا ميّالون الى تصوُّر السعادة السماوية مزيدًا ممَّا نسمّيه سعادة في هذه الدنيا (الراحة والوليمة الخ) ، في حين ان السعادة السماوية هي في الواقع سعادة الله نفسها. فالتأليه والذهاب الى السماء ، كما ورد في كتاب التعليم

المسيحي ، لا يقومان على صعود جبل ولا على الذهاب الى مكان ، بل هما مشاركة في الحياة الالهية . والحال ان الله محبة ، فليست الحياة الابدية سوى المحبة ، والخروج من النفس وعدم التفكير الاناني في النفس وعدم الانطواء على النفس وعدم الانكماش على النفس ، وعلى تفضيل الآخرين على النفس . هذه هي السعادة السماوية .

دودة تصبح فراشة

ليست الفراشة دودة كبيرة ، لأن النمو لا يكون ابدًا مجرّد كُبْر . فلو كان للدودة وعيٌ وكنتُ استطيع ان اخاطبها ، كما يجري في قصّة جِن ، لسألتها بماذا تحلم . لا شك أنها تُجيبني ، بوجه اسطوري ، أنها تحبّ ان تكون أكبر دود الغابة ، ومَلِكة الدود ، تلك التي تستطيع ان تملك ، بفضل حجمها ووزنها ، على سائر دود الغابة .

يُسمّى ذلك ارادة قوّة ، وما هو إلاّ المزيد على الوضع الحاضر ، من دون اي تحويل . لا تعلم الدودة بأن عليها ، لكي تصبح ما يجب ان تكون ، ان تتخلّى عن جسدها الدودي وان تُعطى جسمًا جديدًا ، اذ لا وجود لها إلاّ لتصبح فراشة : هذه هي دعوتها . ولن تكون ما يجب ان تكون إلاّ يوم تصبح فراشة .

حبة حنطة تصبح سنبلاً

لا فائدة في التوقّف عند تلك الأمثلة البديهية ، بما ان المسيح يسوع نفسه اهتمّ في الانجيل باختيار مثل ولا ابلغ ، في الفصل ١٢ من انجيل يوحنا : قصة حبة الحنطة . لا يتوسّع يسوع في هذه القصة ، فمن السهل ان نقوم نحن بهذا العمل . ان كان احدكم موهوبًا في الادب ، أُشير عليه ان يؤلّف قصة حبة الحنطة . قام كاتب دانمركي ، جورجنسن ، بهذا العمل ، وهو الذي كتب سيرة القديس فرنسيس الاسيزي . فلقد حرَّر مثلاً رائعًا في قصة حبة الحنطة .

حبة الحنطة سعيدة جدًا في هُرْيها . لا مزراب ولا رطوبة ، ورفيقاتها في

كومة الحنطة لطيفات جدًا : لا شِجار ، بل كل شيء على ما يُرام. اقول لكم إن سعادة حبة الحنطة في هُرْيها تشبه سعادة الانسان الذي يتمتع ببحبوحة عيش مقبولة ونجاح في الاعمال وعافية الخ ... اجل ، لا نستهين بالسعادة البشرية ، وأتمنّى لكم جميعًا ان تكونوا سعداء بتلك السعادة ، بسعادة حبة الحنطة في هُرْيها . لكنها سعادة زهيدة بالنظر الى ما سنكون للأبد.

اتصوّر أن حبة الحنطة تقيّة تشكر الله: اشكركَ، يا رب، على ما تهبه لي، على تلك السعادة التي بفضلها اراني سعيدة جدًا في هُرْيي ، واتمنّى ان يدوم ذلك ! انها على حق في شكرها لله . ولكن ، لا يجوز ان تخاطب حبة الحنطة إلهًا لا وجود له ! والحال أن إلهًا لا يكون إلاَّ صانعًا وكفيلاً للسعادة الزهيدة التي تتمتّع بها حبة الحنطة في هُرْيها ، وان كانت هذه السعادة مشروعة الى حد بعيد ، اقول إن مثل هذا الاله لا وجود له ، بل هو وثن . هذا هو بالضبط الاله الذي يُنكره كثير من الملحدين في ايّامنا . فهل يجوز لنا ان نقول إنهم على خطأ؟ وان أصرَّت حبة الحنطة على الترنيم بالتراتيل، اتناول قلمي وأحرّر مقالاً للكلام على اوهام المؤمنين.

في احد الأيام ، شحنوا كومة الحنطة على عجَلة وخرجوا بها الى الحقول . الحقول هي أيضًا جميلة وممتعة ، لا بل اجمل وامتع من الاهراء . فلمّا رأت حبة الحنطة السماء الزرقاء والشمس والأزهار والأشجار والسهول والجبال ، اخذت تشكر الله اكثر من ذي قبل : شكرًا لك يا رب ، ما أجمل كل هذا ! إنها على حق ، لا بدّ من شكر الله على ما في هذه الدنيا من أشياء جميلة . لكنها لا تزال حبة حنطة : إن إلهًا يُبقي حبة الحنطة حبة حنطة ، إن إلهًا يحفظ حبة الحنطة في هُرْيها ، من دون ايّ خِصب ، لا وجود له .

ثم وصلوا الى الحقل الذي تمّ حرثه من زمن قريب . وأفرغوا كومة الحنطة على الأرض : رعشة خفيفة ، فالارض باردة قليلاً ! لا بأس ، فالبرودة تشرح الصدر، وهذا شعور جديد . لكنَّهم دفنوا حبة الحنطة في الأرض . فلم تعد ترى شيئًا ، ونفذت الرطوبة اليها ، الى داخلها . ان حبة الحنطة ، التي تمرّ بالموت

المحتَّم لتتحوَّل فتصبح ما يجب ان تكون، اي سنبلاً كبيرًا، أسفت على الهُرْي الذي كانت فيه سعيدة جدًّا، وان كانت سعادتها سعادة بشرية زهيدة. وفي تلك اللحظة بالذات، قالت ما يقوله حولنا الملايين من الناس: لو كان الله موجودًا، لما حدثت مثل هذه الامور. يا لها من خسارة، لأن الكلام يدور هنا على الاله الحقيقي، على الاله الذي يحوّل حبة الحنطة لينقلها من حالة حبة الى حالة سنبل، وهذا الأمر لا يكون إلاَّ عن طريق المرور بالموت. لا وجود لإله إلاَّ للإله الذي يجعلنا ننمو فننتقل من وضع بشري محض الى وضع بشري مؤلَّه.

تلك هي قصّتنا نحن، ذلك هو الوضع البشري. لا نموّ من دون تحوُّل، ولا تحوّل من دون موت وولادة جديدة. هناك، والحالة هذه، ثلاثة نماذج للموت والولادة في تاريخ البشرية، ثلاثة نماذج للتحوُّل، ثلاثة فُصوح نموذجية.

كلمة فِصح مشتقَّة من كلمة عبرية قد تعني «العبور» او «الانتقال». في حياتنا عبوران: العبور الاول هو ولادتنا البشرية: انتقلنا من العدم الذي كنّا فيه، قبل مجيئنا الى العالم بتسعة أشهر، الى وضع طفل في سريره. انه عبور عجيب في حدّ ذاته، انتقال من العدم الى الوجود البشري الذي هو وجود عاقل وحرّ. لكن ليس هذا العبور الاول إلاَّ شرط عبور ثانٍ.

العبور الثاني هو الانتقال من وجود بشري الى وجود بشري إلهي بحصر المعنى. وهذا العبور لا يقاس بالعبور الأول، او اننا لا ندري ما نقول حين نلفظ كلمة الله. إنه لأمر رهيب ان ننتقل من العدم الى الوجود البشري، ولكنه لأمر أرهب بكثير ان ننتقل من الوجود البشري الى الوجود البشري الالهي. يتمّ العبور الاول من دون موافقتنا: لم نُستأذن لإنجابنا. طالما اشتكى من ذلك لوقريتيوس الشاعر اللاتيني القديم – وكان متشائمًا – في بيت شعري رائع كتب فيه أنه «قُذف من بطن امّه الى شواطئ النور»، وأضاف: «وقد تمَّ كل ذلك من دوني!». أمَّا العبور الثاني فإنه لا يتمّ من دوننا ويجري طوال الحياة.

ان وجب ترجمة الفرق بين هذَين العبورَين بألفاظ مكانية، قلت إن

المسافة القائمة بين العدم والوجود البشري تشبه المسافة القائمة بين الأرض وهذه الطاولة. وإن المسافة القائمة بين الوجود البشري والوجود البشري الالهي تشبه المسافة القائمة بين الأرض والشمس، علمًا بأن تشبيهي هذا يكون أعرج، لأن المسافة من الأرض الى الشمس مسافة تقاس وقد قيست، في حين أن المسافة الى الله لا تُقاس.

أنتهز الفرصة لأقول لكم، بصورة خاطفة، إن الوجود البشري رائع حقًّا في نظر الدين المسيحي. فكّروا في أننا مدعوّون لنصبح الله! ولكن، اذا كان الوجود البشري رائع، فهو مأسوي أيضًا، ولا يمكن ان يكون الامر على غير ذلك. ليس هناك حلّ وسط بين تأليهنا والحكم علينا بالهلاك الابدي. ولا يكون الرائع رائعًا حقًّا، ان لم يكن ظهره مأسويًا.

والفصح هو ذلك العبور الثاني. وهناك ثلاثة فُصوح، ثلاثة انتقالات محوِّلة في تاريخ البشرية.

ثلاثة فُصوح او انتقالات محوِّلة

فصح العبرانيين

يُروى لنا في سفر الخروج، والمفترض ان يكون كل مسيحي قد قرأ بعض فصوله، لا سيّما وان هذا السفر يُقرأ كالقصة.

كان العبرانيون في مصر اقلّية مظلومة. ولا يخفى علينا ما هو وضع الاقلّيات، فهي كثيرًا ما تُستغلّ. كان مفروضًا على العبرانيين ان ينقلوا قشًا وآجُرًّا لبناء البيوت. كانوا مسخَّرين وكانت أجرتهم حصّة متواضعة من البصل، ذلك البصل المصري الذي يباع حتى اليوم في زوايا شوارع القاهرة.

ذاتَ يوم، امر الفرعون بتكثيف العمل من دون ان تُزاد الاجرة. فخاطب موسى الله (ترجموا: اختبر اختبارًا روحيًا، وهو ما يعبَّر عنه في

الكتاب المقدس بشكل حوار مع الله). قال له: «هذا امر لا يُحتمل، فإن شعبك شعب عبيد». أجابه الله: «انت على حق، لا استطيع ان اتحاور مع شعب عبيد. اريد ان يكون ابنائي بشرًا أحرارًا. ما يحدِّد هوية الانسان هو الحرية. ستنتقل بهم (فِصح) من مصر العبودية الى فلسطين الحرية. فلسطين هي الارض التي وعدتُ بها اجدادك، الارض التي يكونون فيها بشرًا احرارًا».

يمكننا أيضًا ان نخطو خطوةً ونتساءل ما هي الحرية لشعب من الشعوب. هي في جوهرها الازدهار الاقتصادي والاستقلال السياسي. ان غاب احدهما، لم تكن الحرية تامة. ستكون ارض فلسطين مزدهرة، ويقول الكتاب المقدس إنها ارض «تدرّ لبنًا حليبًا وعسلاً». أمّا الاستقلال السياسي، فكلّما هدّده المصريون والبابليون والاشّوريون، سيتدخّل الله، وذلك هو تاريخ الشعب العبراني كما نعرفه.

بين مصر العبودية، اي وضع حبة الحنطة في هُرْيها، وفلسطين الحرية، تقوم بريّة واسعة الارجاء، هي سيناء. يستغرق اجتيازها اربعين سنة، وهو رقم رمزي يعني زمنًا طويلاً. كلّما تقدّم العبرانيون في البرية، شابهوا حبة الحنطة التي تُدفَن في الارض، وأخذوا يأسفون على الزمن الذي كانوا فيه عبيدًا في مصر، اذ كانت لهم أجرتهم على الاقل وحصتهم المتواضعة من البصل، في حين انهم الآن في برية ليس فيها ما يأكلون. ولذلك أخذوا يتمرّدون. فوجب على موسى ان يهدِّئهم بمعجزة السلوى ومعجزة المن ومعجزة الماء الذي خرج من الصخرة. وكلّما تقدّموا، ازدادت التربة كِلسًا، وارادوا الرجوع الى الوراء.

انظروا الى ذلك الشعب الذي كان مستعبدًا والذي يسير نحو الحرية والذي يريد العودة الى الاستعباد. أخرج جان لويس بارو الى المسرح تمثيلية جميلة من پول كلوديل، عنوانها «كتاب كريستوف كولومبوس». يتمرّد فيها البحّارة وهم في عُرض المحيط الاطلسي ويريدون الرجوع الى الوراء، لأنهم جائعون وعطشى وتعبون.

وفي «الإخوة كرامازوف» وهي قصة من اعظم قصص الآداب كلها، يضع دوستويفسكي على لسان قاضٍ في محكمة التفتيش: «إن خُيِّر الشعب بين السعادة والحرية، فقد يختار السعادة، وأسفاه»، السعادة المحدودة التي تتمتع بها حبة الحنطة في هُرْيها! سعادة شعب غير مسؤول عن اي شيء، ولا يشارك في حياة الامة، ولا يتوجّب عليه اتّخاذ المسؤوليات (تلك المسؤوليات التي بدونها لا يكون الانسان انسانًا اصيلاً)، بل يقنع بحياة وضيعة جدًا، ما دام يؤمَّن له السكن واللباس والطعام. المصيبة هنا: أن يُخيَّر الانسان بين السعادة والحرية، فيفضِّل السعادة وحدها على السعادة في الحرية.

وأخيرًا رضي الشعب بأن يتبع موسى ويصل الى ارض الميعاد، اي الى وطن الحرية. ولكن كان من المستحيل ان يختصروا طريق البرية. وكانوا يشعرون بأنهم يذهبون الى الموت، مع انهم كانوا يذهبون في الواقع الى الحياة الحقيقية، كما ان حبة الحنطة المدفونة في الارض تظنّ انها تموت، في حين أنها تسير في الحقيقة الى السنبل الجميل الذي لن يلبث ان يتمايل في الهواء. لا يمكن التحوُّل من دون المرور بالموت والتضحية بطراز معيَّن من السعادة، وبعبارة واضحة، من السعادة الانانية. لا بدّ من التخلّي عن الانانية لتذوّق السعادة الحقيقية، سعادة الله نفسها، التي دُعينا إليها للأبد. لا بدّ من المرور بالموت للوصول الى الحرية الالهية الكبرى. لا يمكن الانسان، إن لم يحوَّل، أن يصبح انسانًا حرًا بحرية الله نفسها.

فصح المسيح

عاش لنفسه ما عاشه شعبه. عاشه أوَّلاً على وجه رمزي، حين قضى اربعين يومًا في البرّية، وهو على عتبة حياته العلنية (الأيام الاربعون تذكِّر بأربعي سنة الخروج من مصر)، ثم حين صعد الى الجلجلة، لا بوجه رمزي، بل بوجه حقيقي: ذهب الى الموت، ولكنه ذهب في الواقع الى الحياة الحقيقية التي هي الحياة المنبعثة من الموت في قلب الثالوث الاقدس، حياة الله نفسها. لم

يكن الفصح الأول سوى صورة، أمَّا فصح المسيح فهو الفصح الذي يرتكز عليه التاريخ.

سبق لنا ان قلنا إن المسيح هو الانسان، الانسان الكامل، الذي عاش مصير الانسان في كماله، هو الله نفسه الذي صار انسانًا ومات لكي يقوم من الموت، اي «لينتقل من هذا العالم الى الآب» (يو ١٣/١). ليست قيامة المسيح عودة الحياة التي كانت حياته قبل موته، بل هي الانتقال الى حياة الله. بعد القيامة، يحيا المسيح في قلب الثالوث، وظروف حياته هي ظروف الحياة الالهية. أصبح آخَر، ولم يعد مرتبطًا، كما نحن مرتبطون، بظروف المكان والزمان.

لِنفكِّر تفكيرًا سليمًا: أصبح المسيح آخَر، لكنه ليس بآخَر، بل هو هو. ما زال المسيح القائم من الموت انسانًا. كتب رومانو غوارديني: «الدين المسيحي هو الدين الوحيد الذي جرؤ على جعل الجسد (الانساني) في عمق اعماق الله». ولم يتخلَّ المسيح عن ناسوته حين قام من الموت، ولم ينفض «جسده» بعد ثلاثين سنة، كما يُنفض تراب غير مفيد. المسيح القائم من الموت هو الانسان الله للأبد. وبعد القيامة، لم يعد الثالوث الآب والابن والروح القدس، بل الآب والابن المتجسّد والروح القدس. ان الانسان يسوع، القائم من الموت، يحيا في قلب الثالوث. ولماذا تُرى أصبح الله انسانًا إلاَّ ليأخذنا معه فنحيا، «به ومعه وفيه»، في قلب الثالوث، حياة الله؟ ما اكبر الفائدة في بذل انفسنا لكي يعرف الناس ذلك فيكون موضع رجائهم!

فصحنا

الفصح الثالث في التاريخ هو فصحنا، وليس واحدًا، اعني ان كل قرار من قراراتنا هو فصح، اي انه في شكل موت وقيامة.

١. **أهمية قراراتنا**: لنفهم أولاً أن ما هو هام في حياتنا هو قراراتنا. فحياتي الحقيقية كرجل او امرأة، او ما هو بشري في حياتي، هو نسيج

قرارات. وما هو غير قرار في حياتي ليس بشيء ولا يبني شيئًا، بل هو حشوة (افكّر في ذلك القش الذي يوضع في الطرود لئلاّ تعطَّب فيها الاغراض الثمينة). للقديس اوغسطينس تشبيه اكثر شاعرية. قال: «مثلنا مثل الكنّارة، فأهم ما في الكنّارة هو الاوتار. اجل، هناك قاعدة، لكن الأوتار هي التي تهتزّ. فما يهتزّ في حياتي وما يكوّنني هو قراراتي، سواء اكانت صغيرة ام كبيرة».

وهناك القرارات الصغيرة التي تبدو قليلة الأهمية: تقديم المساعدة لجار مريض، والتخلّي عن نزهة لقضاء النهار في مستشفى عند رفيق أُصيب بجروح الخ. وان كنت اخاطب اولادًا، قلت لهم: التخلّي عن مكاني في الباص او في القطار، وتناوُل أصغر قطعة من اللحم في الطبق وتَرك اكبر قطعة للآتي بعدي الخ. هذه تضحية، هذا موت. فالولد الذي يقوم بذلك يموت عن انانيته.

وهناك القرارات الكبيرة: الزواج، او دخول المدرسة الاكليريكية او الحياة الرهبانية، والتخلّي عن امرأة ليست المرأة التي عاهدتُها على الإخلاص: إنه لأمر رهيب ومُدمٍ ان يتخلّى الانسان عن رجل او امرأة يحبّها. أعرف من اختباري مع الناس انه موت! ان رأى احد ان مثل ذلك القرار ليس رهيبًا، لم يكن انسانًا، وعلى الكاهن ان يكون انسانًا!

وما بين القرارات الصغيرة والقرارات الكبيرة سلّم كامل. ولكن ما هو غير قرار، او غير عمل حرّ، او غير اختيار، ليس بشيء. والحال ان قراراتنا هي التي تكوّننا، فإننا نبني حياتنا الأبدية يومًا بعد يوم، دقيقةً بعد دقيقة، وقرارًا بعد قرار. ولماذا؟ لأن المسيح القائم من الموت هو في قلب القرارات التي نتّخذها.

٢. **المسيح حاضر في قراراتنا**: لِنطرح السؤال ببساطة: اتؤمنون بأن المسيح قام من بين الاموات؟ بما أنكم مسيحيون، تجيبون: نعم، طبعًا. كتب القديس بولس: «ان كان المسيح لم يقم، فإيمانكم باطل» (١ قور ١٥/١٤).

ان كان المسيح قد قام ، فهل هو حيّ؟ من واجبكم ان تجيبوا : نعم . ومن قال إنه قام قال إنه حيّ .

وإن كان حيًّا ، فهو حاضر . اين تريدون ان يكون؟ ليس في القمر ، ولا في المرّيخ ، ولا وراء النجوم ، ولا في المكان الذي يفصل بيننا (بما أنه قام من الموت ، فهو غريب عن المكان ، ولا صلة له بالمكان) . إنه حاضر في حريتنا ، لأننا بالحرية نكون بشرًا في الحقيقة ، ونَبرز من الطبيعة .

وان كان حاضرًا ، فهو نشيط ، يعمل شيئًا ما ، لأن الحضور الخالي من النشاط ليس بحضور حقيقي . أَذكرُ امرأةً كانت لا تفهم ان المسيح يعمل في حريتنا . فقلت لها : «ليس هو بحطبة !» ، ففهمت فجأةً . ليس المسيح حطبة ، فليس هو هنا ليكون هنا (لنترك الآن سرّ الافخارستيا ، فستتحدث عنه في وقت لاحق) . ليس المسيح في غير المكان الذي نحن فيه ، وليس هو في اكبادنا ولا في مَعِداتنا ، بل هو في حرّيتنا . لا في حريتنا حين نكون نائمين ، بل في حريتنا حين نقوم بأعمال حرَّة ، اي حين نتّخذ قرارات .

وان كان نشيطًا ، فهو محوِّل . ماذا تريدون ان يعمل غير التحويل؟ إنه المحبة ، والمحبة تحوِّل كل ما تلمسه . انظروا الى تلك الفتاة المصابة الى حد ما بالضعف العصبي : إنها لا تريد ان تغادر غرفتها وترفض ان تأكل ولم تعد تنام . وها إنها لقيت ذات يوم فتى احلامها . فقال الناس : ماذا جرى لها؟ لقد تغيَّرت ، الحب حوَّلها . فالحب لا يسعه إلاَّ ان يحوِّل كل ما يلمسه .

وان كان محوِّلاً ، فهو مؤلِّه . بما ان الله هو الحاضر في حريتنا ، فالتحويل عنده هو التأليه ، اي ان يجعلنا نصبح ما هو .

أشدّد لأني أشعر حقًا ، بفضل التحقيقات التي قد أجريها هنا وهناك ، بأن هذه الحقيقة الاساسية في ايماننا تبدو عسيرة الفهم على الكثير من المسيحيين ، لأنهم لا يزالون غائصين في مفاهيم نظرية . فلا تقولوا إن ما اشرحه لكم الآن عسير الفهم ! ان قلت في احد إنه حيّ ، لا اكون نظريًا (ليس

الحضور امرًا نظريًا)، وان قلت في المسيح إنه حاضر في اعمالنا الحرَّة وفي قراراتنا، وإنه يحوِّلها، لا أكون نظريًا.

ولا تقولوا إني رجل فكر، وإلاَّ سهل عليَّ ان ابيِّن لكم ان رجال الفكر هم انتم. فإن رجل الفكر بمعنى الكلمة السيِّئ هو الذي يستعمل كلمات بالية من دون ان يكسرها. يجب كسر الكلمات، كما تُكسر حقّة النقود او بيضة الفصح ليُعرف ما فيها. وانا أُرغمكم على كسر الكلمات، وهذا امر لا بدّ منه.

٣. **المسيح يؤلِّه نشاطنا البشري المؤنِّس**: تبدو هذه العبارة وجيزة الى حد ما لأول وهلة، لكنها غير نظرية، فهي واقعية ولا اكثر. يُضفي المسيح على قراراتنا البشرية المؤنِّسة بُعدًا إلهيًا، وبعبارة أخرى، يؤلِّه ما نؤنسه.

ماذا تريدون أن يؤلِّه المسيح، ان لم نؤنِّس شيئًا، وان لم نُقدم على اي شيء، وإن أبينا ان نلمس اي شيء من الصباح الى المساء خوفًا من توسيخ ايدينا، وإن لم تكن حياتنا حياة من يعمل على تحويل علاقات الناس والمؤسّسات الاجتماعية والسياسية التي تكيِّف هذه العلاقات (فإن كانت المؤسّسات سيّئة، كانت العلاقات غير انسانية)؟ وهل تبدو علاقاتنا انسانيَّة حقًا وتزداد انسانيَّة؟ وهل تعمل القرارات التي نتّخذها على تأنيس العالم، على الصعيد العائلي اولاً، ثم على الصعيد الاجتماعي والسياسي؟ فالنشاط النقابي المدروس مثلاً هو نشاط يعمل على تأنيس علاقات الناس بعضهم مع بعض.

فالانسان لم يتمّ، وعلينا ان نصنعه. قال القديس يعقوب: نحن رسوم اوَّلية للإنسان. لا يخلق الله الانسان جاهزًا، فانه يمقت الاشياء الجاهزة، فيخلق الانسان قادرًا على خلق نفسه.

مهمّتنا البشرية أن نخلق الانسان، اي ان نعمل على ان يكون الانسان. لا اظنّكم تقولون لي إن الانسان هو ما يجب ان يكون. ايٌّ منكم يتجاسر أن يقف فيقول: أنا انسان؟ حين أرى طفلاً على ذراع امّه، اهنّئ الأم وأقول لها: إنه رائع، وارجو ان تعملي منه انسانًا! فما هو بديهي في الكلام على الطفل

يصحّ في الكلام على كل انسان في كل عُمر. هناك أشياء جاهزة، لكن الانسان ليس بشيء، بل الانسان يُصنع. يجب ان تصبح علاقاتنا ومؤسّساتنا انسانية حقًا، وهي في طريق التأنيس.

نحن بشر بالصيرورة، وقراراتنا هي التي تسهم في جعلنا بشرًا. ولا تكون قراراتنا انسانية حقًا، ما لم تكن مؤنِّسة. تمرّ انسانيتنا بإنسانية الآخرين، وتمرّ حرّيتنا بتحرير الآخرين. لا يصبح الانسان وحده انسانًا حرًا، بل إن عمل على تحرير اخوته، ويزداد انسانية ان عمل على جعل العالم اكثر انسانية.

وتلك القرارات المؤنِّسة قليلاً ما لا تكون تضحيات وموتًا عن النفس. لا يستطيع الانسان ان يبذل نفسه ويحفظها في آن واحد. تعلِّم الخبرة جميع الناس أنْ لا تخلو الحياة البشرية المؤنِّسة الاصيلة من التضحية. لكن ما لا يعرفه غير المؤمنين وما يجب علينا نحن ان نعرفه (بما اننا لذلك مسيحيون) هو أن كلاًّ من تلك القرارات المؤنِّسة، التي تُميت انانيتنا، اذا صح التعبير، هو انتقال الى الحياة الالهية، وأن كلاًّ من أنواع الموت هو ولادة جديدة. فالقرار هو القائم على بنية فصحية، بنية موت وقيامة.

فإننا لا ننتقل الى الحياة الالهية بعد الموت. اتوسَّل اليكم بأن تبعدوا عن عقولكم تلك الفكرة القائلة بأن الله يسكب في نفوسنا مشروبًا يسمَّى النعمة ويمكّننا من الانتقال بعد الموت الى بستان جميل يسمَّى الجنَّة. كل ذلك يوحي بالاساطير، وليست هنا في محلّها. ليست الحياة الالهية، ليست الحياة الأبدية، ليس التأليه تلك الحياة المقبلة فقط، بل هو يتمّ منذ الآن. نُصبح ما هو الله، و«نذهب الى السماء»، بكل قرار من قراراتنا المؤنِّسة.

ومن هنا العبارة التي احرص عليها والتي تكفيني لأكون مسيحيًا، او بالأحرى لأحاول ان اكون مسيحيًا (نعمل على قدر المستطاع!). فإني، حين اراني معرَّضًا للانزلاق على منحدر الاحلام الانانية، حين اراني معرَّضًا لعدم بذل اقصى جهدي للعمل على خلق عالم اكثر انسانية وعدالة واخوَّةً، أذكر

هذه الجملة فأقول في نفسي : يا مسكين ، لا بد لك ان تمارس أنت ما تقوله للآخرين .

وتلك العبارة هي التالية : ان المسيح ، الذي هو حيّ وحاضر ونشيط ومحوِّل ومؤلِّه في صميم قراراتنا المؤنِّسة ، يضفي عليها بُعد ملكوت ابدي إلهي بكل معنى الكلمة .

قيل إن بعضهم يصطدمون بكلمة « بُعد » هذه ، فإنها توحي اليهم بالكيلومترات او بأبعاد غَرَض ما . ساعدوني على ايجاد كلمة اخرى ، فاني ابحث منذ سنين طويلة ولا أجد . لعلَّ التشبيه التالي يساعدنا على فهم الامور . هوذا رجل اعزب . في حياته بُعد بنوي (له والدان) ، وفي حياته أيضًا بُعد أخوي (له إخوة وأخوات) ، وفي حياته بُعد قَومي (إنه ياباني) ، وفي حياته بُعد موسيقي (يحب الموسيقى حبًا شديدًا) ، وفي حياته بُعد مِهَني (إنه محامٍ او طبيب او نجّار) . لكنه اعزب ، فليس في حياته بُعد زوجي . فإن تزوَّج هذا الرجل ، اكتسبت حياته بُعدًا جديدًا امتيازيًا على الاطلاق ، سيغيِّر كل شيء في حياته . ويكون هذا البُعد الجديد أهم الأبعاد .

التشبيه يوضّح الامور : اذا كانت هناك كنيسة ، فلكي تكشف للناس ان حياتهم ليست حياة بشرية فقط . في حياة البشر بُعد بشري إلهي بحصر المعنى . فالمسيح حاضر في القرارات المؤنِّسة التي يتّخذها الذين لا يعرفونه ، التسعمائة مليون من الصينيين مثلاً . ان تيسَّر لي الذهاب الى الصين ، قلت إني ذاهب اليها ، لا لأخلِّص الصينيين (طالما سبقني المسيح) ، بل لأكشف لهم ذاك الذي يخلِّصهم ، اي يؤلِّههم . وان قلتم لي : لا أهمية لهذا الأمر ، اجبتكم : ما ادنأكم ! فأنتم لا تحبّون المسيح حبًا حقيقيًا . ان كنت أُحبّ المسيح ، اردت أن اعرّفه من لا يعرفونه ، حتى وإن نالوا الخلاص من دون ان يعرفوه ، شرطَ ان يكون سلوكهم ، كما يقال عادة ، موافقًا لضمائرهم ، اي ان يكون نشاطهم مؤنِّسًا في الحقيقة .

كلّما اتخذتُ قرارًا في سبيل الحق والعدل والحرية ، اي في سبيل ما يسمّى القيم ، أضفى المسيح القائم من الموت على قراري بُعدًا إلهيًا بحصر المعنى . وهو لا يستطيع ان يؤلّه إلاّ قراراتي المؤنِّسة . فالخطيئة هي ما لا يستطيع المسيح ان يؤلِّهه ، لأنها غير مؤنِّسة . الخطيئة هي دائمًا التخلّي عن التأنيس ، انها ما هو يمنع التأنيس . ولا يستطيع الانسان ان يفهم الخطيئة فهمًا حقيقيًا ، ما لم يفهم أولاً ما هي دعوته . فإن الخطيئة هي تقصير الانسان في دعوته . وهي رفض تأليهنا ، وهذا ما يُترجَم بالانانية على جميع انواعها ، اي بعكس ما هو الله .

هذا هو فصح التاريخ ، وهناك عدد من الفصوح في التاريخ بعدد القرارات البشرية المؤنِّسة . يومًا بعد يوم ، قرارًا بعد قرار ، نبني ابدية بشرية الهية ، لكن هذه الابدية ليست بشرية الهية إلاّ لأن المسيح يبنيها معنا . نؤمن نحن المسيحيين بأن هذا هو معنى وجودنا ، وبأن هذا المعنى نعيشه في القيام نفسه بمهمّتنا البشرية . لو لم نكن سوى بشر ، لما كنا نبني إلاّ ما هو بشري ، وما هو بشري يعود الى ما قاله الكاتب فاليري : « كل شيء يذهب الى ما تحت الارض ويدخل في اللعبة » . لكن الذي صار انسانًا لكي يصبح الانسان الله هو في صميم حريتنا وهو يحوّل نشاطنا البشري المؤنِّس » .

الانجيل هو البشرى : ذلك بأن الله ليس إلاّ محبة وبأن عظمة الانسان لا حدّ لها ، لأن دعوته هي ، بقدر لا نهاية له ، فوق كل ما يتخيّله او يتصوّره ، فإنه يقدر ان يحب كما يحب الله .

القسم الأول

المسيح

قلب تعليم يسوع : الخطبة على الجبل

إن فهمنا ما قاله يسوع في هذا النص العظيم، بلغنا في الحقيقة قلب الدين المسيحي، فهو من اهم نصوص الانجيل. يجب الكفّ عن تسميته «عظة»، فإن اختيار هذه الكلمة اختيار غير موفّق على الاطلاق. من هذه الخطبة على الجبل، التي نجدها في انجيل القديس متى (الفصول ٥ و٦ و٧) وفي انجيل القديس لوقا (١٢/٦ – ٤٩)، تنبعث وحدة لا تقبل الجدل: وحدة الاسلوب ووحدة المنطق. فيسير تفكير المسيح وفقًا لمنطق داخلي هو منطق الدين المسيحي: منطق نمط الحياة ونوعية الوجود التي اتى يسوع لِيُنشئها. وبكلمة واحدة، منطق الحب.

الانتماء الى الدين المسيحي هو المشاركة في اختبار الابن

تسبق الخطبة في انجيل لوقا ملاحظتان على شيء من الأهمية: قضى يسوع الليلة كلَّها في الصلاة على الجبل (١٢/٦) واختار، في الصباح، اثني عشر تلميذًا سمّاهم رسلاً (١٣/٦ – ١٤):

– **صلاة يسوع**: نحن أمام سرّ عظيم، سر الثالوث الاقدس. نتصوَّر يسوع يخاطب الآب والروح وهما غيره وليس هما آخَرين (فان الله واحد). هو تجسَّد، فخضع لسنَّة الخليقة، وهي قبول قبل ان تكون عطاء ومن اجل

العطاء. ورد على لسانه في انجيل يوحنا: «لا افعل شيئًا من عندي» (يو ٥/٣٠). وستكون الخطبة دعوة الى الوجود البنوي: وهو سيتكلّم عن خِبرة، فإننا لا نتصوَّر يسوع يقول اشياء لم يختبرها ولا يعيشها، بل سيدعو الى المشاركة في اختباره، وهو اختبار البنوَّة، اختبار الابن الذي هو مجرَّد ابن. وهذا امر يجب ان نعدَّه هامًّا جدًا، ان اردنا ان نخرج من المفاهيم النظرية ونفهم مرَّة واحدة أن كل شيء هو مسألة اختبار.

— **اختبار الرسل**: لمَّا كان تعليم يسوع دعوة الى المشاركة في اختباره للبنوَّة، للمحبة التي يعيشها أولاً كقبول (الابن يأخذ من الآب)، وجب أن يكون الناس الذين سيبشِّرون بأن الله أب أوَّل من شاركوا في اختبار معلّمهم. وسيتبع الاثنا عشر يسوعَ بعد اليوم اينما ذهب. نرى مرقس يوضِّح فيقول: «فأقام منهم اثني عشر يصحبونه فيُرسلهم يبشّرون» (٣/١٤). ليس تعليم يسوع فلسفة، بل هو اختبار حياتي. فلا يستطيع رسل يسوع ان يكونوا دعاة فلسفة، دعاة نظام فكري. ولن يستطيعوا ان يردّدوا كلامه، ما لم يستطيعوا ان يشهدوا لاختبار، لاختبار علاقة معيَّنة مع الله. ولمَّا كانوا يعيشون مع يسوع، كانت شهادتهم ناقصة الى حد بعيد: «كانوا بطيئي الايمان وسريعي التشويه وثقيلي الاحتمال». أمَّا بعد العنصرة، فإن الروح القدس، الذي هو روح يسوع، اي ذلك الذي يُلهم ويُنعش نشاط يسوع من الباطن، سيهب لهم ان يؤدُّوا في انفسهم طريقة يسوع في العيش ونمط حياته ونوعية وجوده والحياة التي يعيشها كاملةً وفقًا لمنطق المحبة. وإلاَّ، كان الدين المسيحي نظامًا، اي شيئًا آخر تمامًا، في حين انه يصبح على جانب كبير من الاهمية، ان كان اختبارًا.

الانجيل لجميع الناس

في نظر لوقا ومتى على السواء، تُوجَّه الخطبة الى التلاميذ. ولكن كلاهما يشيران الى وجود جمع غفير جاء من بعيد، لا من اورشليم فقط، بل من ناحية

صور وصيدا. ذلك بأن الرسالة التي سيبلّغها يسوع ليست نظرية (إنها اختبار يعيشه الانسان)، وليست أيضًا سرّيّة (إنها لجميع الناس، لا مقصورة على بعضهم). سيقول يسوع: «والذي تسمعونه يُهمس في آذانكم، نادوا به على السطوح» (متى ١٠/٢٧). وسيقول المجمع الڤاتيكاني الثاني مردّدًا الصدى: «الكنيسة هي من اجل العالم». فاذا كان التلاميذ يحيطون بيسوع بصفتهم تلاميذ، فمن اجل الجمع الغفير يفعلون ذلك. وما سيقوله يسوع للتلاميذ يهمّ جميع الناس. واذا كان هناك تلاميذ، فليشهدوا على اعين الجمع بأن الاختبار الحياتي المقترح على جميع الناس هو في متناولهم جميعًا، بما ان بعضهم قاموا به بقبولهم ان يتبعوا يسوع.

فاللوحة المعروضة لنا واضحة جدًا، وهذا ما يطلبه القديس اغناطيوس دي لويولا في الرياضات الروحية. لننظر قبل ان نصغي: فهناك يسوع، والتلاميذ المجمّعون حوله، والجمع المزدحم على منتصف منحدر الجبل (التوضيح من لوقا). ترون:

يسوع	التلاميذ	الجمع
القدّوس	الذين تمَّ تقديسهم	القابلون للتقديس
الله المتأنس	المؤلّهون	القابلون للتأليه
الانسان الحر	الذين تمَّ تحريرهم	جميع «المدعوين الى الحرية» (غل ٥/١٣)
الابن الكامل كابن	الذين يقومون باختبار البنوّة	جمع المدعوين الى القيام بهذا الاختبار

ماذا يرى الجمع؟ يرى يسوع وتلاميذه الى جانبه. التلاميذ هم أناس كانوا، الى عهد قريب، اعضاءً من الجمع، يعيشون كسائر الناس ويتّبعون نمط حياة سائر الناس. أمّا الآن فأصبحوا ينتمون كليًا الى يسوع، ويعيشون معه ومثله، ويتبعونه «اينما ذهب». فيرى الجمع أن هؤلاء الناس جرى لهم ما لم يجر للآخرين. هذا امر واضح ومنظور.

ماذا يرى التلاميذ؟ يرون الجمع الذي خرجوا منه والذي سيُرسَلون إليه.

ماذا يرى يسوع؟ يرى الى جانبه نواة كنيسته، والى البعيد الكنيسة الكبرى التي يريد ان تكون حدودها حدود العالم. يرى جميع الذين يدعوهم، عن يد التلاميذ، الى المشاركة في اختباره كابن الله. إنه هو رسول الآب، فسيكون التلاميذ رسل يسوع. وهو يعلم أن العالم سيرفضهم، كما سيرفضه. وسيعيشون، على مثاله، سر الصليب الذي هو في قلب الفعل الخالق (حين خلق الله، تعرَّض لصليب الابن).

تجنُّب تفسير التطويبات بالمقلوب

حينئذ، «فتح يسوع فاه». ان هذه العبارة الساميَّة التقليدية، التي استعملها متى، تشير الى اهمية ما يلي، فكأنها دعوة الى السكوت، لئلاَّ تفوتهم كلمة. وأول أقوال يسوع، كما نعلم، هي التطويبات. جرت العادة المؤسفة ان تُعزل التطويبات عمَّا يليها، كما لو كانت التطويبات وحدة مستقلة وذات قيمة في حدّ ذاتها. وقد يخطر ببال بعض المسيحيين أن التطويبات والخطبة على الجبل تترادفان، كما لو كانت الخطبة التطويبات. في الواقع، تستغرق التطويبات نحو عشرة اسطر، في حين ان الخطبة تمتدّ الى ثلاثة فصول طويلة من انجيل متى.

ان هذه العادة في الفصل بين التطويبات وما يليها عادة مؤسفة، لأنها تؤدي حتمًا الى الوقوع في خطأ تفسيري جذري لفكر يسوع، كما لو قامت رسالة الانجيل على القول بأن ما كان اسود أصبح أبيض فجأةً، وكما لو وجب علينا بعد اليوم ان نسمّي سعادةً ما كان تعاسة (البؤس والدموع والجوع). وفي اقصى مدى، نكون قد قدَّسنا الألم والعذاب باسم المسيح، ورغَّبنا بالتالي عن بذل الجهود البشرية للانتصار عليهما: لا تجعلوا الناس اغنياء، بما ان يسوع قد قال: الفقراء هم السعداء! فنصل الى الكفّ عن النشاط والى الاستسلام امام

مصائب الناس ، لأن يسوع قال ، على ما يزعمون ، ان التعاسة في نظره هي السعادة .

لقد وقع هذا الخطأ التفسيري ، ونحن نكفِّر اليوم عن الاخطاء التي ارتُكبت . ورد في كتاب بيغي ، « جان كوست » ، صفحات عنيفة الى حد لا يصدَّق . غيرُ وارد ان يُقدَّس البؤس ، غيرُ وارد ان يقال للفقراء الذين ليس لهم ما يسدُّون به ميزانيتهم في آخرِ كل شهر : لا ينشغلْ بالكم ، فإن يسوع يصرِّح بأنكم سعداء لأنكم تعساء ! لو كانت التطويبات تعرض علينا تعزية مبتذلة ، لكان الدين المسيحي دينًا كئيبًا ودامعًا . فالحق اننا نحلم بسعادة رخيصة وقائمة على الافراح الرخيصة . هذا هو الحلم الذي جاء يسوع يستنكره ، وما يعرضه علينا (تلك هي الكلمة الاساسية) هو ان يُحوَّل توقنا نفسه الى السعادة . طوبى لمن كانت نفوسهم رفيعة فأصبحت رغبتهم الاساسية ان يحيوا كأبناء الآب الذي في السموات !

فالفقر والدموع والجوع والاضطهاد ليست شروطًا ليكون الانسان سعيدًا بتلك السعادة التي أتى بها يسوع . وليست التعاسة نوعًا من الشروط المسبقة ، كما لو كان البكاء والجوع ضروريَين لتذوُّق السعادة الحقيقية . كتب الأب جاك غِيِّيه هذه الجمل ، وهي تبدو لي حاسمة : « يبقى البؤس والأسر والجوع والدموع ، في نظر يسوع ، وجوه تعاسة الانسان المختلفة ، واذا أعلن سعداء مَن عانوا منها ، فلأنه جاء ينقذهم منها ... لا تقوم طرافة الانجيل على القول بأن ما كان أسود أصبح أبيض فجأةً ، بل على ايجاد مخرج جديد وسعيد للذين هم في التعاسة » .

ان التطويبات تُدخل الانسان في سير تحويلي للوجود . وهي تفسير مُسبق لسرّ الفصح ، اي لانتقال من الطبيعة الى التاريخ او الى الحرية ، لسرّ التخلُّص من « أنا » جاهز ، بقصد خلق النفس بالنفس . المطلوب من الانسان ان ينتقل من الحرية ، انطلاقًا من ذلك « الأنا » الذي جهَّزته الوراثة والبيئة والتربية . ان توقنا العفوي والغريزي الى السعادة يوافق طبيعتنا ، ولا بدّ ان يحوَّل ليصل الى الحرية الحقيقية .

فالتطويبات هي اذًا دعوة. لا تعبِّر عن حقيقة عامة (التعساء سعداء)، بل تُدخلنا في موقف وتدعونا الى المشاركة في الاختبار الذي هو اختبار يسوع. والحال ان تابع الخطبة على الجبل هو الذي يقول لنا ما هو ذلك الطراز الحياتي الجديد الذي يوافق عظمة الانسان الحقيقية، والذي تنتج عنه السعادة، لا سعادة رخيصة وقائمة على الافراح الرخيصة، بل سعادة جديرة بالانسان، سعادة بحجم عظمة ابناء الله، سعادة المحبة، لا سعادة الرغبات المحقَّقة. فأية سعادة تريدون؟ سعادة من ايَّ نوع وعلى اي صعيد؟ هذا هو المهمّ. فإن هناك أكثر من صعيد سعادة، كما ان هناك، على صعيد الثقافة، موسيقى جديرة بأعمق ما في الانسان، وموسيقى تلبّي اكثر ما في الانسان سطحيةً.

طوبى لفقراء الروح، فإن لهم ملكوت السموات

ان فقر الروح هو في صميم المحبة. فالمحبة بدون الفقر ليست بالمحبة (وهذا غير مفهوم، ان لم تختبروه). ولذلك فالله نفسه فقير: إنه غريب عن التملُّك (الله لا شيء له)، لأن كيفية وجوده هي المحبة.

فقر الروح هو عدم تملُّك أنفسنا، وبالتالي تَرْك الآخر يشكّ فينا من جهة، والثقة به من جهة اخرى في امر سعادته هو. ان الجملتَين اللّتين تحدِّدان هوية الفقير هما هاتان: «أَثقُ بك» – وهو الايمان – و«أُعهد اليك بسعادتي» – وهو الرجاء. فإن استند الفقير الى الايمان والرجاء، عاش في المحبة، وتمكَّن من القيام بخدمة الآخَر والآخرين، فإنه أصبح محرَّرًا من العقبات.

من أوَّل الكتاب المقدس الى آخره، يبدو «مسكين يَهوَه» عبدالرب، فهو اذًا في الملكوت: طوبى لفقراء الروح فإن لهم ملكوت السموات. هل دخلتم في ذاك الاختبار، ذاك الطراز، ذاك النمط الحياتي؟ ان دخلتم، كان لكم الملكوت. أَمَّا الذين لم يدخلوا فيه، فيسوع يدعوكم: ان قلتم: نعم، أصبح الملكوت لكم، اي صلة الأُلفة بالله. ان تطويبة الفقر تسود الانجيل كله. فلو لم يكن الله نفسه فقيرًا، اي غريبًا عن التملّك على الاطلاق، لكانت تطويبة الفقر

غير معقولة : ليس لله ايّ شيء ، فهو كل شيء ، فالذي هو كل شيء لا شيء له . وهذا الشيء كلّه شيء يُعطى وليس هو إلاّ محبة .

طوبى للودعاء ، فإنهم يرثون الأرض

الوداعة قريبة جدًا من الفقر ، حتى ان المفسّرين يتساءلون هل تطويبة الودعاء هي غير تكرارٍ لتطويبة الفقراء . ذلك بأن كلمة « عناو » العبرية تدل في آن واحد على الوداعة والفقر . إنها التخلّي عن كل حق شخصي ، ان كان وحده معنيًا وان كانت القضية مجرد قضية اعتزاز بالنفس (لكن النظام القضائي امر ضروري في المجتمع ، كما ان السلطة التي تحميه امر ضروري) .

الوداعة مرتبطة بالهدوء والعزم . إنها المحبة ، لا في الطبع فقط ، بل في العقل . وهي تدفع الى الاصغاء الى الآخرين والى تفهّمهم ، حتى لو اختلفت آراؤهم عن آرائنا او تعارضت معها . الوداعة تتجنَّب المواقف المتصلِّبة أمام مفاجآت التاريخ ، وتمكّن من ابتكار الجواب ، يومًا بعد يوم ، تلبيةً لنداءات الحدث ، وهو كثيرًا ما لا يمكن توقُّعه .

طوبى للمحزونين ، فإنهم يعزَّون

افضل ما قيل في تطويبة المحزونين ، في العصر الحديث على الأقل ، هو ولا شك النص الذي كتبه پيغي في ١٩٠٩ والذي عنوانه « نحن مغلوبون » : « ميلٌ وتحذير ووخز خفيّ يُخبرنا بأن النجاح لا يخلو أبدًا من الشائبة ، ولا الانتصار من الخشونة ، ولا حسن الحظّ من الشائبة المتبقيّة ، الميتافيزيقية على الاقل ، وبأن سَعَف المجد السرّيّة العليا في التاريخ مُنحت دائمًا لسوء الحظ » .

كلام پيغي هنا كلامُ نبّي من الانبياء ، فيحتاج نصّه الى توضيح من قبل احد الفلاسفة (النبيّ والفيلسوف يقولان شيئًا واحدًا ، شيئًا لا يختلف عمّا ورد في الانجيل : شيء عجيب !) ، وهو جان لاكروا : « النجاح صالح في حد ذاته ، فهو الذي يضفي معنًى على بذل الجهد (يُبذل الجهد للوصول الى

النجاح). بالنجاح، اي بالانتصار على العقبات، نزداد وعيًا وخلقًا لأنفسنا. لكن النجاح لا يكون صالحًا (بشكل غريب) إلاّ بقدر ما يكون أكبر كاشفٍ للفشل... فإذا انتهى بنا النجاح الى نسيان الفشل، كان شرّ الملاهي. ان الذين ينجحون في كل شيء، وليس لهم مثال اعلى غير الانتصار، هم تلك الكائنات السطحية التي لا تصل ابدًا الى الوجود الصحيح الذي يستشعره مع ذلك المنعتقون واللاهون وخائرو العزائم والفاشلون على انواعهم، والذي يشكّل عذابهم الأليم... لم تقم عظمة دون جوان على كونه رجلاً ناجحًا، بل على البقاء غير راضٍ عن جميع انواع نجاحه وعلى مواصلة السعي، في كل امرأة، وراء مثال اعلى لا يستطيع ابدًا ان يدركه».

نرى اذًا بأي معنى يقول يسوع، حين يصرّح بأن المحزونين يعزَّون، إنهم سعداء. قيل في موسيقى شوبير «ان الموت حاضر منذ الآن في الرقص». لكن الانسان لم يُخلق للموت، بل للحياة. ولذلك فإن عِلم الانسان بأنه ابن الله هو العيد البشري الحقيقي، وهو العيد الوحيد في آخر الأمر. أتى به يسوع الى الناس، فلا بدّ من قبوله، اي من القيام باختبار البنوّة الالهية: ان نحيا، لا ان نفكّر فقط، كأبناء لهم أب.

أَذكر ذلك الكاهن الذي كنت اصادفه فأقول له عفويًا: كيف حالك؟ فيجيبني على نسق واحد: لا يمكن ان اكون سيِّئ الحال، فإن الآب يهتمّ بي. ليس الأمر واضحًا، فلا بدّ من تصديق ما يقول. «القضية قضية اختبار! وفي آخر الأمر، لا يمكن ان يختلف هنا الاختبار عن اختبار يسوع، لأن يسوع وحده يختبر أُبوّة الله بحصر المعنى، وبناءً على كلامه نؤمن بأن الآب يهتمّ بنا. وإلاّ، فكيف نعرف ذلك؟ ليس من الواضح ان الله يهتمّ بالذين يموتون شيئًا فشيئًا من السرطان على سرير احد المستشفيات!

في «الحذاء الاطلس»، يضع كلوديل على لسان احد ابطاله: «بما اني لا أستطيع ان أهب لها السماء، يمكنني على الاقل ان انتشلها من الارض. انا

وحدي استطيع ان اوفِّر لها عدم كِفاية بحجم رغبتها». الويل اذًا لجميع الذين لم يُكشَف لهم عدم كفايتهم! وبعبارة اخرى، الويل للمكتفين!

طوبى للجياع والعطاش الى البِر، فانهم يُشبَعون

الجوع والعطش الى البرّ، هذه هي الطريقة الوحيدة لنكون أبرارًا. المطلوب هنا هو الأمانة. والأَمانة للنفس هي عدم كف الانسان عن السعي ليكون امينًا لنفسه. السعي او الطلب هو من كلمات الكتاب المقدس الاساسية. قال يسوع في مكان آخَر: «اطلبوا فتجدوا» و«اطلبوا أوّلاً ملكوت الله وبرَّه، تُزادوا هذا كلَّه». لكن من اكتفى بالعالم وبنفسه أنكر أنه لانهائي. يمكننا ان نقول، بمعنى معيَّن، إن الكنيسة موجودة للمنازعة في وجود جميع المجتمعات، أيًّا كانت، وجميع السياسات، حتى أفضلها. بحكمة وبصيرة، طبعًا، لكن الانسان لا يستطيع ابدًا ان يكون مكتفيًا بوجه تام في هذه الدنيا. يمكن القول بأن الانسان لانهائي اجوف، لا يرضيه إلاَّ اللانهائي الحيّ الذي يبذل نفسه.

طوبى للرحماء، فانهم يُرحمون

الرحيم، بحسب اشتقاق هذه الكلمة، هو بائس القلب، فإنه يتألم من ألم الآخرين. من كان لا يعرف ان «يتألم مع» لا يستطيع ان يتقبّل عطية الله، فإن الله هو نفسه اول من يتألم مع الانسان. ان عذاب المسيح وآلامه وموته على الصليب هي العلامة الحسيّة لعمق المحبة في الله، وهذا العمق يجوز لنا، ولا شك، ان نسمّيه أَلمًا (وهو شيء غامض جدًا)، وإلاَّ لا تكون المحبة محبة، ولا يكشفه لنا إلاَّ ألم المسيح.

تتضمّن الرحمة ان يُفضِّل الصغار والضعفاء والبؤساء والمرضى والمنعزلون (من أشد الآلام البشرية) والمذلّلون والمعنَّفون والمظلومون والمغتمُّون والقلقون. هذا هو النمط الحياتي الذي عاشه يسوع: العمل على تحرير المستعبَدين بوجه من الوجوه، وشهادة الانسان على انه نفسه لا يكون انسانًا حرًا، ما لم يعمل على

تحرير اخوته ، اذ إنه يستحيل الانتقال الى الحرية من دون الانتقال الى المحبة . لا حرية خارج المحبة . أن يكون الانسان حرًا وأن يحب هما شيء واحد .

طوبى لأطهار القلوب ، فإنهم يشاهدون الله

سأل بونهوفر : « من هو طاهر القلب ؟ من لا يدنّس قلبه بالشر الذي يرتكبه ولا بالخير الذي يعمله » . عدم تدنيس القلب بالخير الذي يعمله الانسان ، هذا هو شيء إلهي لا يستطيع احد ان يعطيه إلاَّ الله . عدم تملّك الانسان للخير الذي يعمله هذه هي الطهارة ، اي البساطة والخلوّ من الثنايا . الطهارة هي موقف الذي لا يعود الى نفسه ولا يطبِّل بإحساناته . أَذكر إنقاذ بنت صغيرة كاد ان يحطّمها القطار . أظهر المنقذ كثيرًا من البطولة ، مخاطرًا بنفسه . فلمَّا كانوا يذكرون امامه هذا العمل ، كان يقول : « شيء طبيعي وليس هناك أي مشكل ، فاسكتوا ، اذ ليس لي اي فضل » .

والبساطة هي ، بالمعنى الدقيق ، عكس « الازدواجية » بمعنى الرياء : أن لا ينظر الانسان الى نفسه يعمل الخير ، أن لا ينظر الى نفسه ينمو في المحبة ، كما ان امرأة غنجة امام المرآة ترى نفسها جميلة بكل ما يضيفه الاصطناع الى جاذبيتها الطبيعية . الوجود « المزدوج » هو الوجود المقنَّع ، فان القناع يضاعف الوجه (يقال في بعض الناس انهم ذوو عدة وجوه) . أرانا مرسيل بروست الى اية درجة يبدو القناع والمَكْياج من خواصّ الحياة العالمية . ولقد حلَّل مختلف وجوه عدم الوجود او الوجود المقنَّع . ما من شيء اكثر الاشكال ممَّا لا وجود له ولا معنى . ان الله يحب وجوهنا الواحدة وغير المقنَّعة ، فهي وجوه فقراء . فوجهي الحقيقي هو ذاك الوجه الذي سيرى الله ، والذي سيكون وجهًا لوجه معه للأبد .

طوبى للساعين الى السلام ، فإنهم ابناء الله يُدعون

يجب على الانسان ان يكون في سلام في نفسه ليعمل على احلال السلام بين البشر . ويقوم السلام في النفس على توحيد الباطن ، وهو امر لا يناقض عدم

الاكتفاء الفطري بكل ما لم يكن إلاّ بشريًا. فالاكتفاء بالنفس هو مبدأ خاطئ في توحيد الباطن.

السلام في النفس هو القيام ما وراء جميع التعارضات الثانوية التي تظهر على السطح، وهو التوفيق الى حد ما بين الامور التي تبدو للعقول السطحية غير قابلة للتوفيق، والتي تخلِّف التقدّميين والتقليديين، والقوميين والدُوَليِّين، واليساريين المتطرّفين واليمينيين المتطرّفين، والمتصوّفين والمجادلين، وبكلمة واحدة كل ما هو «متشيِّع» لأنه من جانب واحد. ان اردنا أن «نُدعى ابناء الله»، اي ان اردنا ان يعدّنا الآب نفسه ابناء، فلا بدّ لنا ان نعمل على ان يكون الناس إخوة. فإن لم يكن الابن ابنًا حقيقيًا، لم يكن الناس اخوةً له. ولا يمكن ذلك، ما لم تكونوا انتم في سلام وموحَّدين باطنيًّا فتعملوا على احلال السلام الشامل.

طوبى لكم ان اضطُهدتم من اجل المسيح

وختم يسوع قائلاً: وان دخلتم في هذا الاختبار، فلا بدّ ان تعانوا الاضطهاد. وان كانت كلمة «اضطهاد» تخيفكم، يمكنكم ان تستعملوا كلمة «مطاردة». لا يضيف يسوع هنا: «كما اني انا أيضًا سأعاني الاضطهاد»، لكنه قد يفكّر في ذلك، وسيقوله في وقت لاحق. فإن كانت مسيحيّتنا لا تصدم، يُخشى ألاَّ تكون اصيلة. كان بودلير يقول، على الصعيد الجمالي، ان الجميل غريب دائمًا. علينا ان نشعر بأن الحق هو أيضًا غريب دائمًا. والحال ان الناس لا يحبّون ما هو غريب، فالزيّ هو رفض الغريب.

كتب عمانوئيل ليفيناس في هذا الموضوع جُملاً حاسمة: «ان فكرة الحقيقة المضطَهَدة هي الشكل الوحيد الذي يمكن التعالي ان يتّخذه (هذا لا يعني ان يسوعًا لم يُضطهَد لا يكون شاهد الله المتعالي)... فالظهور بصورة المتواضع، بصورة المتحالف مع المغلوب والفقير والمطارَد، هو بالضبط عدم عودة المياه الى مجاريها... التواضع مُزعِج على الاطلاق، فليس هو من العالم... والاضطهاد والإذلال اللذان يعرِّض التواضع لهما هما من الأشكال التي يتخذها الحق». فإن

لم تكونوا مضطَهدين بوجه من الوجوه، فاحذروا كثيرًا، فقد يُخشى ان تكونوا في انخداع تام او ان تعيشوا على مستوى جِلدكم. هناك ألوف من الناس يحاولون العزف على صَفَّي ملامس في آن واحد: ملامس حكمة المسيح وملامس حكمة العالم، وهذا شيء غير ممكن. وان اخترتم ملامس حكمة المسيح، تُطارَدون، لأنكم تمنعون الناس من المراوحة في مكانهم.

هناك اربع تطويبات في انجيل لوقا وثماني تطويبات في انجيل متى، ولكن، في الحقيقة، ليس هناك إلاَّ تطويبة واحدة، وهي: طوبى للذين يقومون باختبار الوجود الحقيقي! فالقيام بهذا الاختبار هو السعادة والصليب في آن واحد وبدون انقسام. فإن الدين المسيحي هو الربط الوثيق بين السعادة والصليب. فلا بدّ، للوصول الى السعادة العليا، من التخلّي عن السعادة الرخيصة، عن السعادة الخفيفة. وما نسمّيه سعادة السماء هو سعادة المحبة، اي سعادة الخروج من النفس وعدم التفكير في النفس وعدم الالتواء على النفس. كيف تريدون ألاَّ يكون التدرُّب على تلك السعادة تضحية، بما أننا لا نُفكِّر عفويًا إلاَّ بأنفسنا، بما اننا نعدّ الآخَر عفويًا، حتى في الحب البشري، وسيلة مفضَّلة للحب الذي نكنّه لأنفسنا؟ فالصليب هو الترفُّع فوق السعادات الرخيصة والوصول الى تلك السعادة الكبرى الجديرة وحدها، في آخر الأمر، بأبناء الله، اي سعادة الحب. الوصول الى تلك السعادة يمرّ بالتضحية، وهذا ما نختبره جميعًا بقدر كثير او قليل في حياتنا اليومية.

الشريعة الجديدة: العطاء على مثال عطاء الله

بعد التطويبات، تأتي وصايا الشريعة الجديدة. وهي تلخَّص بهذه العبارة: بما أننا نلنا، فعلينا ان نعطي. فالقبول هو من اجل العطاء. ولكن، ماذا نقبل؟ ماذا يعطي الله؟ لا يعطي ما هو جاهز، بل يعطي مهمَّات يجب إنجازها. كتب الأب جاك غِيِّيه: «العطاء هو احدى لازمات الخطبة على الجبل: «لا ترفض... لا تطالب... إقرض ولا تتوقَّع شيئًا.. أَعطِ تُعْطَ».

ولكن حذارِ ، فقد يكون العطاء وسيلة للاكتساب ولرفع شأن النفس (يرفع الانسان شأنَ نفسه بالكَرَم) . ان الفرح الصافي في العطاء ، فرَح الاتّحاد بالذي ينال ، لا يعرفه إلاّ الفقير ، اي الذي قام باختبار التطويبات واكتشف كيف يعطي الله » .

العطاء على مثال عطاء الله (الله لا يطبِّل حين يعطي) ، هذا هو ان يكون الانسان ملح الارض ونور العالم . الانجيل ذوق ونور ، لأنه حضور الله وقدرته المحوِّلة ، نشعر بهما من خلال الحياة البشرية . واذا فسَد الملح ، اي اذا لم يكن الكاهن كاهنًا حقيقيًا ، واذا لم يكن الراهب راهبًا حقيقيًا ، واذا لم يكن المسيحي انجيليًا حقيقيًا ، لم يعد التلميذ ما هو الأفضل يمسي ما هو الأسوأ : ملحًا فاسدًا تدوسه الأرجل لا فائدة فيه ، لأنه لا شيء في الحقيقة ، انه تردُّد دائم في ان يكون شيئًا ، او بالأحرى أحدًا .

الشريعة الجديدة : دعوة الى الحرية

ما تمتاز به الشريعة الجديدة هو ، في الوقت نفسه ، جذريةُ متطلّباتها والدعوة الى الحرية بالنسبة الى الحرف . لكن الحرية بالنسبة الى حرف الشريعة لا تعني الانعتاق او التحرّر : فإن يسوع يوضح أنه لم يأتِ لـ « يُبطل الشريعة ، بل « ليُكملها » ، لا بإضافة احكام جديدة او باقتراح اضافات الى الشريعة ، بل بكشف مغزى الشريعة الحقيقي والدلالة على انها تحتوي على مبدأ تخطّي نفسها .

فإن وصية المحبة ، وهي اولى الوصايا العشر وقلب الشريعة نفسه ، هي غير محدودة في حد ذاتها . لا حدود للمحبة . وليست متطلّبات المحبة جذرية إلاّ لأنها هي مطلق ، كما ان الحرية وحدها تستطيع ان تقول لنا كيف يجب ان تمارَس المحبة عمليًا وبحسب الظروف . تلك هي الخطبة على الجبل . النقطة الأولى : المطلب جذري ، والنقطة الثانية : انتم احرار في كيفية ممارسة جذرية المطلب هذه . ولذلك ما اكثر الذين يخافون هذه الحرية ويطالبون بتعليمات يأبى يسوع ان يعطيها ، بل يكتفي بالدلالة على عمق حرية الانسان .

ولذلك أيضًا يشدّد على التعارض بين: «قيل لكم ...» و«أمّا انا فأقول لكم ...». ماذا قيل لكم، وماذا أنا اقول لكم؟

— قيل لكم: «لا تقتل». أمّا انا فأقول لكم: «من نظر الى اخيه غاضبًا كان قاتلاً». لأن المحبة هي الرغبة في ان يكون الآخَر وان يكون اكثر ما يمكن، وان يعيش أشد ما يمكن. فان نظرة الغضب وكلمة الغضب موجّهتان ضدّ حياة أخي وحتى ضدّ وجوده. والنظر الى احد «شَزرًا» (كما يقال) هو في الحقيقة الرغبة في أن لا يكون، وهو الميل، قلّما يكون، الى تلاشيه، هو ملاشاته بالفكر، وبالتالي جَعلُ انفسنا فوقه وعدُّ حياتنا افضل من حياته.

— قيل لكم: «لا تزنِ». أمّا انا فأقول لكم: «من نظر الى امرأة بشهوة، زنى بها في قلبه». فكما ان هناك نظرات تقتل الآخر وتلاشيه، هناك نظرات تتملّك الآخر وتحوّله الى شيء يعدّه الرجل خاصته. فالنظرة الى امرأة بشهوة هي عدُّها غَرضًا يملكه الرجل.

— قيل لكم: «أحِبْ قريبك وأبغض عدوّك». أمّا أنا فأقول لكم: «احبُّوا اعداءكم». فإن المحبة لا تكون محبة حقيقية، ان اشترطت بمطلب تبادل: لا احبُّك لأنك تحبّني، لا أحبّك ان لم تحبّني، لا أحبُّك لكي تحبّني، بل احبُّك، حتى لو لم تحبّني، احبّك مع ذلك. محبّتي اقوى من لامبالاتي، وحتى اقوى من عدائك. لن تتقلّب محبتي بحسب تقلّبات جوابك. فالمطلوب هو متطلّبات لا حدود لها، وصعود لا ذروة له، بل الذروة الوحيدة، وهي ليست بذروة، هي كمال الآب: «كونوا كاملين، كما ان اباكم السماوي كامل». وهناك سبيل واحد للوصول الى كمال الآب، وهو عدم الكفّ عن السعي إليه.

قد يقال: ألسنا في قلب المستحيل؟ وهل تبدو ممارسة كل ذلك أمرًا ممكنًا؟ وقد يجيب بعضهم: نعم، كل ذلك مستحيل. وقد يبدو أنهم على حق، فإن وهب الانسان رداءه لمن طلب منه قميصه فقط، ومن عرض خدَّه الايسر لمن لطمه على خدّه الايمن، ومن قلع عينه وقطع يده وحرم نفسه من

الضروري في مصلحة من يطلب منه الزائد عن الحاجة ، لم يعد يملك نفسه ، بل ترك الناس يلتهمونه .

فما العمل اذاً؟ افنلطِّف تلك الفرائض ، ونبادر الى التخفيف من بعضها ، وندّعي مع ذلك أننا تلاميذ يسوع؟ لا طبعًا . قبل كل شيء ، لا كذب ولا رياء : لا يمكننا ، في وقت واحد ، ان نصف يسوع بالحالِم ونصرّح بأننا مسيحيون ، فإنه لا يحسن بالانسان ان يكون تلميذَ حالِم ، علمًا بأن جميع ظروف حياة يسوع وتعليمه تُظهر بوضوح أنه كان نقيض الحالم .

فعلينا اذًا ألاَّ نلطِّف شيئًا فإن يسوع ادرى بما يقول . ولكن ، لا نَنْسَ أنه يخاطب حريتنا . ويجوز لنا أن نقول إن الطَموح ليس هو يسوع ، بل نحن من دون ان ندري . نحن نُخفي على انفسنا متطلّباتنا الشخصية ، لاننا نخاف منها ونخشى ان نكون رجالاً ونساءً . أمَّا يسوع فإن دوره يقتصر على كشف انفسنا لأنفسنا . مُظهرًا لنا عظمة حريتنا ومنتزعًا الاقنعة التي صنعناها لأنفسنا بأيدينا ، عن خوف وانانية . وهو يقول لنا : انتَ اكثر قيمة ممَّا تظن ، وعظمتك فوق ما تُدركه ، فلتكن حياتك مطابقة لتلك العظمة . وبقدر ما تقوم باختبار هذه الحياة ، تشعر بأنك عظيم وأن هذه العظمة مطلب لا بد منه ، وتكتشف الى اين تبلغ بك حريتك فترفض المَكْياجات .

لا يمكن ان يكون الدين المسيحي قائمة من التعليمات ، بل نقول ، استنادًا الى بعض الامثلة النموذجية ، إنه ازاحة الستار عن آفاق عظمة الانسان التي لا حد لها . ولا يبقى لنا إلاَّ ان نصغي الى ضمائرنا ، يوم نفهم ما هي قيمتنا وما هي رغبتنا الحقيقية ، ويوم نكتشف ان تلك المتطلّبات ليست متطلّبات غيرنا ، بل متطلّباتنا نحن . انها لعظمة لا حد لها ، نعيشها في حياة وضيعة يومية ، وإنها لآفاق لا حد لها في قلب الآفاق المألوفة ، كالعائلة والجوار والحيّ والمهنة... يكشف لنا يسوع كل ما يقدر عليه الانسان في أبسط انماط الحياة ، شرط ان يكون في الحقيقة ابن إله هو أب .

ولذلك لَنحذرْ ان نقرّب لله نوعًا من التخلّي قد نظنّه طاعة. فما يجب علينا ان نقرّبه لله هو بناء حريتنا يومًا بعد يوم، لكي تكون في الحقيقة، لا حرية العبيد، بل حرية الأبناء.

ماذا نعني بقولنا : «مات المسيح لأجلنا» ؟

جميع الروحانيات تتلاقى عند قدم صليب المسيح. طرق كثيرة شُقَّت على مرّ القرون لهداية الانسان الى الاتحاد بإلهه على اوثق وجه ممكن. فمنهم من يسير على الطريق التي رسمها القديس يوحنا الصليبي والقديسة تيريزيا الافيلية، ومنهم من يفضّلون السير في خطى القديس عبد الاحد، ومنهم في خطى القديس فرنسيس الاسيزي، ومنهم في خطى القديس اغناطيوس، ومنهم في خطى القديس فرنسيس الساليزي، ومنهم في خطى الأب شارل دي فوكو. لكن هناك ايضًا طرقًا لا تؤدي الى اي مكان، بل تضيع في رمال الأوهام. فهناك الاصالة وهنا الشذوذ. والمقياس الصائب والوحيد للأصالة الروحية هو الصليب. فكل ما يهدي الى الصليب هو مسيحي ولا شك، وكل ما يُزيل الصليب او يدور حوله هو مزيَّف ومُنتحل.

ولكن لا بدّ لنا ان نفهم معنى الصليب كما يجب. ان موت المسيح في حوالى الثلاثين من عمره هو حدث تاريخي ثابت. ماذا يعني هذا الحدث؟ ليس هو، في حد ذاته، سوى الفشل المبتذل الذي مُني به واعظ جوَّال ادَّعى انه نبيّ ومشيح اسرائيل. تألّم على عهد بنطيوس بيلاطس ومات وقُبر. ولأن ذلك جرى نتيجةً لدعوى احدثت بعض الضجيج في اقليم اليهودية الروماني، فإن التقليد اليهودي ردَّد صداه، وحتى المؤرِّخ اللاتيني تاقيطس في حوليَّاته. وذلك الحدث هو، في نظرنا نحن المسيحيين، محور التاريخ. وهذا يعني اننا

نعترف بذلك الحدث الخاصّ (كما هي جميع الأحداث) بصفته ذا معنى شامل. وايّ معنى؟ يكون الانسان سطحيًا، ان لم يطرح على نفسه هذا السؤال.

عرض أولي لسرّ الفداء

يطرح الناس هذا السؤال على انفسهم بعمق في ايامنا، لا سيّما وانهم يشعرون شعورًا واضحًا بأن أزمة الكنيسة تستدعي، ما وراءَ العديد من المشاكل التي تتضمّنها، إعادة تركيز دقيقة، أعني اعادة اكتشاف المركز. والحال ان المركز لا يمكن ان يكون إلاّ هنا. والأمر الذي نجده في المقالات اللاهوتية الكثيرة، التي تُنشر في ايّامنا في ألمانيا وفرنسا خاصة، هو أنها ترفض عرضًا معيَّنًا لسرّ الصليب أثَّر في اجدادنا وأثَّر فينا نحن أيضًا، وأصبح من الواضح أنه شوَّه الامور.

اليك ما كتبه الكردينال رَتزِنْغِر، رئيس اساقفة مونيخ في هذا الموضوع: «تأثَّر الشعور المسيحي من هذه الناحية الى حد بعيد بالعرض الأوَّلي جدًا للاهوت التكفير، الذي قام به أَنسِلْمُس الكَنْتُربري (١٠٣٣ – ١١٠٩)». أَسألكم ان تنتبهوا الى الكلمات التي استعملها رَتْزِنْغِر: إنه لاهوتي سيّد قلمه. وهو لا يعيد الى بساط البحث نظرية أَنسِلْمُس في حد ذاتها، بل يستعمل عبارة «عَرْض أوَّلي جدًا للاهوت أَنْسِلمُس»، ويضيف:

«في نظر العديد من المسيحيين، ولا سيّما الذين لم يطّلعوا على الايمان إلاّ من بعيد، يبدو الصليب وَجهًا من وجوه قضية الحق المهضوم والمُعاد. فيكون الصليب تلك الطريقة التي تمَّت بها مصالحة عدل الله المُهان اهانةً لا حدَّ لها، بتكفير لا حدَّ له... وهناك نصوص عبادة توحي، على ما يبدو، بأن الايمان المسيحي بالصليب يتصوّر إلهًا استوجب عدلُه الذي لا يرحم ذبيحةً بشرية،

ذبيحة ابنه نفسه. هذه الصورة خاطئة بقدر ما هي منتشرة. فالكتاب المقدس لا يفهم الصليب وكأنه وجه من وجوه قضية الحق المهضوم». حرصت على الاستناد الى حجّة في علم اللاهوت.

هل يستوجب عدل الله موت المسيح؟

الفكرة واضحة: يقال ان المسيح حلّ محلّ البشرية الخاطئة واخذ على عاتقه العقاب المُعدّ لتلك البشرية، فجعل من حياته ذبيحة تكفيرية. انتبهوا الى جميع هذه الكلمات التي يُخشى ان نستعملها من دون ان نكسرها. لا بدّ أن تُعاقَب البشرية الخاطئة: فنحن امام إله يعاقِب. وان كان الله يعاقب، فمن الاكيد أنه لا يعمل ذلك بكل طيبة خاطر، ولا يمكن ان يكون عمله إجراءً اعتباطيًا، لأن الاجراءات الاعتباطية هي ميزة من ميزات الطغاة، وليس الله بطاغية. فإن كان يعاقب، فلأن «عليه» ان يعاقب، فلأن عدله يستوجب ذلك. والحال ان المسيح حلّ محلّ البشرية لتحمّل العقاب، اخذ على عاتقه العقاب. واذا مات، فلا يكون موته من جرّاء خطاياه هو (إنه بريء)، بل من جرّاء خطايانا. إنه يكفّر مَكاننا.

وكثيرًا ما تُستعمل أيضًا كلمة «تعويض». فيقال: لا بدّ من التعويض عن الإهانة التي نزلت بالله. والإكرام الذي رفض الناس بخطاياهم تأديته الى الله، قدّمه المسيح البريء من الخطيئة تعويضًا. تلك هي أهم المفردات التي كانت شائعة في كتب التعليم المسيحي وكتب العبادة. أُراجعها: العدل والعقاب والاستبدال والتكفير والتعويض.

وكانوا يبرّرون استعمال جميع هذه الكلمات على الطريقة الآتية: لا بدّ ان يأتي العقاب على قدر الخطيئة. ذلك بأن الله لا يستطيع ان يسكّن غضبه إلاّ إن أُنزل العقاب الذي استوجبته المخالفة. ولكن، بما ان المُهان هو الله نفسه، فلا يستطيع الانسان ان يعوّض تعويضًا وافيًا، فإن الله لامتناهٍ والانسان محدود. فمن المستحيل اذًا ان يلبّى عدل الله. ولذلك، جاء المسيح – إنّه انسان ولكنه إله –

يحلّ محلّ الناس ليقدّم لله تكفيرًا لائقًا به ، اي له قيمة لامتناهية . فالمحبة التي يكنّها الله للبشر تظهر اذًا في الحلول محل البشر ، الذي ابتُكر لتلبية عدل الله .

فالجوهر هو التكفير ، ولا يمكن ان يتمّ التكفير إلاّ بتعويض يقدَّم لعدل الله . وهذا التعويض يتَّخذ شكل عقاب ترضى به الضحية نفسها ، ولذلك يُدل عليه بكلمة تكفير . انتم ترون ما أصوب قول الكردينال رَتزِنْغِر بأن مثل هذا العَرَض لمعنى موت المسيح هو « أوَّلي الى حد بعيد » . وهذا القول غير وافٍ ، ولذلك يضيف الكردينال : « نحوِّل وجوهنا مرتاعين عن عدل إلهي يجرّد غضبُه القاتم رسالةَ المحبة من كل مصداقية » .

فكِّروا : يقال لنا إن الله لا يستطيع ان يغفر للانسان ، ما لم يُلبَّ عدله أولاً . نستنتج من هذا القول أن الله ليس لامتناهيًا في المجّانية . إنهم يلجأون ، في مرحلة متداخلة من مراحل الغفران ، الى « عدل » يظهر حتمًا بمظهر حد للمحبة . يجعلون في الله محبة يحدّها العدل . ان كان عدل الله يقتضي تعويضًا عن الخطيئة ، فهل يبقى مجال للكلام على الغفران بحصر المعنى ؟ فقد يعني ذلك ان الله لا يستطيع ان يطلق العنان لرحمته ، ما لم « يُثأَر » أولاً . وبذلك نكون قد جعلنا في الله نوعًا من التنازع بين عدل يميل الى الثأر ومحبة ابوية ، وتكون المحبة الأبوية محدودة بسبب مقتضى العدل الميّال الى الثأر . ويكون دم يسوع الذي أُريق في الجلجلة ثمن دَين يقتضيه الله تعويضًا عن الاهانة التي أنزلتها خطيئة البشر في كرامته .

ومع ذلك ، فهناك نصوص العهد الجديد ...

لا يسع الانسان إلاّ ان يشعر بكل ما في ذلك من غير مقبول . ولكن لا بد من الاعتراف بأن الاناجيل ورسائل القديس بولس تُجيز ، على ما يبدو ، استعمال جميع تلك المفردات : تكفير وتعويض واستبدال . فلقد ورد في انجيل مرقس : « اتى ابن الانسان ليفدي بنفسه جماعة الناس » (١٠/٤٥) . الفِدية ؟ أَبحث عن معنى هذه الكلمة في قاموس من قواميس العهد الجديد ، فأَقع على

هذا التحديد : مبلغ من المال يُدفع للإفراج عن أسير او لافتداء عبد (ومن هنا عبارة سرّ الفداء) . ماذا تعني مثل هذه العبارة؟ لا يجوز لنا ان نشطب ما ورد في انجيل متى ، علمًا بأن صحته لا غبار عليها .

زد على ذلك ان القديس بولس ، في رسالة سبقت نص القديس مرقس بعشرين سنة ، عبَّر عن الفكرة نفسها بألفاظ تكاد ان تكون مطابقة : « ان الله جعل يسوع المسيح كفَّارة في دمه بالايمان ليُظهر بِرَّه ، بإغضائه عن الخطايا الماضية في حِلمه تعالى ، ليُظهر بِرّه في الزمن الحاضر فيكون هو بارًّا ويبرِّر مَن كان من اهل الايمان بيسوع » (روم ٣/٢٥) ، هذا نص يعود فيُدخل بالفعل كل ما كنّا نريد ان نُبعده : من دم وضحية وعدل وعقاب . وهناك نصّ آخر : « جاد المسيح بنفسه لله من أجلنا قربانًا وذبيحةً لله طيِّبة الرائحة » (اف ٥/٢) . وهناك خاصةً الرسالة الى العبرانيين ، التي أراد الكاتب ان يشرح فيها معنى موت المسيح ، فاستند في جميع صفحاتها الى الذبائح الدموية التي عرفها العهد القديم . ولا يجوز شطب اي شيء منها .

فماذا اذًا؟ هل يُطلب منّا أو ان نرفض كلمات القديس مرقس والقديس بولس ، أو ان نعدَّ مادةَ ايمانٍ ما من شأنه ان يثير اشمئزاز بني جيلنا؟ كتب الأب دوكوك : حين يصرخ بوسويت أن « الله ادرك ثأره من يسوع » نرى انفسنا ، بحسب مزاجنا ، إمَّا مشمئزّين وإمَّا ساخرين . مشمئزّين ، لأنه بأي حق تُنسب الى الله مشاعر تشينه وتُعَدّ ضرورية لخلاصنا؟ ساخرين ، لأن إحلال المسيح محلّ البشر المساكين العاجزين عن التكفير عن خطيئتهم يبدو امرًا باطلاً ونظريًا .

الحق أن صليب يسوع بدا في البدء للرسل فشلاً سخيفًا . كانوا قد تبعوا يسوع لاعتقادهم بأنهم وجدوا فيه ذلك الملك الذي لن ينتصر عليه احد ، وها هم أصبحوا ، خلافًا لما كان متوقَّعًا ، رفاق رجل حُكم عليه بالموت وأُعدم . قد تقولون لي : لكن القيامة فتحت عيونهم ، وبعد الترائيات استعادوا رباطة جأشهم القديمة ، وهم الآن على يقين من ان يسوع هو الملك الذي آمنوا به . هذا

صحيح ، ولكن يُخشى ألاَّ نرى أن ادراك معنى فائدة الصليب استغرق عند الرسل وقتًا طويلاً. ما الفائدة في الصليب؟ قال القائم من الموت لتلميذَي عمَّاوس: «أَما كان يجب على المسيح ان يعاني تلك الآلام فيدخل في مجده؟» (لو ٢٤/٢٦). لماذا «كان يجب؟» لم يفهموه إلاَّ شيئًا فشيئًا.

حين ارادوا ان يشرحوا ذلك الحدث، استعانوا أولاً بالعهد القديم، وبالضبط بالصِيَغ الفكرية التي كانت صِيَغ اليهود. والحال أنها كانت صِيَغًا طقسية وثقافية. فالعبادة هي التي كانت قلب الحياة الدينية اليهودية: العبادة ورُتَب العبادة (لا عبادة بدون رُتَب). فاقتنع الرسل، بعد قيامة يسوع، بأن كل ما قيل في العهد القديم قد تمَّ في يسوع، لا بل بأنهم لا يستطيعون ان يفهموا ما كان مقصودًا في العهد القديم إلاَّ انطلاقًا من يسوع. وبناءً على ذلك، قام القديس بولس والانجيليون بـ «تفسير» الصليب وبإضفاء معنى على حدث «موت يسوع على صليب في الثلاثين من عمره»، انطلاقًا من افكار لاهوت العبادة في العهد القديم.

فكلمة «ذبيحة» مثلاً هي من مفردات ذلك اللاهوت، علمًا بأنهم كانوا في اسرائيل يقرّبون الحيوانات ذبيحةً طقسية. ترد هذه الكلمة في العهد الجديد، لكنها للتشبيه. ويسوع نفسه تصوَّر موته استنادًا الى الذبائح القديمة: فهو قرَّب دمه على مثال ذبيحة العهد، وقال إن هذا الدم يُراق من اجل جماعة الناس (انها كلمات التقديس)، و«الذِكر» الذي أقامه في أيام الفصح مُستوحى من ذبيحة الحَمَل الفصحية. لكن كل ذلك لم يكن في نظر يسوع إلاَّ صُوَرًا: كان يعرف حق المعرفة أن موته يختلف كل الاختلاف عن الرتبة الطقسية. فما اراد ان يقوله هو هذا: كانت الذبائح القديمة غير فعَّالة، فموتي وحده قادر على تحقيق ما ارادت تلك الذبائح ان تعمله وتعنيه. فيجوز لنا ان نقول إن موت يسوع «ذبائحي»، وهذا ما يقوله الانجيل.

لقد وقع المفسّرون في خطأ جسيم مدة طويلة، حين فسَّروا الرسالة الى العبرانيين بحسب صِيَغ العهد القديم. فإن كاتبها يستند، من أوّلها الى آخرها،

الى الهيكل القديم وذبائح الشريعة اليهودية والكهنوت اللاوي. ولا عجب ان يظنّ المفسّرون ان هذا الكاتب، وهو تلميذ للقديس بولس على الارجح، فهم موت المسيح بحسب تلك الصِيَغ. لكن فكرته في الواقع تختلف عن ذلك كل الاختلاف: يقارن بين موت المسيح والذبائح القديمة ليشير الى ان بين هذا الموت وتلك الذبائح فرقًا جوهريًا. انه يستخدم صِيَغًا معروفة لدى محاوريه (هي رسالة الى عبرانيين، الى يهود) ليُريهم كيف ان انتظارهم قد حُقّق فوق ما كانوا يتوقّعونه.

فالكردينال رَتزِنْغِر يلخّص في اسطر قليلة فكر كاتب الرسالة فيقول: «إن جهاز البشرية الذبائحي كله، وجميع الجهود التي ملأت العالم، لمصالحة الله بالعبادة والطقوس، كُتب لها ان تبقى عملاً بشريًا باطلاً وغير مفيد، لأن ما يريد الله ليس هو التيوس ولا الثيران ولا اي قربان طقسي. قد يُذبح لله ألوف من الحيوانات على وجه الارض، لكن الله لا يحتاج إليها فإنها له على كل حال. ولا يستفيد الله من إحراق كل ذلك لمجده... فالانسان، الانسان وحده، يهمّ الله. كل شيء لله، لكنه وهب للانسان حرية القول «نعم» او «لا»، وحرية المحبة او عدم المحبة. ان اعتناق المحبة الحر هو الشيء الوحيد الذي يمكن لله ان ينتظره». خارجًا عن هذا، لا معنى لأي شيء، بل هذا وحده لا يُستبدل.

والحال ان العبادة القديمة كلها حاولت ان تستبدل ما لا يُستبدل، ان تستبدل قرابين الحيوانات بقربان محبة الانسان. وكان مثل ذلك الاستبدال أمرًا باطلاً على الاطلاق. أمّا يسوع فقد قرَّب نفسه: قال لله «نعم» الطاعة البنوية (اني الخِّص الرسالة الى العبرانيين، ولا اريد ان اشرح الآن لماذا نقول إن موت المسيح هو «نَعَم» طاعة بنوية لله، بما اننا نعدّ غيرَ مقبول وشائنًا ان يستطيع الله، باسم عدله، ان يطالب بدم ابنه. لكن ستكون لنا عودة الى هذا الامر).

يرى كاتب الرسالة الى العبرانيين أن المسيح يستبدل نفسه بقرابين القدماء الباطلة وغير المفيدة. اجل، ورد في النص ان يسوع بدمه أجرى المصالحة مع الله (٩/١٢). لكن ذلك لا يعني ان هذا الدم المُراق هو عطية مادية ووسيلة تكفير

تقاس كمّيتها ، بل الدم المراق هو عبارة عملية لمحبةٍ بلغت اقصاها . فالمسيح ، في نظر كاتب الرسالة الى العبرانيين ، هو الذي اعطى كل شيء ، كل شيء على الاطلاق . وفي ذلك يبدو انه الانسان ، الانسان في ملء كماله . إنه مُطلق المحبة ، كما لا يستطيع ان يقدّمها إلاّ ذاك الذي أصبحت فيه محبةُ الله نفسها محبةً بشرية .

فإذا صحّ أن الانجيل ورسائل القديس بولس والرسالة الى العبرانيين تعبّر عن موت المسيح بألفاظ فدية او تكفير او استبدال ، فليس في ذلك ما يُجيز لنا ان نبقى ، كما فعل بعض المسيحيين مدة طويلة ، أَسرى نظرية تقول بأن الآب طالب بدم المسيح تعويضًا عن عدله الذي جرحته خطيئة البشر . وبكلمات اخرى ، لا نكون غير أمناء للكتاب المقدس ، ان ابتعدنا عن مثل تلك النظرية (فليست سوى نظرية ، وليست هي الحالة الوحيدة التي ربط فيها علماء اللاهوت على غير حقٍ جوهرَ الايمان بنظرية تفسيرية) . وفي شأن معنى موت المسيح ، لا نقول فقط انّ النظرية التي سادت طوالَ قرون في مقالات اللاهوت وكُتب التعليم المسيحي هي موضع نزاع ، بل نكرِّر أنها مشوِّهة للحقيقة بشكل خطير ! المنافذ مسدودة علينا ، فماذا تعني عبارة قانون الايمان : مات المسيح من اجلنا؟

عَرْض لبعض الخواطر اللاهوتية

لا بد لنا دائمًا من العودة الى ما قاله يسوع في انجيل القديس يوحنا : « من رآني رأى الآب » (١٤/٩) . من رأى يسوع رأى الله . فنحن لا نعرف الله إلاَّ من يسوع . ولكن ، إن عرفنا يسوع ، عرفنا الله حق المعرفة ، بقدر ما نحتاج الى معرفته لكي يكون لنا معه علاقة حقيقية . والمسألة الجوهرية هي أن لا نُخطئ في ما هو الله .

كل ما يقوله يسوع ويعلمه يكشف لنا الله. وما له وجود منظور في يسوع له وجود سرّي وغير منظور في الله. فإذا كان التجسّد عمل تواضع، فذلك ان الله هو كيان تواضع. واذا كان يسوع فقيرًا، فذلك ان الله فقير. وحين أرى يسوع، مساءَ خميس الاسرار، يغسل بتواضع أقدامًا بشرية، أرى اذًا الله نفسه منذ الازل خادمًا متواضعًا في عمق اعماق مجده. ليس تواضع المسيح وجهًا استثنائيًا من وجوه مجد الله، بل انه يكشف في زمن التاريخ البشري ان التواضع هو منذ الازل في قلب المجد. فلا يجوز لي أن أعتقد، في الساعة التي يموت فيها يسوع على الصليب، بأنه لم يعد يقول لي: «من رآني رأى الآب»، بل يجب بالعكس ان أفهم أن موت يسوع هو الذي يكشف لي ويُريني من هو الله وما هو كيانه وما هو كيان الله الازلي.

وليست الطاعة للآب، في نظر المسيح، تنفيذ امر، كما نرى في هذه الدنيا مرؤوسًا ينفّذ أمر رئيسه الشرعي. لا يجوز لنا ان نتصوّر الله الآب يقول لله الابن: آمرك بالتألّم والموت في سن الثلاثين. لو كانت الطاعة هذه، لوافقنا مختلف الرفضيين على رفضها! في الحقيقة، «يطيع» الابن للآب بكشفه إيّاه كما هو، لا كما يريد الناس ان يكون. وفي نظر يسوع، لم يكن كَشْف الله كما هو إلاّ قبول الموت. فلو أبى يسوع أن يموت، لَما كشف الله كما هو.

المحبة موت عن النفس وإسلام النفس

ذلك بأننا، إن تقصَّينا الأمور، وجدنا أن الموت، عند الله منذ الازل، هو في قلب الحياة. الله محبة، والحال أن المحبة هي الموت عن النفس، لا بتفضيل الآخرين على النفس فقط، بل (في الكلام على الله الذي يحب حبًا تامًا ويحقّق منذ الازل كمال المحبة) بالتخلّي عن الوجود في سبيل النفس وبالنفس، للوجود بالآخرين وفي سبيل الآخرين وحدهم. الله ثالوث: ليس الآب إلاَّ حركة نحو الابن والروح، وليس الابن إلاَّ حركة نحو الآب والروح، وليس الروح إلاَّ حركة نحو الآب والابن. وعبارة «ليس إلاَّ»، التي أشدّد عليها

لأنها هي تعبّر عن سرّ الله، تعني ان جوهر الله هو التطابق بين الموت والحياة. الخروج من النفس هو في الحقيقة موت عن النفس. والحياة هي المحبة، ولكن المحبة هي الموت، فإنها عدم الوجود إلاَّ بالآخرين وفي سبيل الآخرين.

هذا بالضبط ما كشفه يسوع بموته على الصليب. كتب القديس بولس أن الله «تجرَّد من ذاته متَّخذاً صورة العبد وصار على مثال البشر... فوضع نفسه وأطاع حتى الموت، موت الصليب» (فل ٢/٨ – ٩). وهذا يعني أن كيان الله هو منذ الازل إسلام النفس للآخرين. اجل، نحن لا نستطيع ان ندرك ما معنى ذلك، لأن كيان الله الازلي هو فوق جميع تصوُّراتنا، لكنه يمكننا أن نحاول ان نفهم أن هذا هو في الحقيقة «سرّ» كيان الله. علينا ان نعرف على الاقل بأي إله نؤمن!

كان اليهود يتوقّعون ظهورًا ظافرًا لله. وها إن الله، في الجلجلة، لا يتدخّل، بل يختفي ويصمت. ليس هو إله الصباؤوت، اي إله القوّات، بل هو إله مجرَّد من السلاح. كانوا يتصوّرونه غنيًّا وقديرًا، وهو كذلك، بما أنه اللامتناهي. لكننا نرى الآن أن غناه لا يقوم على التملُّك، بل على العطاء: إنه غنى إسلام تام للنفس، بدون تحفّظ ولا نية مبيَّتة. من اتَّهم الله بالنيّات المبيَّتة لم يفهم شيئًا من المحبة، فإن المحبة لا تُسلِم شيئًا من نفسها وتحتفظ بالجوهر، بل تُسلِم الجوهر. ومن احتفظ بفكر او بنيَّة في سرِّه، دلَّ على انه يتملَّك نفسه. والحال انْ لا أثر للتملّك في الله.

حين ضحَّى الآب بابنه، لا تقُل إنه طالب بتضحية ابنه تعويضًا لعدله، بل انه ضحَّى بأعزّ ما له. وهذا يعني أنه ضحَّى بنفسه، فإن الآب لم يُشفق على نفسه. وبما ان كيان الآب ليس هو إلاَّ بالابن وفي سبيل الابن، فلقد أسلم نفسه حين أسلم لنا ابنه. كيانه او «طبيعته» هي ان يكون «إسلام النفس» (ان كلمة «أسلَم» و«أسلم نفسه» هما من اكثر الكلمات ورودًا في الانجيل).

يحملنا موت المسيح على الاعتقاد بأن كيان الله هو غيرُ ما نتصوّره وأن كمالات الله هي، لا أسمى فقط بما لا حدّ له ممَّا نستطيع ان نكون في مجال

الكمال ، بل بأنها أيضًا فيه على شكل يختلف بما لا حدّ له عن شكلنا : ان الله هو آخَر كليًّا . نحن نغتني بالتملّك ، أمَّا الله فهو غني بالتجرّد . نحن نتقوّى بالسيطرة ، أمَّا الله فهو قويّ باستعباد نفسه .

حين جعل المسيح نفسه عبدًا وقَبِل ان يوثَق في آلامه وجرَّد نفسه من حياته نفسها ، عبَّر عن الله بحركات واعمال بشرية . فهو ، كما قيل فيه ، « موشور » الله الذي يحلّل لعيوننا البشرية ذلك النور الأبيض الباهر الذي ينبثق من الإله . إنَّه هذا الموشور من أول حياته الى آخرها ، ولا سيّمَا بموته . وحين لفظ النَفَس الأخير ، تخلّى عن تملّك حياته نفسها ، واذًا عن تملّك كل شيء . وفي تلك اللحظة بدا كإنسان ما هو الله كإله منذ الازل . في تلك اللحظة بدا قديرًا كإنسان ، كما ان الله قدير كإله . في تلك اللحظة شارك في قدرة الله ، وهي ليست قدرة سيطرة وظهور ، بل قدرة احتجاب .

ما دمنا لا نفهم ان قدرة الله هي قدرة احتجاب ، وما دمنا لم نختبر في حياتنا ان الاحتجاب يقتضي من القدرة على المحبة اكثر ممَّا يقتضيه الظهور ، يبقى كل ما قلتُه غير معقول تمامًا . فمن أحبَّ الآخَر ، أراد له ان يكون ، لا حاول التقدّم عليه ليكون بقدر اقلّ : تلك هي القدرة على المحبة .

القدرة على المحبة هي الغفران

حين يشارك المسيح في قدرة الله التي هي قدرة الاحتجاب – وهو يشارك فيها عندما يحتجب ، اي يموت – ، يشارك في القدرة على الغفران التي هي جوهر الله . حرفيًا ، يموت من اجلنا نحن البشر ، و« يخلّصنا » . هذا يقتضي بعض التفسير ، لانه يتعسَّر علينا جدًا ان نحسن الكلام على الغفران ، مع ان حاجتنا الى الغفران أشد من حاجتنا الى الخبز .

ليس الغفران التساهل ، بل هو اعادة خَلْق . انه إعادة خلْق حريةِ مَن ترك الخطيئة تُضعف حريته . فالغفران يقتضي من الله قدرة أشدّ من القدرة التي يقتضيها الخَلْق ، لأن اعادة الخَلْق هي اكثر من الخَلْق . ان القدرة على اعادة

الخلق هي في قلب القدرة على الخلق، وتبدو قدرة اضافية. عندما يخلق الله الحريّات، يلتزم، في مزيد من المحبة، بأن يردّ لها ذلك السلطان الذي اولاها إيَّاه على خَلْقِ نفسها. والحال ان الفعل الخالق هو في الله فعل تواضع وتخلّ: فإن الله هو الذي كل شيء والذي يتخلّى عن ان يكون كل شيء. لأن من كان محبة، لا يتحمّل ان يكون كل شيء. لا يمكن ان يكون محبة وان يكون كل شيء. فانه، اذ ذاك، يُفسح مجالاً للحرية، وكما قال الشاعر الالماني هردرلن، «الله يصنع الانسان كما يصنع البحر القارّات: بالانسحاب».

اذا صحّ ان الخَلْق هو، عند الله، الانسحاب، أفلا يكون الخَلْق ثانيةً او الغفران او اعادة صنع حرّية مزيدًا من الانسحاب؟ افلا يكون الغفران انسحابًا مرَّتين؟ أَولا يكون ذلك القدرة المطلقة؟

فالمسيح بموته يشارك في قدرة الله المطلقة والغافرة. هناك انسان، مولود من مريم العذراء، من نسلنا اذًا، له بفضل موته قدرة الله على الغفران. ان الاله الذي يمنحنا الغفران، لا بد ان يبدو لنا مُشتبَهًا فيه، اذ ما من شيء أكثر إثارة للاشتباه من العقلية الأبوية حين تُملي مثل هذا القول: أَغفر لك. لكن الاله الذي يصير انسانًا ويغفر في موته ويكون موته غفرانًا، وغفرانًا شاملاً، كيف يثير اشتباهنا؟

فمن الحق ان نقول إننا بدم المسيح المراق ننال الخلاص. وهذا ما يعبّر عنه كلام التقديس في سر الافخارستيا: هوذا الدم الذي يُراق لغفران الخطايا. لا تعني هذه العبارة ان الدم تعويض يقدَّم لعدل الله، لعدلٍ يقتضي ان يُراق دم المسيح. فالدم المُراق هو علامة محبة تبلغ اقصاها (يو ١٣/١). أُضيف أن سر صليب المسيح لا يكون سوى لغز خالٍ من المعنى، ان لم نحوِّل تحويلاً جذريًا تلك الفكرة التي نكوّنها عن قدرة الله. كل انسان يبحث عن الله اولاً في اتّجاه القدرة، وهذا أمر لا يمكن تفاديه، فإن الانسان يتّجه اولاً هذا الاتّجاه وهو اتّجاه وثني. نرغب عفويًا ان يتدخّل الله دائمًا في شؤوننا، وان يكتب الله نفسه

قصّتنا مكانَنا ، وان يحرّرنا الله من تلك المسؤولية الرهيبة التي تملي علينا ان نكون انفسنا أصحاب مصائرنا .

وحين نصبح مسيحيين (لأننا لسنا مسيحيين ، بل نصبح مسيحيين ، ولا بد لذلك من تحوّل يومي) ، ونشاهد العجز المطلق الذي كان فيه الانسان الله المسمَّر على صليب ، يشقّ علينا دائمًا ان ننسى المسعى الاول (الوثني) الذي أثّر فينا تأثيرًا بليغًا . لا يزال تحوّلنا ناقصًا . فنتردّد بين صورتَين للإلهي لا نُحسن التوفيق بينهما ، لأننا لا نُحسن التوحيد بينهما : صورة القدرة الوثنية المسيطرة ، وصورة العجز التام الذي وُجد فيه المسيح المسمَّر وهو ينازع ويموت . تبقى صورة القدرة الوثنية من تحت ، ولا تتغيَّر . أمَّا صورة العجز التام الذي وُجد فيه المسيح المسمَّر ، فهي كطباعة على طباعة . ان تواجد هاتين الصورتين كارثة للنفس وللعقل .

فلا بدّ ان نواصل ، طوالَ الأيام والسنين ، تأمُّلاً مسيحيًا حقيقيًا يُقنعنا في العمق بأن عجز الجلجلة التام هو الذي يكشف حقيقة طبيعة قدرة الله ، ذلك الكائن السرمدي واللامتناهي . فإن موت المسيح هو الذي يكشف ملء مجد الله ، ذلك المجد الذي هو المحبة كقدرة على ملاشاة النفس . بيسوع المصلوب يظهر خالِصُ « في سبيلك » او « في سبيلكم » الخاصّ بالمطلق الحيّ الذي هو الثالوث . ذلك الانسان المشوَّه والمضرَّج بالدم والمغطّى بالبصاق والعرق والدم والمشبَّه ، في سفر أشعيا ، بالحمل المسوق الى الذبح ، هو الذي يكشف الكائن السرمدي الذي لا صورة له . ولا معنى للوجود البشري إلاّ فيه وبه : ذلك هو القول الرئيسي في ايماننا .

لا نستغرب ابدًا عاطفة القديس بولس ، حين يقول لنا (فل ١٨/٣) إنه « يبكي » على الذين يسيرون « سيرة اعداء صليب المسيح » ! يحسن بنا ، ولا شك ، ان نبقى نحن أيضًا او ان نصبح قادرين على البكاء .

هل قيامة المسيح واقع تاريخي؟

نتناول اليوم مشكلة قيامة المسيح. انها أهم مشكلة او سرّ، اذا صدّقنا القديس بولس، حين يقول لنا: «ان كان المسيح لم يقم، فايماننا باطل»، أي لا اساس له (١ قور ١٥/١٤).

التاريخ والايمان

معركة العَلَمَين واقع تاريخي، وموت هِتلر أيضًا. أفيجب ان نقول إن قيامة المسيح هي واقع تاريخي على الوجه نفسه؟ نعم ولا. فالقيامة هي في آن واحد، وبدون انقسام، واقع تاريخي وحدث للايمان. نقول بوجه أدق إنها حدث للايمان، ينطوي على واقع تاريخي (بدونه لا يجوز لنا ان نقول إنها حَدَث).

ما هو تاريخي هو شهادة الرسل: أناس، كانوا قد عاشوا مع يسوع وعدُّوه المشيح، أعلنوا أنهم رأوه حيًا بعد موته على الصليب.

وهذه الشهادة، التي هي تاريخية، تنطوي على شيء غير تاريخي ولا يمكن ان يكون: ان القيامة، بصفتها انتقالاً من الموت الى الحياة الأبدية، لا يمكن ان تكون حقيقية إلاَّ للايمان. لم يكن الرسل شهودًا لذلك الانتقال، ولا يمكن ان يكونوا (حتى لو كانوا قد ظلّوا في قبر يسوع حتى صباح الفصح). ذلك بأن القيامة، بالنسبة الى هذا العالم، حيث يمكن التثبُّت من الاشياء، هي

مجرّد اختفاء. لم يعد جسد يسوع القائم من الموت ينتمي الى عالمنا الطبيعي القائم على المكان والزمان.

وبناءً على ذلك، يستحيل التثبُّت من الانتقال من الموت الى الحياة الأبدية. فلا يمكن تشبيه قيامة يسوع على الاطلاق بإحياء جثة، حتى في حالة لعازر.

ليست قيامة لعازر انتقالاً من الموت الى الحياة الأبدية، الى عالم الله، بل عودة الى الحياة كما كانت قبل الموت. عاد لعازر الى الحياة التي كانت حياته قبل موته. حين اخاطب أولادًا، اقول لهم إن لعازر، عند خروجه من القبر، ربَّما عطش او سعل او تبيَّن حالة الطقس (شمس او مطر). على كل حال، عاد فوجد والدَيه واصدقاءه والعالم كما تركه قبل موته، واستعاد حياته ولم يُعفَ من الموت مرة ثانية. فليس هناك اذًا أي شيء مشترك بين ما يسمَّى قيامة لعازر (وهي بالأحرى معجزة احياء جثة) وقيامة يسوع.

وما يمكننا ان نعدّه تاريخيًا هو ما كان للرسل موضع إثبات حالة حسيّة (للحواس). والحال أن ما تثبَّتوا منه بحواسهم، وما كان لهم موضع اثبات حالة حسيّة، يقتصر على أمرين: القبر الفارغ من جهة، ومن جهة أخرى، لا أقول ظهور يسوع القائم من الموت، بل ظهور أحد بدا لهم، من دون ان يعرفوا أنه يسوعٌ حيّ. فلو عرفوا من ساعتهم أنه يسوعٌ حيّ، لوجب علينا ان نقول اننا امام جثة أُعيدت الى الحياة.

نتردّد في المزح امام سرّ في هذا العمق، لكنه يجوز لنا مع ذلك ان نقول ما يلي: لا نتصوّر الرسل يهتفون: فلقد خرجتَ إذًا من القبر؟ او: ماذا جرى؟ كنتَ ميتًا وها إنك هنا! هذا غير معقول! تثبَّت الرسل أولاً من حضور أحد، حضور بستاني لمريم المجدلية، وحضور مسافر لتلميذَي عمّاوس... وبفعل ايمان عرفوا بعد ذلك ان ذلك الانسان هو الذي عاشوا معه مدة ثلاث سنوات والذي كانوا تلاميذه.

أشدِّد فأقول: نُخطئ إن تصوّرنا أن الرسل تثبَّتوا (اثبات حالة

– بالحواسّ – تاريخي اذًا) من ان هذا الانسان الذي بدا لهم هو يسوع الذي عرفوه قبل موته على الصليب، وأنهم آمنوا بعد ذلك بالقائم من الموت. فإن الروايات الانجيلية هي على عكس هذا التصوُّر.

– شعروا بوجود أحد، ولكنهم لم يعرفوه.

– من هذا الشعور، انتقلوا الى الايمان بواسطة التفكير في وجودهم السابق مع يسوع، تُنيره الآن الكتب المقدسة التي فسّرها لهم والرسالة التي عهد اليهم بها.

فنحن أمام الأمور التالية:

١) تثبَّتوا من حضور أحد يظهر.

٢) ادركوا معنى اقوال يسوع القديمة وسيرته القديمة والنبوّات المختصة بموته (وقت التفكير بالرجوع الى الكتب المقدسة اطول في رواية تلميذَي عمّاوس، لكن جميع روايات الترائيات تشير الى ان مجرد ظهور يسوع القائم من الموت لم يكْفِ الرسل لمعرفته، في حين ان جميع الناس عرفوا لعازر).

٣) عرفوا (بالايمان) أن ذلك الانسان هو يسوع حيّ، وهو وجَّههم من ساعته، انطلاقًا من ماضيهم، نحو المستقبل، عاهدًا اليهم برسالة، رسالة انشاء الكنيسة.

القبر الفارغ

ما هي العلامات التي ظهر بها يسوع القائم من الموت؟ يجيب الانجيل: هناك علامتان: الواحدة سلبية (القبر فارغ)، والأخرى ايجابية (ترائي يسوع للرسل).

نوضّح أن اكتشاف القبر فارغًا، كما رواه الانجيل، لم يكن له دور هام في ولادة ايمان الرسل. فإن القبر الفارغ لا يدل وحده على القيامة. ففي اقدم صيغة وردت في العهد الجديد (في حوالى السنة ٥٠)، يؤكّد القديس بولس ان «الله اقام يسوع من بين الاموات» (١ تس ١/٩): لا ذِكر للقبر. اجل، ان

اكتشاف القبر فارغًا ورد في الانجيل، لكنه ليس جزءًا من رسالة الرسل الاساسية (بعكس الترائيات).

القبر الفارغ امر غريب يطرح سؤالاً. والجواب لا يفرض نفسه. فيمكن تفسير الأمر بطريقة مختلفة، ولا سيّما بخطف الجثمان مثلاً. لا نقول ابدًا بأن القبر الفارغ ليس هو حقيقة، بل نقول فقط: إن فُصل هذا الأمر عن الاطار الذي ورد فيه، اي عن شهادة الرسل في شأن الترائيات، يبقى هناك أمر قد يستطيع المؤرّخ ان يشكّ في صوابه. ان اعتبرنا هذا الأمر في حدّ ذاته، بعد ان مضى عليه ألفا سنة، لا تكون له اهمية تاريخية كبرى، وإن كان وجوده ثابتًا. لا يمكن التأكيد على «تاريخية» الأحداث، ما لم تكن على شيء من الأهمية وكانت مندمجة في مجموعة تُعدّ «تاريخية».

فلا عجب ان يبقى المؤرِّخ العصري كثير التحفّظ في امر اكتشاف القبر فارغًا. ولن يخرج من تحفّظه كمؤرِّخ، ما لم يعترف، الى جانب ذلك، بقيمة شهادة الرسل في أمر الترائيات.

الترائيات وموضوعيتها

أَمَّا الترائيات، فلا يُرى كيف يمكن انكارها. وإلاَّ، وشرطَ التخلّي عن افتراض الخِداع المدبَّر، لأصبح الدين المسيحي أمرًا لا يمكن تبريره. لكن المشكلة تتعلق بمعنى هذا الواقع ومغزاه. فكثيرًا ما يصطدم التفكير هنا بحكم سابق يقول بأن كل تراءٍ لا يمكن ان يكون إلاَّ تخيُّلاً ذاتيًا ومَرَضيًا، خاليًا من كل قيمة موضوعية. لا شك ان تلك المسلَّمة ليست في حد ذاتها بديهة من البَداهه. فالبت السابق في هذه المسألة لا يوافق أسلوب النقد الصحيح.

ومنهم من ينسب الترائيات الى الايحاء الذاتي. في هذه الحال، يبقى عليهم ان يفهموا كيف ان ايمان الرسل، الذي كان ضعيفًا جدًا قبل الخيبة التي أحدثها موت يسوع، استطاع ان يعود الى الحياة وكلّه حيوية وحماس. كان التبشير بيسوع القائم من بين الاموات يشكّل خطرًا لهم اكبر من خطر الاعتراف بالتلمذ له في

اثناء الدعوى التي أُقيمت عليه. والحال ان الرسل لم يجرؤوا ، في اثناء الدعوى ، على الاعتراف بأنه معلّمهم ، مع ان ذلك كان اقل صعوبة عليهم من الجرأة على التبشير بأن يسوع هذا نفسه قام من الموت. فكانت الصعوبة ، بعد رحيله ، أكبر بكثير من الثقة به قبله ، وبلغت حدّ التهلُّل للاستشهاد.

لكن تلك الملاحظة هي غير حاسمة ، ان اقتصرنا عليها. فهناك مخرج ، وهو وجود ظواهر جماعية في شأن بقاء بعض الابطال الذين قُتلوا في الحرب. يبدو هذا الأمر ثابتًا عند سكّانٍ ذوي نفسية بَدائية. ويظهر هذا البقاء ، لا بمعنى ان البطل هاجر الى مثوى الاموات ، بل بمعنى انه لا يزال ينتمي الى عالمنا ، وإن بوجه غير منظور ، ولا يزال يقوم بعمل تاريخي. وقد يُثير مثل هذا الاعتقاد عند الشعوب البدائية حماسًا في الإخلاص للقضية التي جسّدها ذلك البطل. فلا بدّ من الفطنة ، لا سيّما والكلام يدور على اساس الايمان.

ومنهم من يقول : لا يمكن ان يكون الترائي سوى تركيبة عقلية ، فهو شيء ذاتي ، ونحن امام تركيب تخيُّلي. لكن ابسط احساساتنا (احساسي الآن مثلاً بهذا المِكروفون وهذه الورقة وهذه الطاولة وبكم جميعًا) تنطوي هي أيضًا على شيء من التركيب الذاتي. ولا مانع من ان ينطوي الترائي على عناصر تركيب ذاتي ويتمتع مع ذلك بقيمة موضوعية. ولكن لا بد من الاتّفاق على كلمة « موضوعي » ، فإنها لا تخلو من الالتباس. لا تعني ما هو خارجي ، ذلك بأن مخيّلتنا تحملنا على الاعتقاد بأن ما هو موضوعي هو خارجي وأن ما هو باطني هو ذاتي محض. انتم الذين امامي الآن ، لا شك انكم جميعًا موضوعيون ، لكم وجود موضوعي (لا تسلّمون بأنه لا وجود لكم إلاّ في فكري. فإن قلت لكم إنه لا وجود لكم إلاّ في فكري ، تغضبون وتحتجّون ، لأن لكم وجودًا موضوعيًا). وفي الوقت نفسه ، انتم خارجون عني (تفصلكم عني خمسة عشر مترًا او عشرون ، ولكي استطيع ان أصافحكم ، فلا بد لي ان اجتاز المسافة التي تفصلني عنكم). لكن كلمة « موضوعي » في حد ذاتها لا ترادف كلمة « خارجي » ، فهما مفهومان مختلفان كل الاختلاف.

وحين نقول إن ظهور يسوع القائم من الموت للرسل كان موضوعيًا – وهذا هو الأمر الجوهري – لا نقول إنه كان خارجًا عنهم (كما انكم جميعًا خارجون عني وأنا خارج عنكم). وحتى اذا صحّ ان الرسل، وهم يركّبون حتمًا احساسهم (بما ان كل احساس هو تركيب، وهذا من الأوّليات في الفلسفة) ويتكلّمون بحسب اللغة المألوفة، أحسّوا بيسوع خارجًا عنهم، فذلك لا يعني على الاطلاق ان يسوع كان، من جهته، خارجًا عنهم.

اعترف بأن هذه النقطة لا تخلو من الصعوبة. فإن فضّلتم ان تقولوا إن يسوع القائم من الموت كان، في آنٍ واحد، موضوعيًا وخارجيًا، فأنتم أحرار. ولكن يجب ان نتوقع قيام الاعتراضات والعقبات. لا فائدة في عرقلة طريق الايمان، فإن المُهمّ والذي يربط الايمان هو أن حضور يسوع كان موضوعيًا.

وما نعنيه، حين نقول إن الترائيات لها «قيمة موضوعية»، هو ما يلي بالضبط: ليست الترائيات من تركيب الرسل وحده، بل هي واقعية بمعنى ان الرسل رأوا القائم من الموت بحكم مبادرة لم تصدر عنهم، بل عنه. في حالة التخيُّل، تصدر المبادرة عن الذات العارفة. أمَّا في حالة الترائيات، فإن المبادرة لا تصدر عن الرسل، بل عن المسيح. وبكلمات اخرى، لم يَرَ الرسل يسوع إلاَّ لأن يسوع أرى نفسه.

وهل يجوز لنا ان نشبّه ترائيات يسوع القائم من الموت باختبارات المتصوّفين التي يحدّثنا عنها تاريخ الكنيسة؟ نعم ولا، ولكن لا خاصةً.

نعم، لأننا، هنا وهناك، في حالة الرسل وفي حالة المتصوّفين، امام اختبارٍ لما لا يُدرَك: ففي الحالتين، يصبح ما لا يُدرَك (اي ما ليس هو اختبار بحكم الطبيعة: الله او احد القديسين) موضع اختبار. إقرأوا اي كتاب من كتب التصوّف، ولا تنسوا أن بركسون اهتدى الى الايمان عن طريق البحث في مؤلَّفات المتصوّفين. ان اختبار المتصوّفين هو اختبار الامور الالهية، وهذا التحديد ينطبق على المتصوّفين وعلى الرسل على السواء.

لكني قلتُ: لا خاصةً، فإنَّ في اختبار الرسل، في ما نسمّيه ترائيات

يسوع القائم من الموت ، شيئًا طريفًا على الاطلاق ، شيئًا قاموا وحدهم باختباره . ما هو ؟ ما الفرق الاساسي القائم بين ترائيات يسوع للرسل وترائيات احد القديسين لأحد المتصوّفين ؟ هذا الفرق : التطابق بين الذي يرونه الآن ، بعد موته ، والذي عرفوه ، قبل موته ، في اوضاع الوجود الطبيعي . إنه هو هو . عرف الرسل يسوع وعرفوا أنه في الحقيقة ذلك الذي عاشوا معه قبل موته ، في حين ان برنديت لورد مثلاً لم تعرف مريم بصفتها امرأة سهرت معها على قطيع الخراف . فاختبار الرسل اختبار طريف وفريد على الاطلاق في التاريخ : ادركوا ان هناك اتّصالاً بين حياة يسوع الزائلة ووجوده كقائم من الموت .

ولادة الايمان عند الرسل

سنحاول ان نفهم كيف تمّت الامور ، وإن كانت تلك المسائل ، كما رأيتم ، لا تخلو من الصعوبة . واذا لم يكن ذلك بسيطًا ، فالراجح أن نظرتنا شُوِّهت الى حد ما . لا بدّ ان تكون الامور بسيطة ، لأن الايمان يُعرض على جميع الناس ، ولا يقتصر على المثقّفين والفلاسفة . هناك ثلاث مراحل في ولادة الايمان عند الرسل :

المرحلة الاولى : الرسل هم اناس لاقوا يسوع ، الانسان يسوع ، في حياته الزائلة ، وتبعوه وآمنوا به بصفته المشيح المُنبأ به ، ومخلّص الأمّة ، ولا اقول بصفته إلهًا ، اذ ما من رسول آمن قبل العنصرة بأن يسوع هو إله . ففي المرحلة الاولى ، حياة زائلة ، وأناس زائلون يعيشون مع انسان زائل .

المرحلة الثانية : هذا الايمان حقيقي ، ولكنه ضعيف ، ولقد عانى من محنة موت يسوع الرهيبة ، لا ايَّ موت كان ، بل موتٍ شائن . فكان لهم نهاية حُلم جميل ، ووقف مغامرة رائعة . ففقدوا الايمان بمشيحهم ، بعد ان حُكم عليه وصُلب . هل حافظوا على ايمانهم بالله ؟ لا يمكن تأكيد هذا الامر ، فإن الله لم يمنع من الحكم على البار . وهل من وجود لإله لا يمنع من الحكم على البار ؟ فهم أمسوا في حيرة تامّة ، وفقدوا كل رجاء . في رواية تلميذَي عِمَّاوس الرائعة ،

وصف لنا لوقا تلك الحيرة: كنَّا نرجو، لكننا لم نعد نرجو... وتشتَّتوا. لم يزالوا، مع ذلك، اولئك الذين تعلَّقوا بيسوع وتبعوه ثلاث سنوات. فمن هذا المُنطلَق سينشأ ايمانهم الفصحي، بتدخّل من يسوع القائم من الموت.

المرحلة الثالثة: ظهر لهم أحد. هذه علامة أُعطِيت: أحدٌ صار فجأة هنا، من دون ان يشعر أحد باقترابه. وقد يكون البستاني (وهذا ما ظنّته مريم المجدلية اوّلاً)، وقد يكون مسافر على الطريق بين اورشليم وعمّاوس. لم يستتر الرسل بذلك، بل اضطربوا بالعكس. ماذا؟ فقدوا الايمان والرجاء، فكيف يمكنهم ان يعرفوا بحواسّهم الطبيعية (بعيونهم وآذانهم وأيديهم) أحدًا تجاوز الوجود الطبيعي فاستحالت معرفته بالحواس الطبيعية وحدها؟ لو عرفوا يسوع لأول وهلة، لكان جثّةً أُعيدت الى الحياة كلعازر، ولكان قد عاد الى الحياة الزائلة. لكن يسوع انتقل الى الحياة الابدية، الى الحياة الالهية بحصر المعنى. وهذا الشخص فسَّر لهم الكتب وطبَّقها على حياته الماضية وعلى موته خاصةً. وعرض عليهم قراءة للكتب المقدسة تذهب الى ابعد ممَّا فهموا حتى تلك الساعة. فسَّر لهم ما تنبَّأ به الانبياء في شأن المشيح وآلامه وموته. كان ذلك نورًا سُلِّط على آلام يسوع وموته، التي كانت سبب حيرتهم واضطرابهم، والتي كانت لهم ظلمات غرق فيها ايمانهم. فعاد ايمانهم الى الحياة. واليكم النقطة الاساسية: فهموا ان يسوع، لأنه المشيح، وجب عليه ان يتألّم ويموت (لا مع أنه كان المشيح، بل لأنه كان المشيح). سبق للأنبياء أن قالوا ذلك، والآن فقد فهمه الرسل.

ولم تنبئ الكتب المقدسة بآلام المشيح وموته فقط، بل أنبأت برفعه أيضًا. وأول ما يجب القيام به في الوقت الحاضر هو إنماء الكنيسة. ولذلك، ما إن عرف الرسل يسوع وتثبّتوا من هويته، حتى حوّل انظارهم الى المستقبل، عاهدًا اليهم برسالة، وهي صَنْع الكنيسة وانماؤها. وهذا الايفاد الى الرسالة لا يقلّ شأنًا عن العودة الى الماضي (يشدّد التفسير الكتابي على ذلك بقوّة).

كثيرًا ما نسمع الاعتراض التالي: لو تمَّ اثبات قيامة المسيح عن يد اناس

غير الرسل ، عن يد اناس حياديين ، كبعض الوثنيين الذين لم يعرفوا يسوع ، او حتى عن يد خصومه (الفريسيين ورؤساء الكهنة) ، ألما كانت شهادتهم أشدّ اقناعًا؟ أليس كون الرسل في وضع مميَّز بالنسبة الى قيامة محتملة سببَ شك؟كثيرًا ما نسمع بعض الناس يقولون : لو شهد يهوذا القيامة ، لخفّت الشُبهة حولها كثيرًا.

إن أَخْذ هذا الاعتراض بعين الاعتبار يعني تصوّر القيامة اعادةَ الحياة الى جثة ، وعودةَ يسوع الى حياة طبيعية . إنه تصوّر القيامة عجيبة تُغني عن فعل الايمان (لم يشعر الناس بحاجة الى فعل ايمان لمعرفة لعازر الخارج من القبر) ، عجيبة من شأنها ان تلقي الذعر في ايّ شخص كان وتُرغمه الى حدّ ما على الايمان. تصوَّروا ان يهوذا شاهد القيامة : فلَما ذهب وشنق نفسه ، بل لاضطُرّ الى الايمان ! لكن ذلك لا يخلو من التناقض ، فإن أُرغم أحد على الايمان ، لم يعد ايمانه ايمانًا . لو لم تكن القيامة سوى عجيبة تُدهش ايَّ شخص كان وتُرغمه على الايمان ، لما كانت أمرًا جدّيًا يؤخذ بعين الاعتبار !

لو وُجد بعض خصوم يسوع مع التلميذَين على طريق عمَّاوس ، فلربُّما كانوا قد رأَوا « مجهولاً » ولما كانوا قد عرفوا الذي صلبوه . قلتُ : لربَّما ، لأنكم تعلمون كيف يُطرح السؤال ، والأولاد يطرحونه منذ السن الثامنة او التاسعة ! لنفترض ان رجلاً كان يدخّن سيجارة على عتبة بابه المطلّ على طريق عمّاوس : أَكان رأى مسافرَين ام ثلاثة مسافرين ؟ لا أعلم . يتوقّف كل شيء على رأي كل واحد : تراءٍ خارجي او باطني محض ، وعلى كل حال موضوعي . فلربّما كان قد رأى « مجهولاً » ، ولكنه لَما كان قد عرف الذي صلبه ، ان افترضنا أن ذلك الانسان كان أحد الجلاَّدين الذين سمَّروا يسوع على الصليب .

يجب ان نضيف ما يلي : التراثيات هي علامة ستزول . وسيكون الصعود آخِر تراءٍ ، فإن عيد الصعود هو عيد الترائي الاخير . ذلك بأن الايمان الكامل يفترض تخطّي كل علامة خاصة والحرية بالنسبة الى العلامات . الايمان الكامل هو الايمان بحسب الروح القدس . والعنصرة هي التي تفتتح هذا الايمان . فوراءَ

الترائيات، واكثرَ منها بكثير، يبدو ان تمام ظهور يسوع القائم من الموت هو في الحقيقة انتشار الكنيسة.

تجارب المؤمن وغير المؤمن

ما هو رأي غير المؤمن في قيامة المسيح؟ تشبه حالته الى حد ما حالة الرسل قبل ان يعرفوا يسوع في فعل ايمان. فالعلامات (القبر الفارغ والترائيات)، ان أُفرغت من معناها، اتّجهت نحو التفتُّت. وفي نظر الرسل، يثير ظهور يسوع الذعر أولاً: يظنّونه شبحًا. وفي نظر المؤرّخ، فما دام دونَ الايمان، تبدو العلامات واهنة ومشتبهًا فيها. والايمان يؤثّر في العلامات بالكشف عن تناسقها ومتانتها. لكن عدم الايمان أيضًا يؤثّر في العلامات بتجزيئها نوعًا ما وحلّها.

لا يُنكر المؤرّخ غير المؤمن أن هناك معطى أدبيًا للقبر الفارغ والترائيات، فلقد وردت في الكُتب. لكن هذا المعطى الادبي، ان انفصل عن معناه، كاد ان يفرغ من نفسه ويفقد مقدرته على تكوين إشكالية: فمن جهة، يتّجه غير المؤمن نحو إلغاء معطى القبر الفارغ كواقع تاريخي (فيقول إن المسيحيين الاوّلين اختلقوا هذا الأمر تلبيةً لحاجة قضيتهم، او، اذا ما أدّى البحث الرصين في النصوص الى تاريخية القبر الفارغ، يجد مخرجًا للسؤال الذي يطرحه الواقع التاريخي في الاسطورة اليهودية التي رواها متى (٢٧/٦٤ و٢٨/١٣) والقائلة بأن «تلاميذ يسوع جاؤوا ليلاً فسرقوا الجثمان ليقولوا للشعب: قام من بين الاموات»). وأمّا الترائيات، فيتّجه غير المؤمن الى تفسيرها كظواهر ايحاء ذاتي او تخيُّل جماعي. النقطة الهامة هي التالية: اذا ما أنكر الانسان معنى أمر، انتهى الى حلّ هذا الأمر، فإن إنكار المعنى يتّجه الى الارتداد على الأمر وعلى حلّه.

ولكن لِنحذرْ، بالعكس، من المبالغة في قيمة المعطى التاريخي. وهذا ما يتعرَّض له المؤمن: فقد نفكّر كما لو كان المعنى يُدرك مباشرةً في المعطى التاريخي، وكما لو كان القبر الفارغ في حدّ ذاته برهانًا عن القيامة، وكما لو

كانت الترائيات تمكّن من معرفة هوية يسوع في اللحظة ، من دون الحاجة الى فعل ايمان ، وكما لو كان يسوع لعازر الذي عاد الى الحياة . فلنحذرْ : لو كان الأمر على ذلك ، لوجب القول بأن قيامة يسوع تقع برمّتها تحت قبضة الحواس والتاريخ ، ولوجب الاستنتاج أن غير المؤمن غبي او جاهل وأنه لا يعرف النصوص او يعجز عن قراءتها كما يجب او انه سيئ النية (الله أعلم بأن المؤمنين لم يمتنعوا بنَعت غير المؤمنين بالأغبياء وسيئي النية) . لكن ذلك يخالف النزاهة ، ولا يحق لنا على الاطلاق : فلا نبالغْ في قيمة المعطى التاريخي . ليست قيامة يسوع مجرّد واقع تاريخي كمعركة العَلَمَين . الايمان حرّ ، وإلاَّ فليس هو الايمان .

لا عجيبة ، بل سلسلة علامات

حاول كبار من الرسَّامين ان يصوّروا يسوع خارجًا من القبر في بهاء انتصاره . لعلَّهم أَنجزوا بعض الروائع ، لكنهم أَدَّوا لنا خدمة مُضرَّة ، اذ ليس هناك أي شاهد رأى ذلك ، فإن يسوع لم يُرِ نفسه قائمًا من الموت ، بل علَّم ذويه ان يعرفوه بعد قيامته من الموت . فلو كان هناك خروج مهيب من القبر ، لحُطَّ السرّ الى مستوى الاسطورة ، ولَكُنَّا أمام خارق بشري محض ومنغلق على الامور البشرية .

أُحب ان تفكّروا في السؤال التالي : (فبأسئلة كالسؤال التالي يمكن تقدير نوعية الايمان ، لأن هناك اناسًا يدّعون أنهم مؤمنون ، مع انهم ليسوا في الحقيقة إلاَّ متعطِّشين الى ما يسمَّى الخارق) : ما رأيكم في ديانة مبنيّة على إله مات فانتقم ، مُبهرًا إيَّانا بانتصار مبين؟ ان مثل هذا الانتصار يشبه الى حد بعيد نوعًا من الانتقام الذي قد نحلم به ، حين نتمنّى ان تنتقم الكنيسة من أولئك الأشرار الذين ينتمون الى ديانات أخرى . اننا جميعًا نحلم بمسيح منتصر .

لو تصوَّرنا يسوع خارجًا من القبر بشكل مهيب ، لانزلقنا الى مستوى الاساطير الوثنية ، وجعلنا الله على صورتنا ، وأدخلنا الله ، لا في تاريخنا الحقيقي

الذي هو تاريخ قراراتنا، بل في ما نريد ان يكون تاريخنا للإفلات منه، وشجّعنا الفلكلور، مع انه يجب علينا ألاّ نساعد على الخَلط بين سموّ الايمان المسيحي وما يبدو بديلاً للفلكلورات الوثنية!

لا يمكن ان تكون القيامة عجيبة تنتزع الاعتراف بالوضوح، بل لا يمكن ان تكون إلاّ سلسلة علامات تلتمس الايمان. انتبهوا الى هذا: ان الذين رفضوا الايمان، اعني رؤساء اليهود الذين امروا بحراسة القبر، هم الذين تثبّتوا من العجيبة عن قرب. تذكّروا: لم ينازعوا في قيامة لعازر كأمر واقع، لأنها كانت لا تقبل النزاع، بل استنتجوا مساس الحاجة الى القضاء على يسوع: هكذا فهموا معنى قيامة لعازر: بما ان هذا الرجل يُجري مثل تلك العجائب، فسيؤمن به جميع الناس فيأتي الرومانيون ويدمّرون أمّتنا. فكان كلامهم تطبيقًا لجواب ابراهيم للغني في مثل الغني ولعازر: «ان لم يستمعوا الى موسى والأنبياء، لا يقتنعوا ولو قام واحد من الاموات». (لو ١٦/٣١).

في الحقيقة، لم يَرِد في اي مكان من الانجيل عجائب ليست إلاّ عجائب، فلقد رفضها يسوع رفضًا قاطعًا. أبى ان يؤمن الناس بسبب العجيبة: فأيًّا تكون نوعية مثل ذلك الايمان؟ في البرية، لم يحوِّل الحجارة الى أرغفة. وحين طلب اليه الناس آية في السماء، أجاب أن الآية الكبرى ستكون موته (متى ١٢/٤٠). وليس تكثير الارغفة زيادة انتاج من المأكولات لا يسعها وحدها إلاّ أن تُغلِق رغبة الناس على مرافق الحياة الارضية. فالعلامة الصحيحة تهدف الى توجيه الرجاء والايمان نحو الحقائق النهائية، اي أن الانسان لا يحيا بالخبز وحده. ولذلك فإن خطبة يسوع في خبز الحياة، اي الافخارستيا، هي جزء لا يتجزّأ من معجزة تكثير الارغفة (يو ٦).

الخطر هو الرغبة في تمثيل ما جرى بالضبط وصرف النظر عمّا عناه الانجيليون. والحال أن ما عَنَوه ليس هو ما جرى بالضبط، ساعةً بعد ساعة، او يومًا بعد يوم، بل هو إدخالنا في اختبار هو اختبار حضور يسوع الحقيقي الجديد. لا يسجِّل هذا الحضور الجديد، فلم يعد قابلاً للمعرفة بشهادة

الحواس. إنه يختلف كل الاختلاف. لا احد آخَر، بل هو نفسه أصبح مختلفًا كل الاختلاف.

أمامنا سلسلتان من النصوص الانجيلية:

– سلسلة تشدِّد على ان يسوع القائم من الموت ليس هو شبحًا وروحًا (كان اليهود يميلون الى الاعتقاد بالاشباح والارواح). فقد ورد التوضيح التالي: «إلمسوني وانظروا، فإن الروح ليس له لحم ولا عظم كما ترون لي» (حرفيًا عن لو ٣٩/٢٤). فهي سلسلة تهدف الى الدلالة على ان يسوع قام حقًّا من الموت في جسده.

– وسلسلة أخرى تؤكّد أن هذا الجسد لم يعد هو هو: فالقائم من الموت يظهر ويغيب ويجتاز الابواب المغلقة. وجسده لا يخضع لحتميَّات المكان والزمان. إنه هو هو (السلسلة الاولى). لكنه هو نفسه اصبح مختلفًا كل الاختلاف (السلسلة الثانية). فهناك اذًا سلسلتا نصوص لنتمكّن من استهداف ما لا يمكن ان يكون موضع تصوُّر دقيق، اي «جسم روحاني»، كما يقول القديس بولس.

من العلامات التي ورد ذكرها في الانجيل، علامة واحدة يمكن ان تكون موضع إثبات حالة: وهي القبر الفارغ. أمَّا الترائيات، فأمرها يختلف. نحن على يقين من ان تلميذَي عمَّاوس ومريم المجدلية والتلاميذ، منفردين كانوا أم مجتمعين، رأوا وسمعوا وحدهم الذي أظهر نفسه. ولو كان لديهم آلات تصوير او مسجِّلات، لما استطاعوا ان يصوِّروا او يسجّلوا شيئًا. فما كان مطلوبًا منهم هو الشهادة.

لا خوف من التشديد على الفرق القائم بين الشهادة والتحقيق. ما اكثر الذين يعتقدون بأن التحقيق المزوَّد بجميع وسائل التسجيل هو ذروة الحقيقة التاريخية. إنهم لا يرون أن آلات التصوير والمسجّلات لا تستطيع ان تدوِّن إلاَّ المظاهر الخارجية. فمن اراد تسجيل اختبار عميق، فليس لديه من آلة صالحة إلاَّ القلب، بمعناه الكتابي، اي الشعور. وهذا ما يؤدّي الى طرح السؤال: لماذا

تؤمنون؟ ما هو الدافع الى ايمانكم؟ وبكلمات أخرى: ما هو المعنى الذي تُضفيه قيامة يسوع على حياتكم؟ لا واقع القيامة وحده، بل معناه أيضًا.

ان اردنا الاحتفاظ بكلمة يستعملها التصوير، قلتُ إن ما «يُحسّسه» اختبار يسوع القائم من الموت هو جوهر الكيان ووجودنا نفسه. فحين يقول الرسل: «نحن شهود على هذه الامور» (رسل ٣٢/٥)، لا يعني قولهم: رأيناه خارجًا من القبر، بل: نحن على يقين تام من ان يسوع هو حي، فهو قد فتح في شخصه، مرّة واحدة، ابواب الحياة الحقيقية، اي انه هو القيامة. وما يكفل هذا اليقين الذي يتخطّى الطبيعة البشرية هو بذل حياتنا حتى الاستشهاد.

الخاتمة: قيامة المسيح مسألة مطروحة على التاريخ

في نظر المؤرِّخ الذي ليس هو إلاَّ مؤرّخًا، تطرح قيامة المسيح مسألة لا حلّ لها بالوسائل الخاصة بالمؤرّخ، مسألة لا يمكن التخلّص منها بشروح تجريبية. انها مسألة لا حلّ لها ولا يمكن ازالتها في آن واحد: لا يمكن ازالتها، وعلى الصعيد التاريخي المحض لا حلّ لها.

لسنا أمام لُغز تاريخي فقط، بل أمام مسألة تتجاوز كل امكانية حلّ (على الصعيد التاريخي المحض طبعًا). لا اقول فقط إنها لم تجد حَلاًّ، بل إنه لا حلّ لها. فالقيامة، على هذا الصعيد التاريخي، لا يمكن القول بها كواقع تاريخي، ولكن لا يمكن إلاَّ ان تبقى مسألة تاريخية، مسألة مطروحة على وجه موضوعي. فالمؤرِّخ كمؤرِّخ لا يستطيع الذهاب الى ابعد من ذلك.

ولكن ما من مؤرِّخ لا يكون إلاَّ مؤرِّخًا، كما انه ما من عالِم لا يكون إلاَّ عالِمًا. فالعالِم انسان، والمؤرِّخ أيضًا انسان قد يكون متزوّجًا وله أولاد وموسيقيًا ومؤمنًا... والحال ان المؤرِّخ، لكونه انسانًا، لا يستطيع الاقتصار على البحث في امر محدود يُنظر اليه بعدم انحياز العلم الذي هو مجرّد علم. لا يسع المؤرِّخ إلاَّ ان يشعر بنفسه ملتزمًا في التاريخ: فلا بدّ له ان يطلق العنان للانسان الذي فيه والذي يواجه معنى ذلك التاريخ.

فلا يسعه اليوم ألاَّ يشعر بالمسألة التي تطرحها عشرون قرنًا من المسيحية، لا يسعه ألاَّ يتساءل عن تاريخ البشرية ومعناه الالهي المحتمل. ان واقِع قيامة المسيح الطريف الى ابعد حد (او بالاحرى واقع شهادة الرسل الطريف على قيامة المسيح) يطرح عليه حتمًا مسألة ما قد يكون للتاريخ من «بُعد متعالٍ». فيجوز له ان يسلّم بصواب بأن «إصبع الله» هنا، يجوز له ان يسلّم بذلك بصفته انسانًا يتساءل عن معنى الوجود البشري.

وهل يجب أن نذهب الى ما أبعد من تلك فنضيف أن هذا الموقف هو المخرج المعقول الوحيد لتلك المسألة؟ لكن ذلك يقتضي ان يسلّم بأن العقل البشري، حين يفسّر ارتباط الظواهر، يصطدم بحدود لا يستطيع ان يتجاوزها. ولا بدّ له، ان اراد ان يأخذ الامور بالجدية، ان يتعمَّق في فلسفة الجسد، ليفهم ان اختفاء جثمان يسوع ليس هو تبخُّرًا للمادة، بل هو انتقال هذه المادة وتحوّلها في الله.

ويبقى جائزًا للمؤرّخ ان يرفض هذا الحكم، لكنه لا يزال، في هذه الحال، محتبسًا في اعتبار أمر لا معنى له. فإن فعلَ الايمان وحده يشقّ الطريق الى المعنى. وهذا المعنى هو ان الموت قد غُلب، او ان المحبة أقوى من الموت. أعمق مطالبي هو الحياة: أريد أن احيا للأبد. فإن قلتم إنكم لستم حريصين على ذلك، اضطُررت الى قطع الحوار. فما حيلتي؟ وكل ما أستطيع ان أقول هو اني لست على شاكلتكم. أمَّا انا فأُريد ان أحيا للأبد. والقيامة تقول لي: ستحيا للأبد. هذا هو المعنى. ولذلك أومن.

لمَّا كان مرقس أوريزون طبيبًا جراحيًا في بوردو، كان يرى الناس كل يوم يموتون ويتوقّفون عن الحياة. فعزم على ان يكون كاهنًا لكي يقام القداس في حضن شمول الموت، وان تكون القيامة حاضرة، بفضل القداس، في قلب عالم يزول فيه كل شيء. ولقد تحدَّث مرارًا عن هذا الموضوع في كتبه. فإن القيامة هي فوق كل موت، هي الحياة، هي الثغرة في حلقة الموت الشامل، ولولاها لانحبسنا حقًّا في هذه الحلقة.

قام المسيح من بين الاموات وصعد الى السماء

القيامة

سنبحث في معنى هذا السرّ. هناك جملة كافية، في رأيي، للتعبير عن جوهر ما يقال: «المحبة اقوى من الموت، شرطَ ان تكون أوّلاً أقوى من الحياة». عبارة «المحبة أقوى من الحياة» تعني التضحية والموت، وعبارة «المحبة اقوى من الموت» تعني القيامة. وبكلمات أخرى، فإن التضحية وهي موت جزئي والموت وهو تضحية تامّة يحوِّلان الحياة بحسب اللحم والدم الى حياة بحسب الروح. ذلك بأن سرّ الفصح – الموت والقيامة معًا – هو سرّ تحوُّل، تحوُّل الانسان البشري الى انسان روحي، لا بل إلهي بالمشاركة.

المحبة رغبة في الخلود

ان أردنا ان نفهم ذلك، وجب علينا، كما في كل مرة، ان ننطلق من الاختبار وان نفكّر في الاختبار المستنير بالايمان. فإن اختبارنا للحب هو الذي يُقنعنا بأن في الانسان رغبة في الخلود لا تقاوَم.

لا اعلم هل يمكن إثبات وجود الخلود بالحجة الفلسفية. يجوز الشك في هذه الامكانية. منذ عهد قريب، كان الفلاسفة المسيحيون، او بالأحرى

أساتذة الفلسفة المسيحيون (في التعليم الثانوي على الاقل) لا يشكّون فيها. فكانوا يعلّمون على الوجه التالي: ما هو روحي لا يقبل الفساد، والحال ان النفس روحية، فالنفس لا تقبل الفساد، اي انها خالدة. فكان الأمر على غاية البساطة. أمّا اليوم فإننا اقلّ تسرُّعًا في مثل هذه الامور، ونعترض على القول الرخيص بتقسيم الانسان الى نفس وجسد. نظنّ ان غبريال مرسيل على حق في تحذيرنا من عبارة «لي جسد»، وفي تفضيله عبارة «انا جسدي»، وهذا ما يعني ان الجسد والنفس ليس هما حقيقتين تقبلان الانفصال: فالنفس ليست بشيء من دون الجسد. ولذلك يرفض الالحاد كل امكانية خلود.

لكن غبريال مرسيل نفسه، وهو رجل مسيحي له صفحات رائعة في الرجاء، يطرح مسألة الخلود على وجه مختلف. اقتدى بما فعله القديس اوغسطينس في كتابه «الاعترافات»، فأثبت وجود الخلود انطلاقًا من اختبار الانسان لموت كائن عزيز عليه. فقال: لا بد لنا من قبول موت الكائن العزيز علينا، سواء أكان زوجًا او زوجة أو ولدًا او اخًا او صديقًا. لكن هذا الموت في جوهره غير مقبول.

وهو يضيف موضِّحًا: لا غير مقبول بمطلب من القلب، ولا بسبب الألم، بل باحتجاج من العقل. فالقلب يتألم ولكنه يقول: نعم، او، اذا قال: لا، فذلك بأنه يتمرّد، لكنه يتمرّد عبثًا. أمّا العقل فلا يسعه إلاّ ان يقول: لا. ولماذا؟ لأن من قال لأحد الناس: «احبُّك» قال له: «لن تموت». ففي عبارة «احبُّك» الصحيحة (ولا بد من التشديد على صفة «الصحيحة»، لاننا نعلم بأن عبارة «احبُّك» كثيرًا ما تُلفظ بدون تروّ على مستوى اوتار الكيان السطحية) كُتبت بخطّ لُغزي عبارة «لن تموت» تقف بشكل خفي في وجه اليأس الذي يولّده الفقدان والشعور الواضح بحتمية الموت.

ان الحب الصحيح لا يقبل الفساد ولا يُفنى. وهو يقتضي ان يكون، فكأنه حاجة الى اللامتناهي. وان كان الحب يقتضي اللامتناهي، فهو عاجز عن توفيره. يقول للحبيب: «لن يموت»، لكن الحبيب يموت. يطمح الى

الأبدية ، لكنه ينتمي في الواقع الى عالم الموت ، وهو محتجَز مثلنا ، مع عزلته وقدرته على التدمير ، في حلقة الموت الشامل. فالمفارقة لا تطاق.

بقاء الانسان بنفسه ام في احد آخَر؟

انطلاقًا من تلك المفارقة ، نحيا جميعًا بقدر كثير او قليل ، ونفهم ما يعنيه سر القيامة المسيحي. ذاك هو انتصار المحبة على الموت ، ذاك هو معنى أن المحبة اقوى من الموت. فما هو القادر على ان يجعلني خالدًا؟ فإني ، ولا شك ، سأتحوّل الى تراب ، وما من شيء يحول دون ان يكون محكومًا عليّ بالموت. فلا استطيع البقاء إلاّ في أحد آخر ، في أحد لا يزال باقيًا حين لا ابقى على قيد الحياة.

لا بد لنا ان نعرف حق المعرفة لماذا يربط الكتاب المقدس ربطًا وثيقًا بين الخطيئة والموت ، لماذا يقول القديس بولس مثلاً «إن الموت هو أجرة الخطيئة». فالخطيئة في جوهرها هي عبارة عن الاكتفاء بالنفس ، والخاطئ هو الذي يريد ان يكون «كالله» ، اي ان يبقى للأبد في نفسه وبنفسه. لكن الانسان لا يستطيع البقاء في نفسه وبنفسه: فمن أراد ذلك ، من طمح الى ذلك ، أسلم نفسه للموت.

وكيف يكون البقاء في أحد آخَر ، او في كائنات أخرى؟ هناك عدة طرق ممكنة ، ولقد جرَّبها الانسان كلها. إلاّ ان هناك طريقتين بوجه خاص.

يريد الانسان أولاً ان يبقى في اولاده ، ان يمتدّ ، كما يقولون ، في اولاده واحفاده. وهذا ما حمل الشعوب القديمة على عدّ العزوبة والعقم لعنةً: فالحرمان من الولد هو استحالة البقاء ، في حين ان كثرة الاولاد هي فرصة للبقاء ، هي بركة.

وهناك أيضًا المحاولة للبقاء في ذاكرة الناس والطموح الى المجد. وقد اعتدنا ان نقول ، اذا سمعنا موزارْت او شاهدنا رانْبرانت ، انَّهما لا يزالان حيَّين بيننا. اجل ، هذه طريقة في التعبير لا ينخدع بها أحد.

في الحقيقة ، لا استطيع ان أبقى في أحد آخَر ، إلاّ ان كان هناك آخَر

وكان سرمديًا وكان له من الحبّ لي ما يحمله على قبولي في نفسه. لا يستطيع الانسان ان يكون خالدًا إلاّ في الله، اذا صحّ ان الله محبة. فالاله الذي يحبّني يقدر وحده، لا على الحيلولة دون موتي، بل على اقامتي من الموت. المحبة وحدها هي اقوى من الموت.

لكن ذلك يقتضي ان تكون المحبة فيَّ قد كانت اقوى من الحياة. وردت هذه الفكرة في الانجيل على الوجه التالي: «ليس لأحد حبّ اعظم من ان يبذل نفسه في سبيل احبّائه» (يو ١٥/١٣). هذا هو تحديد الحرية. فالانسان الحرّ هو الانسان غير المُستَعبَد. ولكن، لأي شيء يكون الانسان المركّب من لحم ودم اكثرَ استعبادًا إلاّ للرغبة في العيش بحسب اللحم والدم؟ لا يخفى علينا ان الانسان الجبان هو الذي يكون اهتمامه السائد، بطريقة من الطرق، وفي شتّى الظروف، ان يصون راحته وثروته وامتيازاته وصحته وكرامته في هذا العالم، وبالاختصار ما يسمّونه الحياة. يكون الانسان عبدًا، إن تمسّك بما هو وبما له.

في يسوع وحده، تكون المحبة اقوى من الحياة

كان افلاطون يقول: «لا يستحقّ ان يكون موجودًا إلاّ الذي يستحقّ ان يكون محبوبًا». ما خَفِيَ على افلاطون، وما نؤمن به نحن المسيحيين من كل نفوسنا، هو ان الذي يُحب يستحق وحده ان يكون محبوبًا. فالذي يحب يستحق وحده ان يكون موجودًا، لأنه وحده حرّ، لأنه وحده انسان.

وفي تاريخ البشرية، واحد كان حرًا على الاطلاق، لأن واحدًا أحبّ حبًا تامًا. واحد هو انسان على وجه كامل. أمّا نحن فإننا نجتهد في ان نحبّ، ونبني بمشقة، طوالَ الأيام والسنين، حريتنا، ولا نزال مستعبَدين لأشياء كثيرة وبطرق كثيرة. نتمسَّك بما لنا وبما نعلم مع ذلك أنه سيموت. نحن متعلّقون اكثر ممّا نحن متجرّدون. فالحياة فينا، الحياة الحاضرة، الحياة البيولوجية، الحياة الزائلة، أقوى من المحبة.

في يسوع المسيح وحده (بصرف النظر عن أمر امّه مريم)، كانت المحبة

اقوى من الحياة. وكان موته موت انسان حرّ على الاطلاق، ومتجرّد على الاطلاق عن نفسه وعن كل شيء، ومُحبّ على وجه تام. فكيف لا يقبله الله في نفسه لكي يحيا فيه للأبد؟ لم يَحيَ المسيح إلاّ بالآب وللآب، ففي احد آخر اكثر ممَّا في نفسه. هذه هي المحبة: أن يحيا أحد في احد آخر. لكن الحياة في أحد آخَر هي الموت عن النفس. فحين نقول إن يسوع قام من الموت او إن الآب اقام يسوع من الموت، نقول اذًا، بالنسبة الى ذلك الانسان الذي كان انسانًا على وجه تام والذي كانت المحبة فيه اقوى من الحياة، إن المحبة تبقى للأبد اقوى من الموت. لقد قام من الموت، وهو حيّ.

أصبح في امكاننا الآن ان نفهم تلك الفكرة التي ربَّما بدت لنا غامضة قبل دقائق: المحبة هي أقوى من الموت، شرطَ ان تكون أوَّلاً أقوى من الحياة.

المسيح القائم من الموت أساس خلودنا

أمَّا نحن الخاطئون، فإننا نحبّ حبًّا قليلاً وسيّئًا لأننا نتمسّك تمسّكًا قويًا باللحم والدم، ولا نفضّل الآخَرين على انفسنا إلاّ بوجه محدود ولا يخلو من الأوهام. فمن الواضح اننا، لو كُنّا نعتمد على انفسنا، لَما استطعنا ان نقوم من الموت، ولَكان الوجود البشري غير معقول في آخِر الأمر، لأن عبارة «لن تموت» التي نقولها ضِمنًا للذين نحبّهم تكون في هذه الحال أمنية لا تُستجاب للأبد. لكن المسيح القائم من الموت يقول لنا هو: «لن تموت». يقولها لنا، اذ إنه يقول لنا: «أحبُّك».

شرطَ ألاَّ نحتبس في انانيتنا – وقد يكون هذا شأن الهالكين – ففينا شيء قد يكون مدفونًا في صميم كياننا ومحجوبًا عن جميع العيون إلاّ عن عَيني المسيح القائم من الموت، شيء يستحق ان يكون محبوبًا، وبالتالي ان يكون موجودًا للأبد. هو تلك الناحية الغامضة فينا، التي نستطيع ان نرجو أنها كانت موجودة في يهوذا وفي هِتلر وفي ستالين، والتي يلقاها المسيح في قدرته اللامتناهية على الغفران. ليس الغفران عفوًا عمَّا مضى، بل هو خلق جديد وصُنع جديد

وإقامة من الموت. وحين يغفر لنا المسيح، فإنه يُقيمنا من الموت ويجعلنا، بالرغم من حقارتنا الهائلة، قادرين على استيعاب الحياة الالهية الابدية. علينا ان نبذل جهدنا لنستمع الى المسيح يقول لنا، في الخلوة مع النفس والصلاة، وفي صمت الايمان: «لن تموت». فإنه هو، وهو وحده، اساس خلودنا.

ان الحياة النابعة من القيامة هي حياة محوَّلة. قال القديس بولس: «صورة هذا العالم في زوال» (١ قور ٧/٣١). الصورة فقط. وكتب الأب تيّار دي شاردان: «يُدهشنا ان لا يصل إلاَّ القليل من الناس... الى ادراك معنى التحوّل. فتارةً ما يبدو لهم الشيء المحوَّل ذلك الشيء القديم الذي لم يتغيَّر، وتارة ما لا يرون فيه سوى الجديد تمامًا».

في السماء سنبقى نحن نحن. سأرى الله في مجده، سأراه أنا، لا أحد غيري، وسأحيا بحياته، وأحبّ كما يحبّ. لن نُبتلَع، لن نتلاشى، بل سنُرفَع الى حال مختلفة كل الاختلاف، سنُصهَر من جديد ونحوَّل. لن اكون أحدًا آخَر، بل سأكون أنا، لكني سأصبح مختلفًا كل الاختلاف.

كتب الأب دي لوباك: «لا تعني القيامة ان أجسادنا ستعود الى وجود أرضي وبشري لا نهاية له، تصعِّده بعض الخاصيات العجائبية. ليس مصير أجسادنا ان تُعاد اليها الحياة كما تُعاد الى جثث، بل ان تحوَّل تحويلاً تامًّا يجعل منها، على حد قول القديس بولس، «أجسامًا روحانية». وما نقوله في أجسادنا الفردية ينطبق أيضًا على ذلك الجسم الواسع الذي تبنيه البشرية لنفسها عَبرَ الاجيال. شكله الحاليّ («صورته» الحالية) شكل موقَّت... فإن مصير الكون أيضًا هو التحوُّل الكبير في الروح القدس».

ورد في قانون الايمان بعد ذلك : «وصعد الى السماء وجلس عن يمين الآب». الى ايّ حد ينخدع بنو جيلنا بالصور، بالصور الثلاث المجتمعة في هذه الجملة القصيرة؟ الله اعلم. لا شك ان المشكلة تُطرح في تربية الاولاد : فما معنى «صَعِد» (صَعِد المسيح)؟ وما معنى «جَلَس»؟ وما معنى «يمين» (يمين الله الآب)؟

الصور والحقائق

يريد اللاهوتيون ان يساعدوا المربّين، ولذلك أخذوا يشدّدون، في مؤلّفات حديثة، على ضرورة تخطّي الصور لإدراك المعنى.

ماذا يقول مُعجم العهد الجديد في كلمة «صعود»؟ يقول ما يلي : «مشهد رواه لوقا وأُشير اليه في خاتمة الانجيل كما رواه مرقس. يمتاز هذا المشهد بوجهَين : يعبّر، بصفته انفصالاً، عن توقّف شكل معيَّن من العلاقة بين المسيح وتلاميذه، حتى مجيء المسيح الأخير. ويرمز، بصفته ارتفاعًا الى فوق او صعودًا الى السماء، الى رَفْع المسيح الحاضر للعالم كله، اي الى تمجيده».

الرَّفْع : نبحث، في المعجم نفسه، عن شرح كلمة «رَفْع». فإليكم ما ورد : «هناك عبارة قديمة غير عبارة القيامة، مفادها ان يسوع المسيح هو ربّ وسيّد في المجد، وحاضر للأبد بعد موته، وهذه العبارة هي «الرَّفْع». وهي تعكس التقليد اليهودي القائل بأن الله يرفع مَن اُذلّ ويقي البارّ من الموت برفعه ايَّاه الى السماء (ايليا مثلاً). يفترض هذا المفهوم وجود عِلم لاهوتي ينطلق من كسمولوجية ذات ثلاث طبْقات : السماء فوقُ حيث يجلس العلّي، والارض تحتُ حيث يعيش الناس، ومثوى الاموات تحت الارض حيث يقيم

الاموات... وهناك نصوص أخرى لا تحتفظ بصورة الصعود: «دخل يسوع (لا: صَعِد) السماء» (عب ٩/٢٤)، و«ذهب» (رسل ١/١٠).

وإليكم أيضًا ما ورد، في المعجم نفسه، في كلمة «يمين» (جلس المسيح عن يمين الله): «صفة تدل على الجانب الأشرف عند الانسان (اليد او الخدّ). واليمين يدل أيضًا على القدرة الالهية». فحين نقول ان المسيح جلس عن يمين قدرة الله، نعني أنه يشارك في هذه القدرة، وأنه يساوي الله في القدرة، وأنه قدير كالله، وفي آخر الأمر أنه الله.

وهناك كلمة يجب تفسيرها، لم ترد في قانون الايمان، بل في اعمال الرسل، وهي كلمة «غَمام». «ليس الغمام ذلك الغيم الذي يُنذر بالمطر او يأتي بالظلّ. الغمام في الكتاب المقدس هو ما يدل على وجود الله من دون ان يكشف عن سرّه، ما يدل اذًا عليه ويحجبه في آن واحد». فالغمام الذي حجب المسيح عن انظار الرسل، على ما ورد في اعمال الرسل، هو الغمام الذي كان يهدي العبرانيين في البرية ويحلّ على تابوت العهد، وهو الغمام الذي ارتفع منه صوت الآب عند اعتماد يسوع، وهو غمام التجلّي على جبل ثابور، وهو الغمام الذي سيأتي عليه المسيح في نهاية التاريخ ليدين الأحياء والاموات. ان الغمام الكتابي أغبش ونيِّر في آن واحد: وهو عنصر اساسي في لغة التجلّيات الالهية.

السماء: لقاء حميم بين الله والانسان

نستخلص مِمَّا سبق ان السماء (او السموات)، حيث «صعد» يسوع، هي بالضبط أُلفَة الله. ما يسميه المسيحيون «سماءً» ليس هو مكانًا ابديًا فوق الارض ولا مجالاً ميتافيزيقيًا. ليس هو الله وحده. فالسماء هي صلة كيان الانسان بكيان الله، واللقاء الحميم بين اللهِ والانسان.

لِغُوارْديني قول يحمل على التفكير: «الدين المسيحي وحده جرؤَ على جَعْل جسد انسان في عُمق الله». من الواضح أن الانسان لا يستطيع ان يتصوَّر ذلك.

فلا بدّ هنا من إماتة المخيِّلة بقَسوة. هناك انسان في قلب الثالوث الاقدس. هناك انسان مساو للآب والروح.

وان تذكَّرنا قول يسوع في اثناء العشاء السرّي «اني ذاهب لأُعدّ لكم مُقامًا» (يو ١٤/٢)، او قوله «لتكونوا انتم أيضًا حيث انا اكون» (يو ١٤/٣)، وجب علينا ان نستنتج: السماء هي مستقبل الانسان، مستقبل البشرية. فإذا مُجّد انسان في قلب الثالوث الاقدس، فلكي تكون البشرية كلها للأبد في ذلك الانسان، في يسوع المسيح، في قلب الثالوث الاقدس. الصعود هو العلامة التي تفتتح السماء، او بالأحرى توجِدها.

والصعود هو أيضًا، بمعنى يجب ادراكه، ذهاب المسيح الضروري. وهو ذهاب يبدو بالأحرى وجهًا جديدًا لوجوده. لم يعد هذا الوجود خارجيًا او محدَّد المكان، بل أصبح باطنيًا وشاملاً. الحضور الحقيقي هو على شكل الغياب. فلو لم «يصعد يسوع الى السماء»، لما زال بيننا، في وسطنا، ولكن الى جانبنا، خارجًا عنّا، كما اني خارج عنكم وانّكم خارجون عني. كتب القديس بولس: صعد الى السماء «ليملأ كل شيء» (اف ٤/١٠).

صعود المسيح احترام لحريتنا

ومع ذلك فإن الصعود هو ذهاب المسيح، بمعنى أنه لم يعد في امكاننا، عند اتّخاذ القرارات، ان نسأله لكي نعرف منه ما يجب عمله. اجل، يمكننا، لا بل يجب علينا ان نسأل في الصلاة ذلك الذي هو فينا والذي هو نحن اكثر من انفسنا. لكنه لا يجيبنا بتجريدنا من مسؤولية قراراتنا واعمالنا. في الخطبة التي القاها يسوع بعد العشاء السرّي، جملة توضح الامور الى حد بعيد: «خَير لكم ان امضي، فإن لم أمضِ، لا يأتكم الروح القدس» (يو ١٦/٧).

ذلك بأن الروح القدس ليس هو مَن يُملي القرارات، بل من يوحي بها. ان الله يرفض دائمًا ان يكون هو كاتب تاريخنا. ولو فعل ذلك، لَما استطعنا ان

نقول إنه يحبّنا ، لأنه يرضى في هذه الحال بأن نبقى أولادًا قاصرين . نُخطئ في التعبير حين نقول إن الله له مشروع بشأن الانسان . فإن كرامتنا الانسانية تمنعنا ان نرضى بأن يكون لاحد مشروع بشأننا . وهذا امر يرى فيه كثير من الناس داعيًا الى الالحاد . ليست الحقيقة ان الله له مشروع بشأن الناس ، بل هي ان الإنسان هو مشروع الله . والامر يختلف كل الاختلاف .

يريدنا الله أناسًا ، اي بالغين مسؤولين ، نبني نحن انفُسنا حريتنا ، ونكتب نحن انفسنا تاريخنا . فذهاب المسيح – صعوده – هو في جوهره احترام من قِبلَه لحريتنا . لم يعد ممكنًا بعد اليوم ان نعتمد عليه ليُملي علينا العمل الذي يجب القيام به او القرار الذي يجب اتّخاذه . عبَّر كلوديل تعبيرًا حسنًا ، على طريقته ، عمَّا قاله يسوع : «خير لكم أن أمضي ، فإن لم أمضِ ، لا يأتكم الروح القدس ، فكتب : يجب أن أُبعد عنكم وجهي لكي تكون لكم نفسي» .

لمَّا توارى المسيح في الغمام ، كتب القديس لوقا ان عيون الرسل ما زالت شاخصة الى السماء ، مع أنه لم يبق هنالك شيء ، لم يبقَ هنالك وَجه . فقال لهم الملاكان : «ايها الجليليون ، ما لكم قائمين تنظرون الى السماء؟» (رسل ١/٩) . وهذا يعني : لا تُضيعوا الوقت ، بل قوموا الى العمل المفروض عليكم . والقيام بهذا العمل يقتضي منكم كثيرًا من العقل والشجاعة . انتم أناس ، وعندكم عقول وقلوب . فتغلغلوا ، بهذه العقول وهذه القلوب ، الى قلب العالم .

والحال ان العالم معقَّد جدًا ، وهو خبيث أيضًا . وفيه ذئاب ، ومعلّمكم يرسلكم كالخراف بين الذئاب . ولقد استعمل يسوع صورة أخرى فقال : «كونوا كالحيات حاذقين وكالحمام ساذجين» (متى ١٠/١٦) . اي : لا يمكنكم ان تستغنوا عن تحليل المواقف – الاخلاقية والثقافية والاقتصادية والسياسية – على احسن وجه ، فانطلاقًا منها ستقرّرون ما يجب عمله . أنتم اناس بالغون . اعتمدوا على الروح القدس الذي فيكم ليبقى فيكم روح الخراف والحمام ، ولكن لا تعتمدوا عليه ليعرض عليكم حلولاً جاهزة . ليس المسيحيون في غنى ان يكونوا أناسًا . ولن يكونوا أناسًا إن اقتصر عملهم على تنفيذ الاوامر .

فان الله ، الذي يحب البشر ، لا يفرض عليهم الاوامر . فقد قال يسوع : « خير لكم ان امضي » . ومضى .

وبهذه الطريقة أصبح حاضرًا لنا على اعمق وجه . لا شك ان مخيِّلتنا تهذي ، اذا حاولت ان تُقنعنا بأن المسيح القائم من الموت « والجالس عن يمين الله الآب القدير » لم يعد على الارض ، لأنه أصبح في السماء . اجل ، اننا نؤمن بأنه ينزل الى المذبح ليكون حاضرًا في القربان المقدَّس .

سبق لنا ان قلنا إن السماء هي الصلة بين كيان الانسان وكيان الله ، واللقاء الحميم بين الانسان والله . فحيثما كان الله ، كان المسيح . ان المسيح ، بجسده ونفسه البشرية هو ، على مثال الله ، حاضر في كل مكان . والحال ان هذه النقطة بالضبط هي التي قد تحتال فيها مخيِّلتنا علينا . فكثيرًا ما نتصوَّر جسدًا شبيهًا بأجسادنا الارضية ، بيولوجيًا ، موسَّعًا باتّساع العالم ، كما اننا نتصوَّره « مصغَّرًا » ، حتى لا نهائي الصِّغَر ، في جزء من القربان المقدس . هذا شيء غير معقول ، وبما اننا نشعر بأنه غير معقول ، نتصوَّر مسيحًا لم يعد له جسد .

كتب الأب ري مرمييه : « لم يصر الله انسانًا لينبذ ما « جعله انسانًا » وما كوَّن « شخصيته » البشرية ، ما بدونه لا يعود إنسانًا ... فالربّ القائم من الموت قد حُرِّر ، لا من المادة ، بل من الحدود الارضية المفروضة على المادة . في هذه الدنيا ، كان جسده وسيطًا لكل لقاء ، ولكنه كان في الوقت نفسه عقبة وحاجزًا . أمَّا بعد القيامة ، فلم يعد هذا الجسد سوى وسيلة اتصال رائعة بجميع اخوته في البشرية ، قريبًا في الوقت نفسه من جميعهم ومن كلٍ منهم كأنه وحده » .

اكرِّر : إلينا ، وبكامل المسؤولية ، يعود اتّخاذ القرارات المناسبة لإحلال عالم اكثر انسانية ، لكن المسيح حاضر في كل من هذه القرارات ليضفي عليها بُعدًا الهيًا . المسيح حاضر ويعمل على تأليه ما نؤنّسه ، ليعبر بنا ، اليومَ لا غدًا ، يومًا بعد يوم وقرارًا بعد قرار ، من الارض الى السماء . هذا هو جوهر الايمان .

فرح الإيمان
بهجة الحياة

مُحاضرات في أهمّ قضايا الإيمان المسيحيّ

الأب فرنسوا ڤاريّون اليسوعيّ



القسم الثاني

تقبُّل عطية الله

مريم العذراء

نقول ، في قانون الايمان ، إن يسوع ، المولود من مريم العذراء ، حُبل به من الروح القدس . لا شك ان هذا القول حجر عثرة للعقل . فكيف لا يستاء عقلنا من فكرة الحَبَل بإنسان صغير من دون تدخُّل عنصر ذكر ؟ وكيف تكون امرأة عذراء وأمًّا في آن واحد ؟ ومع ذلك فهذا ما يجرؤ المسيحيون على الاعتراف به كبندٍ جوهري من بنود ايمانهم .

الحبل البتولي بالمسيح هو حدَث

لا عجب ان يكون الناس قد حاولوا دائمًا ، في هذا الأمر ، ان يقلّلوا من اهمية شهادة الانجيل . فلاحظوا وجود عدة طبقات أدبية في تحرير نصوص متى ولوقا . وشدَّدوا على التذكير بأن القدماء كانوا معدومي روح النقد او روح العلم . وحاولوا ان يقصروا هذا الحدث على رمز ، فقالوا : قد يكون للحبل البتولي معنى رائع ، شرط عدم التسليم بأنه حدث تاريخي .

اليكم ما قاله لاهوتيان فرنسيّان . كتب الاول : «لا يمكن المحافظة على معنى الحبل البتولي بمعزل عن تاريخيته . فإن الحدث هو الذي يحمل على التفكير ، وليست العقيدة هي التي تبتدع الرمز . هكذا فهمت دائمًا شهادات الايمان ، وليس هناك ما يدعو الى الشكّ فيها» . إنه لموقف ثابت وواضح . وكتب الآخر : «ما يعني بالضبط «الحدث التاريخي»؟ انه حدث نعرفه

من خلال شهادات يمكننا ان نُثبت قيمتها اثباتًا نقديًا. فوجود نابوليون ومعركة واترلو هما، بهذا المعنى، حدثان تاريخيان، لأن هنالك ما يشهد عليهما. وموت المسيح، على عهد طيباريوس، وفي ايام بنطيوس بيلاطس، هو أيضًا حدث تاريخي، يشهد عليه مؤمنون وغير مؤمنين والرسل والتقليد اليهودي والمؤرّخ تاقيطس في كتابه «الحوليّات».

«فهل قيامة يسوع واقع من الفئة نفسها؟ من قال بأن يسوع قام من الموت، قال بأنه خرج من اوضاع التاريخ العامّة، وبأنه لم يعد يخضع للمكان والزمان في «اليومَ» الالهي السرمدي. ولا يمكن ان يكون القول بقيامة المسيح إلاَّ قول المؤمن الذي يدخل، بهذا القول، في نظام الايمان، حيث تُدرك الحقائق التي تتجاوز النظام التاريخي المحض.

«وهذا شأن سر بشارة العذراء، وهو يظهر بمظهر اختبار باطني وفائق الطبيعة البشرية. فالترائي الملائكي هو، في اكثر المذاهب اللاهوتية تشدُّدًا، ظاهرة روحية باطنية. وهذا لا يعني أنَّها غير حقيقية. لكننا أمام نظام حقائق يعود الى نوع آخر من المعرفة، وبالتالي الى صيغة أخرى من الشهادة.

«كان في امكان مريم وحدها ان تعلم بأن ولدها حُبل به حَبلاً بتوليًا. وهذا الأمر في حد ذاته لا يمكن ان يعود الى التحقيق التاريخي، ولا يمكن ان يعرفه إلاَّ مريم نفسها. ورد في انجيل متى ان مريم لم تقل اي شيء ليوسف في بدء الأمر، وهذا ما يبدو قريبًا جدًا من المعقول. لكن القديس لوقا، الذي يروي لنا سرّ بشارة مريم، يقول لنا، في سفر اعمال الرسل (١٤/١)، إن مريم كانت حاضرة للكنيسة الناشئة بعد الصعود، وانها كانت تصلّي مع المؤمنين الأوَّلين. فمن المحتمل، بعد قيامة يسوع والاعتراف به إلهًا، أن يكونوا قد سألوا مريم. من المحتمل ان يكونوا قد طلبوا إليها ان تطلعهم على اختبارها، في الوقت الذي كان الروح القدس يوهب للكنيسة.

«اجل، لا يذكر العهد الجديد أن مريم تكلَّمت على الحبل البتولي. ولكن هناك بعض الدلائل، هذا مثلاً: كتب القديس لوقا مرَّتين: «وكانت

مريم تحفظ جميع هذه الامور وتتأمَّلها في قلبها» (١٩/٢ و ٥١). والحال ان هذه العبارة وردت عدّة مرات في سفر دانيال، للدلالة على وحي يجب حفظه للمستقبل وعلى بلاغ يجب ألاَّ يبلَّغ إلاَّ في وقت لاحق. لقد استوحى القديس لوقا الكثير من سفر دانيال. فحين كتب ان «مريم كانت تحفظ جميع هذه الامور وتتأمّلها في قلبها»، أراد ان يُشعرنا بأنها لم تتكلّم لوقتها، بل لزمت الصمت، ما دام يسوع حيًا، لأن الكلام كان يعود الى يسوع، ان رأى ذلك. ولكن، بعد ان قام يسوع من الموت وأخذت الكنيسة تحيا بالروح القدس، لا نستغرب ان يكونوا قد التفتوا الى مريم للاستفادة من ذكرياتها». وهي التي حفظتها لهذا الوقت أفضت بها الى لوقا.

وحاول أيضًا بعض المفسّرين ان يُدرجوا شهادة الانجيل في إطار تاريخ الديانات، لكي يُظهروا الحبل البتولي بمظهر صورةٍ أخرى لأسطورة شاملة. في الواقع، كانت اسطورة ولادة الولد المخلّص العجائبية واسعة الانتشار. وفي ايامنا، جُدِّدت تلك المحاولة عن يد فرُوْيْد والتحليلِ النفساني. تعبّر تلك الاسطورة عن حنين نجده في البشرية. فالعذراء تجسِّد النضارة والطهارة، والأمومة المُطمئِنة الصالحة. فهل فعل الانجيل غيرَ أنه تبنّى طموح البشرية الغامض الى «البتول الأم»؟

يدلّ الاستقصاء في البحث على ان روايات الطفولة، التي وردت في انجيلي متى ولوقا، لا تتأصّل في تاريخ الديانات، بل في العهد القديم. ولا بدّ من الاشارة، مع الكردينال رَتْزِنْغِر، الى ان هناك فرقًا جذريًا بين الانجيل والروايات الوثنية الخاصة بأسطورة الولادة العجائبية. ففي الروايات الوثنية، نرى ان الاله هو أبو الولد المخلّص بالمعنى الطبيعي والبيولوجي، وأن عمله عمل جنسي اذا صحّ القول، فهو يُنجب ويُخصب، حتى إن الكائن المولود هو نصف إله ونصف انسان.

أمّا في سر التجسّد فالأمر يختلف كل الاختلاف. فليس الله ابا يسوع بالمعنى البيولوجي، كما لو قام الروح القدس بوضع زرع في أحشاء مريم.

وليست بتولة مريم أساس بنوّة يسوع الالهية. وليس يسوع نصف إله ونصف انسان، بل هو إله حق وانسان حق، اي كلّه إله وكلّه انسان.

ويرى الكردينال رَتْزِنْغِر (لكن اللاهوتيين لا يشاركونه جميعًا في هذا الرأي) ان عقيدة ألوهية يسوع لا تكون موضوع خلاف، لو كان يسوع مولودًا من زواج عاديّ، لو حُبل به، كما حُبل بنا جميعًا، عن طريق الاتصال الجنسي بين الرجل والمرأة. الكردينال رَتْزِنْغِر على حق، بمعنى ان الرسل آمنوا بألوهية يسوع بفضل القيامة، اي بمعزل عن الحبل البتولي. لكننا نرى عند آباء الكنيسة، حين يناقشون الهراطقة للدلالة على الوهية المسيح، أنهم يولون الحبل البتولي أهمية كبرى.

مهما يكن من أمر، لا يعني الحبل البتولي، في نظر الايمان المسيحي، أن من سيولَد هو إلهٌ ابنٌ جديد. فإن الذي سيصبح انسانًا هو ابن الله الازلي، اي الله نفسه. وبناء على ذلك، ليس تاريخ الديانات ذلك الاطار الذي يحملنا على القول بأن الانجيل هو مجرد صورة مختلفة لأسطورة شائعة.

الحقيقة ان الله هو أبو يسوع، الله وحده. وليس المسيح ثمرًا من ثمار تاريخ البشرية، ولم يولَد منها، بل هو عطية من العُلى. لا ينبثق من ملك البشرية، بل من الروح القدس. فهو، كما كتب القديس بولس، «آدم الجديد» (١ قور ١٥/٤٧). وآدم هو البشرية. فبالمسيح تبتدئ بشرية جديدة.

ويضيف رَتْزِنْغِر: إن أَضفينا على الحبل البتولي معنى رمزيًا محضًا، ان حذفنا الحدث، كما يفعل كثير من المفسرين في ايّامنا، لا يبقى أمامنا إلاّ كلام فارغ، وندل على قلّة نزاهة.

الحرارة والاعتدال في ايمان الكنيسة

ان قانون الايمان رائع في الاعتدال. فعلينا نحن أيضًا ان نكون شديدي الاعتدال، لا سيّما في كلامنا على مريم. فإن التطرّف والافراط في الكلام

يؤدّيان دائمًا الى الحطّ من شأن ما نريد اعلاء شأنه. بما أن نيتنا حسنة، فإننا نطلق العنان للمخيِّلة ورقّة المشاعر وحتى للفضول. فيُخشى ان ننسى ان الانجيل يفرض علينا، أمام سرّ الله، ان نُميت الفضول والمخيِّلة ورقّة المشاعر، وهي كثيرًا ما تعمل على مستوى البَشَرة وعلى حساب العمق.

ان الاعتدال لا ينفي الحرارة، فإن الألفة الصحيحة تخلو من الجفاف والبرودة. وفي صمت المحبة مديح رائع. فالمديح الذي نوجّهه لأحد يعني أنه جدير بحبِّنا. ولا شك ان هذا الحب قد يكون التعبير عنه بمجرد نظرة ابلغ من التعبير عنه بكلام كثير.

الحرارة والاعتدال: فيهما حياة الكنيسة وعمقها. لا تكون الواحدة من دون الآخر. يعبَّر عن الحرارة بارتفاع الصلاة العفوي المتواصل في شعب الله. أمَّا الاعتدال فهو من خصائص التحديدات العقائدية: عندما يقتضي الأمر، تعبِّر الكنيسة بإيجاز ووضوح عمَّا يجب اثباته، لكي يُقبل النور الآتي من المسيح قبولاً صحيحًا. لو لم تستنر التقوى بالعقيدة، لشقَّ عليها تجنّب الإفراط والتطرّف، وبالتالي الانحراف. ومن جهة أخرى، لو لم تنتعش الصياغة العقائدية بحميّة القلب الحارّة، لأمست جافَّة كالقضية الحسابية، ومجرَّدة وفي آخر الامر عقيمة، فكانت تشبه الحجارة أمام الجياع، بدل ان تكون خبزًا.

ما زالت الكنيسة، منذ بدء تاريخها، تفكِّر في سر المسيح الاله الحق والانسان الحق. فإن التجسّد هو مركز كل شيء وقلب الواقع والحقيقة نفسها، لا سرّ بين سائر الاسرار، بل السرّ.

لكن التفكير في مريم لا يسعه إلاَّ ان يساير التفكير في المسيح. المسايرة: يقال ان هذه الكلمة وردت على لسان المراقبين الآتين من الشرق المسيحي الى المجمع الڤاتيكاني الثاني. كلمة موضِّحة جدًا. فهناك اللحن، وهناك مسايرته. المهمّ هو اللحن، وان كان للمسايرة ايضًا بعض الأهمية، فبالدرجة الثانية وبالنسبة الى اللحن. لا يُستمَع الى المسايرة الموسيقية في حدّ ذاتها وبمعزل عن اللحن، بل في صلته فقط باللحن.

هكذا نظرت الكنيسة دائمًا الى الامور. لقد صلّت الى مريم، وعبّرت تعبيرًا عقائديًا عن عظمة مريم، ولكنها لم تفعل ذلك إلاَّ مسايرةً لصلاتها الى المسيح ولتفكيرها في المسيح. مسايرة ضرورية، لا اعتباطية. كتب الكردينال رَتْزِنْغِر: لا يمكن ان يقوم التعبّد لمريم العذراء على مريميات تكون طبعة ثانية مصغَّرة للمسيحانية. ما زال آباء الكنيسة يرون في مريم العذراء صورة الكنيسة، صورة الانسان المؤمن الذي لا يستطيع ان يحقّق نفسه تحقيقًا تامًا إلاَّ بعطية المحبة، وهي ما يسمّيها علم اللاهوت النعمة. المسيح هو العطية الموهوبة، ومريم هي العطية المقبولة.

الكنيسة تجسِّد عطية الله

إذا كثُر عدد الشباب ، لا بل الاكبر سنًّا ، الذين يطرحون اليوم على انفسهم هذا السؤال : «ألا يمكن الانضمام الى المسيح بدون المرور بالكنيسة؟» ، فذلك ان الكنيسة تبدو ، ولا شك ، عقبةً تحول دون الايمان. يرغبون في محبة المسيح وانجيله ، ولكن بمعزل عمًّا يسمّونه «النظام» ، اي المؤسسات البابوية والابرشية والقانونية والاخلاقية والاسرارية الخ ، التي تُثقل كواهل كثير من المؤمنين كالغُلّ او كغفَّارة الرصاص.

تجسيد عطية الله

لا نذهب نحن الى الله ، بل الله يأتي الينا

أيمكن الذهاب الى الله بدون المرور بالكنيسة؟ هذا السؤال يُخفي فخًّا. ففي الديانات غير الديانة المسيحية ، يدور الكلام على الذهاب الى الله : فقد شعر الناس منذ القدم بأن وراء العالم كائنًا متعاليًا قديرًا ، وقد حاولت الديانات ان ترفع الانسان ليذهب الى ذاك الإله او تلك الآلهة. قد نستطيع نحن أيضًا ان نحاول الارتفاع الى الله ، كما نرتفع الى مثال أعلى. للفنّان مثل أعلى جماليّ ،

وللعالِم مثل اعلى علمي ، ولرجل السياسة مثل اعلى سياسي . وكذلك في الدين مثل اعلى ديني .

ولكن ، ان كان المقصود هو تأليه البشرية ، وإن كان ذلك موضوع ايماننا وطرافة الدين المسيحي ، فلا يُطلب من الانسان ان يذهب الى الله. ليس من الوارد ان يؤلِّه الانسان نفسه ، اذ ليس لذلك ايّ معنى على الاطلاق . ان الله هو الذي يأتي . وما من طريق ينطلق من الله ويصل الى الله. اين تريدون الذهاب؟ الى اين تريدون الصعود في سلّم من حِبال؟ هناك طريق ينطلق من الله ويصل الى الانسان ، ويسمّى الكنيسة. فالكنيسة هي الطريق الذي يستخدمه الله ليلحق بنا . وهو لا يريد ان يؤلِّه الأفراد ، كل واحد بمفرده ، بل البشرية كلها . ان الله يهب نفسه ، والكنيسة تجسِّد عطية الله هذه في التاريخ . انها قسم البشرية الذي يتقبَّل على وجه منظور عطية الله. أُضيف ان مريم العذراء وحدها هي الكنيسة كلها ، حين قالت « نعم » لله . قبل ان تكون الكنيسة مؤسَّسة ، فهي تقبُّل يسوع المسيح واتّحاد الذين يتقبّلون يسوع المسيح .

وهذا امر جوهري . في الخطبة بعد العشاء السرّي (يو ١٣/٢٣) ، لا يقول يسوع ابدًا : « إصعدوا الى الله» ، بل « أنا والآب نأتي اليكم فنجعل لنا عندكم مقامًا » . سُكنى الله بين البشر . وحبّ الكنيسة هو حبّ تحرُّك الله نحونا ، هو حبّ استعجال الرب الينا (راجع مثل الابن الضال) ليذهب بنا ويحيينا بحياته . اجل ، في امكاننا ان نحول دون مجيء الله هذا . يبقى ان الله هو الذي يأتي . ليس جامدًا في ازليته ، بل هو حيّ . والحال ان الحياة هي حركة ، والحياة في الله هي تحرّكه نحونا . علينا ان نتصوّره دائمًا ممدود اليدين نحونا ومُسرعًا ليلحق بنا .

الانتماء غير المنظور الى الكنيسة

فما شأن الذين لا يعرفون الكنيسة؟ هل هم ينالون الخلاص ؟ المقصود ان نعرف لأي سبب يرفضون الكنيسة . من الأرجح أن معظمهم يرفض الكنيسة

لأسباب وجيهة، اذ انهم لا يرون فيها تجلّي يسوع المسيح، بل منظَّمة تبدو لهم في انحطاط. يشعرون بأن الكنيسة هي مكان جميع الخرافات، ويعتقدون (وليسوا دائمًا على خطأ في ذلك) بأنها حليفة قوى هذا العالم الخ، وبكلمة واحدة لا يرون في الكنيسة إلاَّ صورة ساخرة. لا يخفى عليَّ أننا كثيرًا ما نعرّض انفسنا للصورة الساخرة، فعلينا ان نعترف بذنبنا.

لا شك ان الملايين من الناس، ممَّن لا يعرفون الكنيسة او مِمَّن يعرفونها ولكنهم لا يريدون ان يسمعوا ذكرها للأسباب التي ذكرتها، ينتمون الى الكنيسة بوجه غير منظور، اي انهم ينالون الخلاص ويؤلَّهون، ويرثون الحياة الأبدية كما نرجو ان نرثها (المشاركة في حياة الله نفسها)، بقدر ما يسمعون لضمائرهم. الله وحده يعلم هل ينتمي احد أم لا ينتمي الى الكنيسة بوجه منظور، وليست لي على الاطلاق كلمة الفصل. قال القديس اوغسطينس: «هناك من يعتقدون بأنهم في الداخل وهم في الخارج، وهناك من يعتقدون بأنهم في الخارج وهم في الداخل». المطلوب ان نعرف هل جميع اولئك الناس الذين نسمّيهم غير مؤمنين، إن عُرضت لهم الكنيسة في صورتها الحقيقية، اي بصفتها علامة تأليهنا التاريخية، ينضمون اليها ام لا.

فالافضل ألاَّ نقول إن هناك كنيسة منظورة وكنيسة غير منظورة. ليس هناك إلاَّ كنيسة واحدة وهي منظورة. وكيف لا تكون منظورة، وهي علامة تأليهنا؟ فالعلامة منظورة طبعًا. يمكن القول بأن هناك اناسًا ينتمون الى الكنيسة بوجه منظور وان هناك غيرهم ينتمون إليها بوجه غير منظور. فالتسعمائة مليون صيني ينالون الخلاص، اي أنهم يؤلَّهون، بواسطة الكنيسة التي لا يعرفونها، شرطَ ان يكون نشاطهم مؤنَّسًا في الحقيقة. وبعبارة أخرى، لو لم تكن الكنيسة، لَما كان هناك خلاص.

ليست الكنيسة مؤسسة تتحكّم من الخارج في حياة المسيحيين، كمنظَّمة ذات قوانين وقواعد وبرنامج يجب الموافقة عليها قبل الانضمام اليها، بل الكنيسة هي ما ينقل إلينا الحياة الالهية، ما ينقلها الينا وما ينظّمها على السواء. تحتاج

حياتنا في آن واحد الى الإنعاش والتقوية والتنظيم. فإن غابت القواعد، يُخشى ان يؤدّي مجرّد الدينامية الى أسوأ الانحرافات. وان لم يكن هناك إلاّ القواعد والقوانين والانظمة وغابت الحياة وغاب الاندفاع، وقعنا في النزعة الشرعوية، وهي لا تلبّي أية حاجة من حاجاتنا العميقة. الجوهر هو الحياة، هو الينبوع.

والحال ان الينبوع هو المسيح. لا صلة لنا بالله إلاّ عن يد المسيح، ولا صلة لنا بالمسيح إلاّ عن يد الكنيسة. جميلٌ ان يرغب الانسان في التخلّي عن الكنيسة، ان يرغب في الذهاب الى يسوع المسيح بدون المرور بالكنيسة، ولكننا مِن «امّنا الكنيسة» نتعلّم مَن هو يسوع المسيح. لا تخلو الكنيسة من بعض النقائص والاخطاء التي تؤلمنا، كما نتألّم من نقائص أمّنا. ولكن كيف نعرف، من دون الكنيسة، ان الله محبة وأنه تجسّد؟ ازيلوا الكنيسة، فلن يعرف أحد، بعد عشرين سنة، ان الله يهب نفسه، لن يعرف احد ان معنى الحياة هو المشاركة في حياة الله نفسها للأبد. اجل، قد نجد في الكنيسة طرقًا تربوية كثيرًا ما تخطّاها الزمن، وبنياتٍ لا بدّ من تغييرها، وربّما من أوّلها الى آخرها. ان الكنيسة تحتاج الى اصلاح دائم، كما جاء في المثل السائر. إلاّ ان التعليم في جوهر الاشياء، أعني أن هناك انسانًا إلهًا وأنّنا نؤنّس ونؤلّه فيه على وجه تام، يأتينا عن يد الكنيسة، ولا اقول التعليم وحده، بل حياة المسيح نفسها عن طريق الاسرار.

فليست الكنيسة، كما يظنّ بعض الناس، ضرورة تربوية انتقالية، تشبه سلطة الوالدَين التي ينفصل عنها الانسان كلّما تقدّم في الحياة، بل العكس، فكلّما تقدّم الانسان في الحياة، اقتربت منه الكنيسة، لأنه بها يتقدّم وهي التي تمكّنه من التقدم. اليكم تشبيهًا: الانسان مُمَغْنَط بالله الذي يأتي ويجتذبه الى نفسه، وقوة التَّمَغْنط هي الكنيسة. فمن ترك الكنيسة ترك المجال المغنطيسي.

وبناءً على ذلك، ليست الكنيسة، كما يظنّ بعضهم، نوعًا من الوسيط بين الانسان والله، يحول دون الاتصال المباشر. ليست وسيطة على مثال الدولة التي تتوسّط بين دولتين تتعارض وجهتا نظرهما، للتقريب بينهما والتوصل الى

التوفيق بينهما. لا تقف الكنيسة في مكان وسط بين الانسان والله، فهي مفتاح الاتصال. وهي، اذا صحّ التعبير، الضوء الذي بفضله يتمّ الاتصال المباشر بين الانسان والله في المسيح. ولا بدّ لنا، ان اردنا التعمُّق في معنى الكنيسة، ان نعرف ما هو أصلها الثلاثي.

أصل الكنيسة الثلاثي

الأصل التاريخي

نشأت الكنيسة من الايمان بقيامة يسوع ومن اخلاص المؤمنين للدينامية التي احدثتها هذه القيامة. القناعة الأولى التي عاشت بها الكنيسة القديمة هي ما يلي: المسيح قام من الموت وهو حيّ أبدًا. وجميع الذين شاركوا في هذه القناعة استخلصوا نتائجها تدريجيًا: ظهر في يسوع تخطٍّ جذري للامكانيات البشرية: إنه سيّد جامع، إنه مَن يمكن ان يُقال فيه ما كان يقال في الربّ في العهد القديم: «القدّوس»، انه مَن لنا به وفيه صلة بالمطلق الحيّ. والواقع التاريخي الذي لا يمكن التهرّب منه هو شهادة الرسل المرتبطة بنشأة الكنيسة.

والكنيسة هي الرغبة في المحافظة على تلك الشهادة في جماعة تنظّم امورها. ففي وسط المحيط اليهودي، يبدو الواقع المسيحي نشوء شيء جديد على الاطلاق. كانت المسافة بين الله والانسان لا تُعبَر، في نظر العقلية اليهودية، وكان اليهودي يشعر بشيء من الانبهار أمام تعالي الله. وها إن اناسًا أخذوا يقيمون شعائر العبادة ليسوع الناصري. والذين عرفوه كانوا يقولون فيه إنه «ربّ ومشيح» (رسل ٢/٢٦ و٤/٢٦) و«سيّد الحياة» (رسل ٣/١٥) و«سيّد ومخلّص» (رسل ٥/٣١) و«ربّ الناس أجمعين» (رسل ١٠/٣٦) و«ديّان الأحياء والاموات» (رسل ١٠/٤٢) و«نور الأمم» (رسل ١٣/٤٧).

لقد وُجد أُناس كانوا بالامس قليلي الايمان وحائرين ، فأخذوا يشهدون في المكان نفسه ، في اليوم التالي من الحدث او تقريبًا ، لرجل يسمّى يسوع رآه جميع الناس يموت على خشبة الصليب والعار ، يشهدون له أمام قضاته ، غيرَ خائفين من انفجار غضبهم ، ويؤكّدون ان ذلك الميت لا يزال حيًّا وأنه ربّ مجد الله . ولم يستطع الرسل ألاَّ يؤدّوا هذه الشهادة : « أمّا نحن فلا نستطيع السكوت عن ذكر ما رأينا وما سمعنا » (رسل ٤/٢٠) . واكتشف اعضاء هذه الجماعة ان تعالي الله الذي تجلّى في يسوع يفترض ان تكون رسالته شاملة على الاطلاق . فالناس جميعًا مدعوّون الى تكوين شعب الله .

اصل الكنيسة في الله

لكلمة بدء معنيان : الاصل والنشأة . ولا بدّ من التمييز بينهما . فأصل الولد هو الحَبَل به ، في حين ان نشأته هي يوم مولده . الاصل هو البدء الأوَّل ، الاصلي ، الذي لا يُرى ، في حين ان النشأة هي البدء الذي يُرى والصريح والظهور الذي يُرى . فكَّرنا ، قبل لحظات ، في نشأة الكنيسة . كما ان كل واحد منَّا يقول : انا وُلدت في المدينة الفلانية وفي اليوم الفلاني وفي الساعة الفلانية ، تقول لنا الكنيسة : انا وُلدت في الفصح وفي العنصرة ، لكن اصلي (الحَبَل بي) هو في الله ، في « السرّ المكتوم في الله » (اف ٣/٩) .

صار الله مسيحًا لكي يصير المسيح كنيسة . وبعبارة أخرى ، لا ينتهي التجسّد الى شخص المسيح . فلا وجود للمسيح إلاَّ لكي تصبح البشرية كلها مسيحًا . وما يهدف الله إليه في ازليته هو الاتحاد بالبشرية كلها ، هو ذلك الاتّحاد الذي نسميه الكنيسة .

لاحظوا أن ترتيب التنفيذ هو عكس ترتيب القصد . القصد الالهي الازلي هو جماعة جميع الناس المؤلَّهين ، ما يسميه الأب تيّار دي شردان « النقطة اوميخا » . ومن هنا نشأة تنفيذ تدريجي : خَلْق المادة ثم الحياة (النباتية ثم الحيوانية)

ثم الانسان ثم مجيء المسيح ثم نموّ الكنيسة التي هي تجسيد عطية الله او دعوة الانسان الى تقبُّل عطية الله.

إيَّانا ان نقول للناس المستقيمين الذين ليسوا مسيحيين: «انتم مسيحيون ولا تشعرون». هذا كلام ولا أزعج لهم، وهو تلاعب على الالفاظ. لكلمة «كنيسة» ثلاثة معانٍ:

– ما هو أوَّلي في التدبير الالهي: تجمُّع الجماعة الأخير (الأبدي) في المسيح
– الانتماء غير المنظور الى الكنيسة المنظورة
– الكنيسة المنظورة نفسها

المؤمنون وحدهم يستطيعون ان يفهموا المعنيين الاوَّلَين. فالافضل ان نستعمل، في كلامنا على هذين المعنيين الاوَّلين، كلمة ملكوت. أَمَّا المعنى الثالث، فهو الذي يثير الشكاوى وانواع عدم التفهّم، بقدر ما تبدو الكنيسة حجابًا لا علامة.

اصل الكنيسة في الانسان

هناك توافق عميق بين ما تريد الكنيسة ان تعنيه وما هو الانسان في صميم كيانه. فما تقترحه الكنيسة هو في قلب الانسان كأمنية اساسية. ولو كانت الكنيسة غريبة عن الانسان بوجه من الوجوه، لما كانت سوى رقعة اضافية لا فائدة فيها. فالانسان كائن علائقي ذو بُعدَين، الواحد افقي والآخر عمودي. علاقته مع العالم ومع الآخرين علاقة جوهرية، وبدونها لا وجود له. ماذا يكون ولد بدون والدَيه؟ ان الانسان يبحث بوَلَه عن الاتصال بالآخرين (في الرفقة والصداقة والأخوّة والحب الخ).

لكن علاقته بالله ليست جوهرية بقدر اقل. وحين يفكّر كل منّا، لا يمكن ألاَّ يوافق على ما يلي: «لستُ ينبوع نفسي، ولست مركز توحيد جميع الضمائر، ولا أستطيع أن اكون مبدع الاتحاد الشامل الذي يطمح إليه جميع الناس، على عِلم منهم او على غير علم. لا بدّ لاتحاد البشر الأخوي ان يقوم على

أساس ، كما يقوم وجودي على أساس » . « يشعر » الانسان ، بوجه اعمق من كل « دليل » عقلي على وجود الله ، بأن معنى حياته ، وإن كان عائدًا إليه (إنه خالق) ، يعود الى آخَر ، الى المطلق الحيّ الذي هو أساس وجوده .

تظهر الكنيسة (لا صورتها الساخرة ، بل كما يريدها المسيح) بمظهر تحقيق ذلك البُعد المزدوج : اتحاد الانسان بالله ، واتحاد البشر بعضهم ببعض . فهي تقول لنا : انتَ قابل التأليه ، والله يجتذبك الى صميم كيانه ، وخط رحلتك الشخصي الى الله يسير موازيًا لاتّحادك بالبشر . لا ينفصل « العمودي » عن « الافقي » . فهذا يتأصل في ذاك . والكنيسة هي الصورة التاريخية التي تظهر فيها طبيعة الانسان نفسها .

تشوّهها جميع خيانات المسيحيين ، فتُثير خيبة الامل بقدر ما هي ليست علامة المسيح . وهذا ما يفسّر انواع الشرود التي يبحث بها كثير من الناس عن المسيح خارج الكنيسة كما يرونها . فإن الانسان ، وهو لا يستطيع ان يستغني عن الكنيسة من دون ان يُنكر ما يكوّنه في الاساس ، يبتدع ابدالاً عن الكنيسة ، فيجعل من الجنس أو المال او المخدّرات او « الجنّات الاصطناعية » مطلقًا ووسيلة للتجميع . لكن فوضى التاريخ تحمل الكنيسة على تلك النهضات ، فتخرج منها مجدَّدةً ، وعارضةً للعالم ، على وجه اكثر اصالة ، وجه المسيح .

سرّ المحبة

ان اردنا ان ننفذ الى سرّ الكنيسة في حقيقته العميقة ، وهي المسيح القائم من الموت والواهب لنا روح محبته ، وجب علينا ان نُدرك انْ لا فرق بين الجملة الاساسية التي قالها يسوع « اذا أحب بعضكم بعضًا ، عرف الناس جميعًا انكم تلاميذي » وما نقوله في قانون الايمان « نؤمن بكنيسة واحدة جامعة مقدّسة رسولية » . فإن الحب كلمة مبهمة جدًا ، عاطفية ، معرَّضة للسطحية . فلقد

ينخدع الانسان في ماهية الحب الحقيقي. نستخلص من علامات الكنيسة او ميزاتها الاربع أن عليها ان تحيا بالمحبة وان تعمل على تجميع البشر في المحبة، لأن من قال ان الكنيسة واحدة جامعة مقدسة رسولية قال إنها سر محبة.

واحدة

المحبة وحدها توحِّد. يجب البدء دائمًا بالعدل، فإن المحبة تكون وهمية، ان لم تزدهر على أساس العدل. لكن العدل قد لا يزيل الانفصال، فيكون هناك احترام متبادل، من دون ان يتوفَّر الاتصال المتبادل. لا وجود لجماعة أصيلة، ما لم تلتحم بالمحبة.

حين يقول لنا المسيح: «ليحبَّ بعضكم بعضًا كما أحببتكم»، لا يستخدم مجرَّد تشبيه، بل يعني بقوله: ليحبَّ بعضكم بعضًا بالمحبة التي أحبّكم أنا بها. والحال ان هذه المحبة ليست بعاطفة، بل هي شخص حيّ، وهو الروح القدس الذي يجسّد، في الثالوث الاقدس، الوحدة بين الآب والابن، والذي هو رباط المحبة بينهما. يوهَب لنا في سر المعمودية وكلَّما تناولنا القربان المقدس، لتكون لنا في انفسنا قوة تذليل العقبات التي تحول دون المحبة. لكننا نقاومه ولا ندعه ينتشلنا بسهولة من الانانية التي تفرّق وتقسّم. ولذلك تبقى وحدة الكنيسة غير كاملة الى حد بعيد.

ولكن تلك الجماعة المثالية، التي قد تكوّنها الكنيسة في عالم لا يعرف الخطيئة، لا وجود لها، فهي تسير نحو الوحدة. مشيئة الله ان يكون العالم كله على صورة الثالوث الاقدس، وان يكون جميع البشر واحدًا في المحبة، على صورة وحدة الثالوث الاقدس. لم تتمّ الوحدة، بل يجب صَنعها.

وهذه الوحدة لا تنفي بعض الاختلاف في الوظائف والمدارس اللاهوتية والروحانيات الخ، لأن الوحدة الحقيقية لا تقوم على التشابه، وهذا شأنها في الثالوث الاقدس. فالأمانة لوحدة الزيّ لا تعني ان ترتدي جميع النساء لباسًا موحَّدًا! وليس اختلاف الرجل عن المرأة واختلاف المرأة عن الرجل سببًا لعدم

وجود الوحدة في العائلة . فالوحدة هي فيها وهي ثمر المحبة ! ولذلك يجب الحذر من روح التعصّب . ولا تُفسخ الوحدة إلاَّ اذا أمست الاختلافات عقبات تحول دون الحوار .

مقدّسة

لا تعني كلمة « مقدَّس » قداسة الاشخاص البشريين اولاً ، بل قداسة المسيح . فالكنيسة مقدَّسة لأن المسيح قدُّوس . والمسيح هو الذي يأتي ، الى عالم خاطئ ، بقداسة الله ، او بعبارة اخرى ، بالمحبة الصافية . في العهد القديم ، تُطلق كلمة « قدّوس » على الله وحده (هكذا في نشيد أشعيا ٦/٣ : قدّوس ، قدّوس ، قدّوس الرب . ويُعلن نشيد مريم : قدّوس اسمه) . ان الله هو «القدّوس» . ولذلك ، حين وُصف يسوع بقدّوس ، اصطُدم اليهود ، لانه للمرة الاولى جرؤ أحد في اسرائيل على تسمية انسان بهذا الاسم الخاصّ بالله . وفي وقت لاحق ، سُمِّي المسيحيون أيضًا « قدّيسين » .

فليست كلمة مقدَّس (أو قدِّيس) مرادفًا لكلمة كاملٍ او حكيمٍ او بطلٍ أظهر كثيرًا من الشجاعة ، بفضل مروره بظروف استثنائية . فالقديسون هم الذين يحيون بحياة إلهية ، لأن جوهر ايماننا هو ان جميع البشر مدعوّون الى المشاركة الأبدية في حياة الله نفسها ، والى المحبَّة كما هو أحبّ . فهناك اتّحاد خفيّ بين المقدَّسين او المؤلَّهين . قلت : خفيّ ، لأن الآراء تختلف في معرفة من هو مؤلَّه وبأي قدر .

ان قداسة الكنيسة هي القدرة على التقديس او التأليه ، التي يمارسها الله بالرغم من خطايا البشر . استعمل كارْلْ راهْنِر هذه العبارة : « كنيسة الخاطئين المقدسة » . فمن قال إن الكنيسة مقدسة ، قال إن فيها ، في آنٍ واحد ، امانة الله وعدم امانة البشر ، وإن الله يبقى أمينًا بالرغم من عدم امانتنا . وما نجده غريبًا جدًا حين نُفكّر فيه هو ان الله يختار « أيديًا قذِرة » (اشارةً الى عنوان احدى تمثيليات بولس سارتر) وعاءً لحضوره وعمله .

لا تناقض بين قداسة الكنيسة وحقارتنا، بل العكس، فإن قداسة الكنيسة تسطع في كونها لا تُدنَّس عن طريق الاتّصال بنا نحن الخاطئين. عاشر يسوع «الخاطئين» من اوّل حياته الى آخرها، وكان يأكل معهم ويرتاح الى رفقتهم. ولم يوجد فيه ايّ موقف متصلّب قاطع: «ما جئت لأدعو الابرار، بل الخاطئين» (متى ٩/١٣) و«جئت لأبحث عن الهالك فأخلِّصه» (لو ١٩/١٠). فلو كانت الكنيسة تُبعد عن حضنها الفاترين والمقصِّرين والخاطئين، مقتصرةً على الاطهار، لما كانت مقدّسة. تصوَّروا كنيسة تكون مجتمع الكاملين، فكيف تبقى متواضعة؟ لو أفسدت الكبرياء الكنيسة، لما كانت علامة إلهٍ لامتناهٍ في التواضع. فما مِن نقصٍ شرّ من الاعتقاد بالوصول الى الكمال.

علينا نحن ان نوفِّر القداسة للكنيسة. فما هي الكنيسة إلاَّ نحن جميعًا؟ ان قلنا إن الكنيسة هي غير مقدسة، عنينا أننا نحن غير قدّيسين، ما لم تزالوا تخلطون، على مثال بعض الناس، بين الكنيسة وسلطتها الكنسية. السلطة الكنسية وظيفة في الكنيسة، والعلمانيون هم وظيفة أخرى: والقداسة مطلوبة منها ومنهم.

جامعة

معنى هذه الكلمة شاملة. وكيف يكون الأمر على خلاف ذلك، علمًا بأن الكنيسة هي المكلَّفة بتجسيد محبة الله؟ لا يمكن ان تكون عطية الله خاصّة، فهي لجميع البشر في جميع الازمنة وجميع البلدان. وكما أن المسيح هو سرّ الله، اي الله نفسه منظورًا، فالكنيسة هي أيضًا سر المسيح لجميع البشر.

لا نعتقدْ بأن شمولية الكنيسة شمولية جغرافية. فالكنيسة هي جامعة بمعنى انها قادرة على الربط، في يسوع المسيح، بين جميع الأمم والعروق والثقافات والحضارات، وهذا المعنى اعمق بكثير. «كانت الكنيسة جامعة منذ صباح يوم العنصرة، لمَّا كان جميع اعضائها مجتمعين في قاعة صغيرة، وكانت جامعة يوم

كانت الأمواج الأريوسية تبدو أنها ستغمرها، وستكون جامعة غدًا أيضًا ان كادت الارتدادات الضخمة عن الايمان ان تُفقدها جميع مؤمنيها» (هـ. دي لوباك).

والكنيسة جامعة لأنها تستطيع وحدها ان تكشف للبشر عن معنى حياتهم. انها قدرة تأتي من الروح القدس، وهي تلبّي حاجات جميع البشر الحقيقية، أيًّا كانت. ان اراد أحد ان ينتمي الى الكنيسة، فليس عليه ان يتخلّى عن أيّ شيء جوهري، لكن الأمور تبدو في الواقع، مع الاسف، شديدة الاختلاف. لقد تجوَّلتُ في الكاميرون والتشاد والجمهورية الافريقية الوسطى، فكنتُ أرى، مع الاسف، كثيرًا من الكنائس مبنيَّة على الطراز الاوروبي، مع ان هناك فنًّا زنجيًّا رائعًا!

تعرفون ما جرى للآباء اليسوعيين في الصين في القرن السابع عشر، وما كان من امر الأب ريتشي. كانوا علماء فلكيين، ففهموا من ساعتهم عن الأدباء الصينيين. ولقد رحَّبت بهم الطبقات الشعبية، لأنهم كانوا يعرفون لغة البلاد. وتجنَّبوا فرض الطقوس الغربية على الصينيين. لكن رومة، لأسباب شتّى، شجبت هذه الطريقة، مع الأسف. اذا صحّ أن في نفوس الصينيين، كما في نفوس جميع البشر، استعدادًا لتقبّل المسيح، فليس فيها ايّ استعداد لتقبّل الثقافة الغربية. لماذا تريدون ان يتخلّى الصينيون عن تهذيبهم الرفيع وفنّهم وموسيقاهم؟ لا يحتاج الذي يريد ان يصبح مسيحيًا الى الإعراض عن الثروة الانسانية الصحيحة، بل الى العكس، فإن الكنيسة هي جامعة، اي انها قادرة، بالرغم من اخطائها، على الترحيب بجميع الثروات الانسانية، لكي يؤلِّهها المسيح.

رسولية

حين نقول إن الكنيسة رسولية، نعني أن كنيستنا اليوم وكنيسة الرسل كنيسة واحدة، بالرغم من الفوارق التي قد تكون كثيرة على مستوى الصيغ

والأشكال الخارجية. إنها امينة للمسيح الذي أسَّسها، عَبرَ جميع تقلّبات التاريخ. منذ زمن الرسل حتى ايامنا، قامت بخدمة البشرية، مربّيةً أيّاها على اصول المحبة. كانت الكنيسة مؤلّفة في البدء من الرسل الاثني عشر (وهذا رقم يطابق اسباط اسرائيل الاثني عشر، اي شعب الله كله). وبعد الصعود، لم يعد المسيح منظورًا، لكنه بقي حاضرًا وعاملاً. وهو يتصل بنا اليوم على وجه غير منظور بروحه وعلى وجه منظور بخلفاء الرسل والاسرار.

يجب ان تكون الكنيسة جماعة تسود فيها المحبة ولا تكون فيها أية وظيفة ذات سلطة. هذا هو مثلها الأعلى وهكذا ستكون في ملكوت الله. ففي السماء لا تكون أية سلطة كنسية ولا بابا ولا اساقفة. لكننا اليوم في عالم خاطئ، فالكنيسة هي جماعة محبة لها حتمًا وجوه مجتمع. وهناك، في الواقع، ثلاث درجات من التجمّعات البشرية:

- الجَمْع او القطيع: تسوده القوة وشريعة الغاب.
- واذا نُظِّم الجمع، أصبح مجتمعًا. فيحلّ الحق محلّ القوة، ولا بد من قوّة لحمل الناس على احترام هذا الحقِ او هذا النظام القانوني.
- الجماعة أخيرًا، حيث تسود المحبة التي يقوم عليها الاتحاد الاخوي.

لا نَنْسَ أن القوة لا تُلغى، حين يتمّ الانتقال الى الحق، وان الحق لا يُلغى حين يتم الانتقال الى المحبة. وإلاّ لتصوّرنا انفسنا في الفردوس! ولا يمكن ان تكون هناك أية حياة، ان لم تؤخذ بعين الاعتبار تلك الصلات بين القوى الباقية.

وفي الكنيسة كما هي، لا بدّ ان يكون هناك حق وسلطة وادارة الخ، وإلاّ لعشنا في عالم احلام! لكن يُخشى ان تشوّه جميع المناقشات الحالية، ان عُدَّت الكنيسة مجرّد مجتمع او مؤسسة عادية. فالمشاكل البِنْيَوية، التي هي حقيقية والتي لا بد من البحث فيها عن كثب، يجب ان يُنظر اليها في صلتها بمطلق المحبة، علمًا بأن الكنيسة هي تجسيد لهذه المحبة في التاريخ.

فرح الإيمان

بهجة الحياة

محاضرات في أهمّ قضايا الإيمان المسيحيّ

الأب فرنسوا ڤاريّون اليسوعيّ



القسم الثالث : المسيح الإله الحق والانسان الحق يكشف من هو الله ومن هو الانسان

القسم الثالث

المسيح الاله الحق والانسان الحق
يكشف من هو الله ومن هو الانسان

المدخل

يخاطر المسيحيون بالقول إن يسوع المسيح هو إله حق وانسان حق ، وهذا القول هو جوهر ايمانهم . تستهوينا أحيانًا فكرة طرح السؤال التالي بألفاظ تصوُّرية أوَّلاً : كيف يمكن ان يكون الله انسانًا وان يكون الانسان إلهًا ؟ لا بدّ من مقاومة هذا الإغراء ، فما هو الانسان ومن هو الله؟ لا نعرف الجواب إلاَّ بالانسان الاله : فهو الذي يكشفه لنا . فلا بدّ من التخلّي عن التفكير في ماهية الانساني والإلهي في مرحلة أولى ، لمحاولة التوفيق بينهما في مرحلة ثانية ، والوصول الى تحليل امكانية الانسان الإله . ومع ذلك ، فإن الكثير من الناس أَلِفوا هذا الاسلوب في التفكير . ولا عجب ان يؤدّي الى طرق مسدودة . لا شك ان العلوم الانسانية تفيدنا بعض الشيء عن الانسان ، وان البحث الفلسفي يفيدنا بعض الشيء عن الله . لكن وجود الانسان الاله هو الذي يحملنا على الاعتراف بعدم تناقض إمكانية أن يتّخذ الكائن المطلق صورةً في عالم النِّسبي (عالمنا) من دون الكفّ عن ان يكون المطلَق ، ان يصير الله انسانًا من دون الكفّ عن ان يكون إلهًا . لا نستطيع ان نبني علمًا في المسيح انطلاقًا من علم في الله وعلم في الانسان يكونان سابقَين له ، بل يجب أن يجد اللاهوت (العلم في الله) والانتروبولوجية (العلم في الانسان) أصلهما في المسيحانية (العلم في المسيح) .

كيان يسوع المسيح انفتاح تام . نقول على السواء إنه ابن وكلمة . فهو كلّه ابن وكلّه كلمة . والكلمة لا بقاء لها أبدًا في حد ذاتها ، فهي تأتي من احد وهي

كلمة أحد. وهكذا فإن ابن الله هو ابن أحد، ابن الآب الذي عليه يقوم وجوده. والكلمة تُقال لتُسمَع، فهي موجَّهة الى آخرين. وهكذا فإن كلمة الله يُلفظ ليُسلَم الى البشر. من قال إن كيان يسوع المسيح انفتاح تام، قال إنه كلّه «انطلاقًا من الآب» و«لأجل البشر»، وقال إنه محبّة، لأن المحبة هي ان يكون أحد معلّقًا بين قُطبَين، قطب التقبُّل وقطب العطاء. والتقبُّل هو ان «يكون أحد بالآخَر»، والعطاء هو ان «يكون أحد لاجل» الآخَر او الآخرين. فيجب ألاَّ نقول إنَّ في يسوع المسيح محبَّة، بل إنه محبَّة. لكن الله وحده محبَّة. فاذا كان يسوع محبَّة، وجب الاعتراف بأنه إله، إله كابنٍ كامل البنوّة، كابنٍ وحيدٍ لله، كإله حق.

لكنه انسان حق أيضًا. فاذا كان يسوع كله ما يعمله، واذا كان كله في ما يقوله واذا كان ما يقوله، واذا كان كله لاجل الآخرين، كان أشدّ البشر انسانية، وكان كمال الانسانية، وكان في الحقيقة الانسانَ الوحيد على وجه تام ومطلق، ذاك الذي نبدو بالقرب منه بِدايات انسان، وأُناسًا في الطريق الى الانسانية. إنه ما يجب ان نصير، انسان حق.

في نظرنا، «العُقاب هو في المستقبل»، كما كتب الشاعر رنيه شار بإيجاز ساطع. المقصود هو الانسان كما يجب ان يكون. والمسيح هو هذا الانسان. ولذلك سمَّاه بولس «آدم الجديد» او «آدم الآخَر» (١ قور ١٥/٤٥)، اي الانسان النموذجي، الانسان المثالي. يكون الانسان انسانًا بقدر ما لا ينطوي على نفسه، بقدر ما لا يكون محدودًا. تمَّ الانتقال من الحيوان الى الانسان، او الانتقال من الحياة الى الروح، لمَّا استطاع كائن ارضي وترابي ان يرفع نظره الى ما أبعد من نفسه ومحيطه، وأن يقول «أنتَ» لله. ما يجعل الانسان انسانًا هو الانفتاح للكلّ، لِلاَّنهائي. لكن الانسان يكون انسانًا على وجه تام، لا حين يتّصل باللاَّنهائي فقط، بل حين يكون واحدًا معه. ويسوع المسيح هو الانسان الذي هو واحد مع الله.

أُضيف هذا: اذا كان انسان واحدًا مع الله، فذلك ان جميع البشر

يستطيعون ان يصبحوا واحدًا مع الله. دعوة كل انسان هي ان يصبح ما هو يسوع المسيح. ليس يسوع المسيح شذوذًا في البشرية، بمعنى أنه أمر في منتهى الغرابة يدلُّنا الله فيه على سعة قدرته. فوجود الانسان الاله يعني البشرية كلها. في الكتاب المقدس، تعبِّر كلمة «آدم» عن وحدة الحقيقة البشرية كلها. واذا سمَّى بولس المسيح «آدم الجديد»، فلكي يعني ان البشرية كلها مجتمعة فيه. إنه رأس جسد نحن اعضاؤه.

اللّه الثالوث : أعماق إله ما هو إلاّ محبّة

كتب الأب بوكِل ، خوري كاتدرائية ستراسبورغ ، أنه اصطُدم في اثناء محاضرة ألقيتها في ستراسبورغ ، لأني طرحت هذا السؤال بمنتهى الصراحة : «لو قالت لكم الكنيسة ، بفرض المستحيل ، إن الله اقنوم واحد ، لا ثالوث ، أيَّ تغيير يُحدث هذا القول في حياتكم؟» . اضاف الأب بوكل أنه ادرك ، في ذلك الحين ، أن الدين المسيحي ليس بفلسفة ، او بمجموعة حقائق ايمانية تشكّل فيما بينها نظامًا يشبه نظام كانْت او برغسون ، بل أن جميع العقائد لها تأثير عملي .

لو لم يكن الله ثالوثًا ، ارجِّح اني لكنتُ ملحدًا . لست متأكِّدًا على الاطلاق من الأمر ، لأنه يصعب عليَّ وضع نفسي في هذا الافتراض . على كل حال ، ان لم يكن الله ثالوثًا ، عُدتُ لا افهم شيئًا .

قدرة الله قدرة المحبة

هل نقول بهدوء ، نحن المسيحيين ، كأمرٍ طبيعي ، إن الله قدير ، أم نشعر ، على العكس ، بشيء من الانزعاج ، حين نلفظ هذه العبارة؟ أظن أن الكثيرين لا يستصعبون هذا القول : إذا كان الله إلهًا ، فكيف لا يكون قديرًا؟ لكن هناك أُناسًا آخرين يزداد عددهم في هذا الزمن المتأزّم الذي نجتازه ، يعتقدون بأن القول بقدرة الله أوجه أسباب عدم الايمان .

إيَّانا ان نستخفّ بموقف اولئك الناس ، فإنّهم يرون من الأكرم للإنسان ، من الأحق بالتالي ، ان تكون السماء فارغة ولا ان يكون هناك خيالُ امبراطور على العالم ، عاهل ، طاغية ، مؤلِّف مسرحي اعلى يحرّك دُمى المأساة الهزلية البشرية ، مُجمِّدًا او متخطِّيًا تلك الحريات المُفترض فيه ان يخلقها. لا يخفى عليّ أن هناك ملحدين ، لأن مفهوم المطلق او المتعالي يبدو لهم غير معقول. لكني أظنّ ان معظم الملحدين هم الذين يرفضون قدرة تنافي حريتنا او تدمّرها. من بين جميع السهام التي تستهدف الايمان المسيحي او التأليه نفسه ، يمكن القول بأن السهم الذي يدّعي النيل من الله في قدرته هو الذي يصيب الهدف على افضل وجه.

فإن فكَّرتُ في ما أومن به (وأدعوكم الى التفكير انتم أيضًا في ما تؤمنون) ، اتَّضح لي ما يلي: لو جهلت كل شيء عن طبيعة قدرة الله ، لاستحالت عليَّ الثقة به والتوكّل عليه. إنه قدير ، ولكن بأيّة قدرة؟ أمام كائن مقتدر جدًا ، يُشار على الانسان بالفطنة. فالحذر هو الحدّ الادنى من الحكمة. والمطلوب قبل كل شيء هو المحافظة على الحرية والاستقلال. فالعَدَمية أفضل من العبودية. العَدَمية اكبر إغراء عرفه هذا القرن ، لأن طعم العدم ، مهما كان مرًّا ، يبقى اقلّ مرارة من مرارة العبودية.

لا يخفى عليَّ ان العَدَمية ما هي سوى حُلم ، بما أني موجود. لكني استطيع على الاقل ان أنزلق على المنحدر المؤدّي الى الانتحار. ان الانتحار أقلّ جنونًا من الوقوع في يد مَن يهدّد حريتنا. فلا استطيع القول بأني أومن بإله قدير ، ما لم أتأكَّد من اني امام قدرة لا تهدّد حريتي.

وبعبارة أخرى (وهنا أزن كلماتي ، فإن الأمر أمر جوهر ايماني) ، لو كنتُ لا أومن بأن قدرة الله انما هي قدرته على المحبة وعلى بلوغ أقصى حدود المحبة ، اي الموت (الموت في سبيل الأحبَّاء) والغفران (الغفران للذين يقتلونكم) ، ولو كنت لا أومن بأن قدرة الله قدرة فائقة طبيعتها التخلّي محبةً عن استخدام وسائل القدرة في معاملة الخلائق ، لَما استغربت أبدًا ان يستسلم الانسان لمنحدر الحلم

العَدَمي ولَما اتَّهمت بني جيلي الذين يستهويهم هذا الحلم.

لكن كل شيء يتغيَّر، اذا كانت قدرة الله قدرة المحبة. فبين القدرة والمحبة القديرة فرق جذري وهوّة بكل معنى الكلمة. لا يقول المسيحي إنه يؤمن بأن الله قدير، بل يقول إنه يؤمن بإله آبٍ قدير. لتعدّي فعل «آمن» بحرف «الباء» الى اسم شخصي أهمية حاسمة. ففي قانون الايمان، ينجرف الاعتراف بالله وبقدرته ويُفهَم في فيض من الثقة والمحبة يعبّر عنهما التعدّي بحرف الباء. من قال: أومن بكَ، قال: اني عالم بأن قدرتك لا تشكّل خطرًا على حريتي، بل هي، بالعكس، في خدمة حريتي. «الايمان ب»، هذا هو المهمّ.

ان الخطيب الذي يقول لخطيبته إنه يؤمن بها – وهي عبارة مُثقَلة بالمعنى – لا يقول: أرى وجودكِ وصفاتكِ، وأَظنّ أنكِ هذا او ذاك، وأصدّق المعلومات التي وردتني عنكِ، وأصدّق جميع الحقائق التي تختصّ بكِ. فهو يقول هذا بالضبط: اعاهدكِ، والتزم تمامًا نحوك، فتصبحين بعد اليوم مركز حياتي. أُزيح نفسي عن المركز ليكون مركز حياتي بعد اليوم انتِ، لا أنا. أهبكِ نفسي عاهدًا اليكِ بسعادتي. انتِ جديرة بالحُب فأحبّكِ، واريد ان ارتبط بكِ. فالحب هو رضا الانسان بأن يكون مرتبطًا بالحب.

وبناءً على ذلك، فالايمان هو اندفاع الكيان كله نحو الله واعمق التزام، والاَّ لم يكن ايمانًا. ولو لم يكن الانسان على يقين من ان الله إنما هو قدير على المحبة، وان جوهر الله هو المحبة لا القدرة، وأن القدرة هي نعت للمحبة، لكان ذلك الاندفاع هذيانًا وجنونًا. فمن الجنون ان أتّكل بلا تحفّظ على قدرة قد تكون خطرًا على حريتي، كما ان الاستسلام لكائن لا قدرة له هو من الجنون. ومن الجنون أيضًا ان نتصوَّر محبةً لا قدرة لها ولا طاقة. لكن ما هو مُثقَل بأروع المعاني هو تقبّل الطاقة على المحبة. والحال ان الروح القدس هو ذلك، فإنه طاقة الهية على المحبة توهب لنا.

في الحقيقة، ما من شيء أعرق من التقليد وأثبت عند آباء الكنيسة من التشديد على تعدّي فعل «آمن» بحرف «الباء» الى اسم شخصي وعلى اهميته

العقائدية. إنه خطأ نحوي في اليونانية، لكن الكتّاب المسيحيين، وفي مقدّمتهم القديس يوحنا، لم يتراجعوا أمام الوقوع في خطأ نحوي للتعبير عن سر الايمان أفضل تعبير. قال يسوع: «عمل الله ان تؤمنوا بمن أرسل» (يو ٦/٢٩).

ما من شيء يشوّه الحياة الدينية في جذورها كالايمان بقدرة الله بمعزل عن الايمان به، ما من شيء يولّد العقلية السحرية. يفيدنا تاريخ الأديان بأن العقلية والممارسات السحرية كثرت في التاريخ ولا تزال كثيرة في ايامنا، حتى في الاوساط المسيحية، بالرغم من اللياقة الكنسية التي ترتدي بها المفردات. لا ننخدعْ بالكلمات. فما يداخلنا غالبًا في علاقاتنا مع الله هو المصلحة والخوف. المصلحة هي التي تحمل الانسان على استخدام القدرة الالهية لصالحه، والخوف هو الذي يقتضي ايجاد السبل للاحتراز من الخطر الذي تنطوي عليه. لا علاقة لكل ذلك بالايمان، بل هو سحر. لو أمكن إجراء تحليل نفساني في عقل بعض المسيحيين الذين لم تُحسَن تربيتهم، لَلوحِظ أنهم يقولون في انفسهم: «ماذا تُرى الله يدبّر في سمائه؟ ماذا تُراه يُعدّ لي؟ أشيئًا من السعادة ام من التعاسة؟ أشيئًا من العافية ام من المرض؟ أشيئًا من النجاح أم من الاخفاق؟ فسأسأله، عن مصلحة وعن خوف، ألاَّ يدبّر ما لا يروق لي».

إلى يومَ تُغريه فكرة طرد شيطان التهديد، فيقول بصراحة: ليس هناك إله قدير. فيبدو الإلحاد للضمير البالغ أعقل موقف، وليس هذا الشعور خاطئًا حتمًا. ولكن، لا نَنْسَ ما كتبه بسكال: «الالحاد دليل على قوة عقلية، ولكن الى حدٍ ما فقط». فتحت السماء التي أصبحت مقفرة واُفرغت من قدير أعلى، تنشأ قوى أخرى وتتكاثر، ولا يتردَّدون في جَعلها مطلقة على جميع صُعُد الحياة الفردية والجماعية. وتلك القوى نعرفها جيدًا: المال والجنس والعِرق والحزب الخ. ما من شيء اكثر قدسية من عالم يُزعم انه نُزعت عنه القدسية. قد يصبح فيه كل شيء قدرة على السيطرة والظلم والتدمير. فكل تبدّل في الحضارة هو، في وجه من الوجوه، تبدّل في عبادة الاوثان.

ان لم ندرك أن قدرة الله هي قدرة المحبة، لا نستطع ان نتجنّب كل ذلك

– السحر الخرافي او الالحاد النكّار (بالاختيار). ان المسيحي يؤمن بقدرة المحبة. والايمان هو عمل باطني تقوم به حريته، ويُلزمه في اعمق كيانه ويحركه نحو إله محبة لا يعرف إلاّ المحبة. فلا يقول المسيحي إنه يؤمن بالله القدير، بل يقول إنه يؤمن بإله آب قدير. وما يُعلنه ويرنّم به هو قدرة أبوّة. بنِية قانون الايمان ثالوثية. لا أومن ولا يؤمن المسيحيون بأن الله هو نَرسيس أزلي يشاهد نفسه ويُعجب بنفسه ويستغرق في نفسه ويغتبط بنفسه. ومن الواضح ان الايمان بمثل هذا الإله أمر غير معقول. قد استطيع على الاكثر ان افكّر بوجود هذا الاله النرجسي. وحتى ذلك! أَمَّا الايمان به، فلا بالتأكيد.

واذا كان التعدّي بحرف «الباء» جوهريًا في فعل الايمان، فلا يمكن ان يكون مَن أُومن به إلاّ أَبًا. واذا ذكرتُ الآب، فهذا يقتضي ان أذكر، في اندفاع فكري ومحبتي، الابن والروح. القول بأن الله محبة والقول بأنه ثالوث شيء واحد تمامًا.

التقدّم في الاهتداء الى إله واحد وثالوث

ان اردنا ان نشاهد سرّ الثالوث الاقدس، وجب علينا التفكير كما فكَّرت الكنيسة على مرّ الأيام. لا يفكّر المسيحي على طريقة الفيلسوف الذي يبتدع حقيقته، اذا صح القول، ويعرضها على أُناس آخرين، فالمسيحي لا يبتدع الحقيقة، بل ينالها. إنه يفكّر طبعًا في هذه الحقيقة التي يتقبَّلها، ولكن بقيامه أولاً بالاختبار الذي قامت به الكنيسة على مرّ القرون. والحال ان الكنيسة فكَّرت انطلاقًا من وحي يسوع المسيح.

من هو هذا الانسان؟ لم يعترف الرسل بايمانهم بألوهة يسوع صراحةً إلاّ في اعقاب تكوين استغرق زمنًا طويلاً. سمعوا أولاً يسوع ينادي الله «بابا» وهي كلمة تدل على منتهى التوكّل البنوي. أحاول، في صلاتي، ان اتصوَّر دهشة الرسل لدى سماعهم يسوع يقول: بابا. رأوا يسوع يتصرف كرجل له خبرة مباشرة بالله وبالانسان. فظهر لهم كمن كان في آن واحد إلهًا ينظر الى الانسان

وانسانًا ينظر الى الله. وشاهدوا تلك الالفة الفريدة التي تربط انسانًا بالله، والتي عاشها يسوع، لا أمامهم فقط، بل من اجلهم أيضًا، اذ انه دعاهم الى المشاركة فيها: «قولوا مثلي: بابا» (متى ٦/٩).

حافظ يسوع على تلك الالفة حتى في منتهى الألم، حين صمت الآب وبدا غائبًا وأظهر الناس منتهى القساوة: «يا ابت، أُسلم روحي بين يديك... اغفر لهم». ولمَّا قام يسوع من بين الاموات، اتّضح ان الله كان مع هذا الرجل. لكن السؤال بقي مطروحًا: هل هذا الانسان هو الله؟ هل الله ويسوع اثنان ام واحد؟

وفي العنصرة، استولى روح يسوع على الرسل. فأصبح فيهم بعد اليوم من كان في يسوع، من كان به يسوع ما كان. وقادهم الى الاعمال نفسها – اعمال الرسل –، والى مواجهة الاخطار نفسها، والى الجرأة نفسها في الموت. انه روح يسوع، لكنه لا يمكن ان يكون غير روح الله، لأن الله وحده قادر على هبة روحه. أمَّا نحن فلا نستطيع ان نهب روحنا، لأنه خاصّ بنا على الاطلاق. يمكنني ان أهب من علمي ومن ثقافتي، لكنه من غير المعقول على الاطلاق ان اهب روحي. فلم يعترف الرسل بأن يسوع هو إله إلاَّ في العنصرة. والحال ان هذا الانسان، الذي هو إله، خاطب الله بـ «الكاف». الله يتحدث الى الله. قال الله إنه «مُرسَل من قبل الله». «طعام الله ان يعمل بمشيئة الله». ففي الله ثنائية. وما هو أمر الروح الذي تكلَّم عليه؟ إنه إله هو أيضًا، فهو الثالث.

رأت الكنيسة نفسها أمام مفارقة إله واحد وثالوث، وما لبثت ان ادركت أنها، ان لم تحافظ بدقة على المفارقة، تقضي على رجاء البشرية. قال كيرلّس الاورشليمي: «لو كان التجسّد مجرَّد وهم، لكان الخلاص أيضًا مجرّد وهم». لو لم يصر الله انسانًا، كيف أمكن للانسان ان يؤلَّه؟ وكيف يمكن لإله لا يكون إلاَّ اقنومًا واحدًا ان يتجسّد؟ فمثل ذلك الانسان الاله لن يستطيع ان يعرف إلهًا غير نفسه، ولن يستطيع ان يخاطب آخر، بل يسجد لنفسه. كيف يستطيع ان

يكون الانسان على وجه كامل ، اذا صحّ ان الانسان لا تحدَّد هويته إلاَّ بصلته بآخَر ؟

ناضلت الكنيسة نضالاً حماسيًا في القرون الثلاثة الاولى من تاريخها ، لكيلا يُقضى على عمق السر رغبةً في ادراك معناه دون إبطاء . حين تكون المسألة مسألة معرفة الحق ، لا يضحّي الروح القدس ، بالرغم من رغبة الناس في الحلول الوسط ، بما يقتضيه تفهّم أفضل لا يُحصل عليه إلاَّ بالبطء والجهد . خضعت الكنيسة لمنطق دقيق فرض عليها عدم الفصل ، في وحدة ايمانها ، بين الايمان الثلاثي بتأليه البشرية وألوهة يسوع المسيح والثالوث الاقدس . فإن لم يكن الله ثالوثًا ، كان التجسّد اسطورة ، وان كان التجسد اسطورة ، لم يكن هناك من تأليه للإنسان . فالأمور مترابطة .

الثالوث يحقّق أمنية الحب على وجه كامل

المقصود هو الحب . يُخشى ان يضلّ الانسان ، اذا بحث عن ادراك معنى سر الله بطرق غير طرق الحب . لا بدّ لنا من التفكير انطلاقًا من اختبار الانسان للحب وانطلاقًا من خيبة الامل التي نختبرها جميعًا في الحب ، بقدر كثير او قليل .

ففي الحقيقة ، ما هي الامنية الخفية للحب الذي نعيشه في الزواج او الحب الاخوي او البنوي او الصداقة او حياة الجماعة ؟ امنية الحب هي أن أصير الآخَر وأبقى انا في الوقت نفسه ، بحيث إني والآخَر لا نكون متّحدَين فقط ، بل نكون واحدًا في الحقيقة . ان اختبار الانسان للحب هو خليط من الفرح والألم . انه لفرح رائع ان يقول الانسان لمن يحبّه : انا وأنت لسنا اثنَين ، بل واحد . وانه لألم شديد ان يُضطرّ الانسان الى الاعتراف بأنه ، في قوله هذا ، لا يقول ما هو في الواقع ، بل ما يرغب ان يكون وما لا يمكن ان يكون . فإن لم يكن المحبّ والحبيب اثنَين ، لم يكن هناك آخَر فيُقضى بالتالي على الحب . ان كنّا انا وانت

لا نؤلّف إلاَّ كائنًا واحدًا، أحببنا انفسنا. لكن حب النفس ليس حبًا، بل هو إعجاب بالنفس، لا عطية ولا تقبُّل.

ان الحب يقتضي التمييز والوحدة في آن واحد. في الوضع البشري، تبقى تلك الأمنية الخفية (لا ان يكون الانسان متّحدًا بالآخر فحسب، بل ان يكون وإياه واحدًا، مع البقاء هو هو) أمنية لا تُقهر ولا تُحقّق. ولذلك لا يدخل احد مملكة الحب من دون ألم. أمّا في الله، فإن امنية الحب مستجابة منذ الازل: وهذا هو سر الثالوث. فإن الآب والابن والروح القدس يمتازون الواحد عن الآخَر امتيازاً حقيقيًا يحول دون اي اختلاط: فالآب لا يزول في الابن، والابن لا يزول في الآب، والآب والابن لا يزولان في الروح القدس. هم واحد، مع انهم متمايزون على وجه كامل.

ليس الثالوث الاقدس ثلاثة اقانيم متجانبين، بل هو ثلاث كَرامات تهب انفسها الواحدة للأخرى على وجه كامل. ليس كل من الاقانيم الثلاثة لنفسه إلاَّ لأنه للاثنَين الآخرَين. فلا وجود للآب كآب يمتاز عن الابن إلاَّ بهبة نفسه كلّها للابن، ولا وجود للابن كابن يمتاز عن الآب إلاَّ بكونه كليًا اندفاعَ محبة للآب. فلا وجود للآب أولاً كأقنوم يقوم على نفسه ولنفسه، بل ولادته للابن هي التي تقيمه اقنومًا. فلو لم يكن الابن، لما كان أبًا، وكل اقنوم لا يكون نفسه ما لم يكن خارجًا عن نفسه. فهو قائم في الكيان بقيامه في الآخَر. في الآب وفي الابن وفي الروح القدس، يستحيل على الاطلاق ايّ انطواء على النفس. قال الكاتب موريس زَنْدِل: لا «ينتبه الله الى نفسه».

ثلاثة اقانيم في إله واحد

لماذا ثلاثة اقانيم (لا اربعة او عشرة، كما سأل الفيلسوف كانْت)؟ يمكننا ان نقترح طريقتين للبحث في سر الروح القدس. الأولى تنطلق من مطلب التبادل، وهو مطلب جوهري في المحبة الكاملة. في الحب البشري، لا نلمح هذا التبادل إلاَّ عن طريق العلامات، فإنه، في حد ذاته، يخفى على الذين

يحب بعضهم بعضًا. «أحبّكِ أنتِ امرأتي، وأرى انكِ تحبّيني عن طريق الكلمات التي تقولينها لي والحركاتِ التي تقومين بها، اي عن طريق معاملتكِ لي. لكني لا أرى حبّكِ نفسه. ومن هنا ذلك الألم وذلك التعرّض للشك، في بعض الأيام، حين تبدو تلك الكلمات وتلك الحركات وتلك المعاملة أقلّ حرارةً واقلّ عفويةً. لو كنتُ أرى الحب، لغابت تلك التقلّبات. لكني لا ارى سوى العلامات. ولذلك أشعر في نفسي بتلك الرغبة الجامحة في معرفة حبّكِ عن غير طريق تلك العلامات، فإن وجودها يسحرني ويشكّل سعادتي كلها، لكن نقصانها يجرحني وغيابها يُفقد املي». وقد كتب القديس اوغسطينس في هذا المعنى جملة من تلك الجُمل التي تحفظها الذاكرة والتي برع فيها: «تراه ويراها، ولا احد يرى الحب».

في الثالوث الاقدس، حيث التبادل هو تام، المحبة نفسها هي اقنوم، الروح القدس: محبة الآب للابن، ومحبة الابن للآب، او قُبلة مشتركة، ان اردتم، او تبادل المحبة المتحوِّلة الى اقنوم، في المعنى الذي يمكننا ان نقول به: موزارْت هو الموسيقى المتأنّسة. في الثالوث، تُعاش المحبة على وجه كامل: فهناك المُحبّ والمحبوب والمحبة. فالمُحبّ محبوب، والمحبوب مُحبّ والمحبة هي دينامية ذلك الاندفاع الذي به يصبح الاثنان واحدًا ويبقيان متمايزَين.

وهناك طريقة أخرى للبحث في سر الاقنوم الثالث يمكن استخدامها انطلاقًا من مطلب الخلوص، وهو ايضًا جوهري في كمال المحبة. اعني بالخلوص نفي كل انانية وكل تملّك. ففي الله لا أثر لتملّك النفس، لأن المحبة لا يمكن ان تكون ملاّكة. لو لم يكن الاقنوم الثالث، لوجد الآب في الابن، والابن في الآب، تملُّكًا للنفس، ولكان الآخَر لكل منهما اسقاطًا للنفس وامتدادًا للنفس، ولكان مَثَلهما مثل أبي عائلة ضحّى بنفسه في سبيل ابنه ووهب له كل شيء، فهو، اذا شاهد ابنه، وجد نفسه هو: أنا مَن وهب كل شيء لابنه. فلو كان الأمر على ذلك في الثالوث، لوجد الآب نفسه في الابن ووجد الابن نفسه في الآب. أمّا اذا انفتحت محبة الآب والابن المتبادلة على ثالث،

حصل نفي مطلق لكل اشكال التملّك ولكل نظر الى النفس. هذا هو خلوص المحبة المطلق، هذا هو فقر الله.

الحياة هي الحب

الحب هو ان يكون الانسان ويعيش لأجل الآخَر وبالآخَر، لاجل الآخرين وبالآخَرين، لا بنفسه ولاجل نفسه أبدًا. ليس كل من الاقانيم الالهية الثلاثة نفسه إلاَّ بكونه بالآخَرين ولاجلها. لأجل الآخَر: هي العطية، وبالآخَر: هو التقبّل. فالتقبُّل والعطاء هما المحبة. ان الله قدرة لامتناهية، اي لا حدّ لها، على التخلّي عن الكيان لاجل النفس وبالنفس. استبدلوا بكلمة «قدرة» كلمة «طاقة» او «دينامية». أومن بإله لا حدّ لطاقة محبته او ديناميتها. أومن بطاقة تخلٍّ عن الكيان لاجل النفس وبالنفس لا حدّ لها. أومن بطاقة ازلية على ارادة كيان لا حد لها من اجل الآخَر وبالآخر. او أيضًا: اؤمن بأن الله عجز مطلق عن الانطواء على النفس والالتواء على النفس.

ما يُكشف لنا هنا هو ان صلة المحبة هي صورة الكائن الأصلية، او أن جوهر الكائن هو محبة او مشاركة. ان سرّ الثالوث يضيء جميع طرق الوجود البشري.

ولأننا نعرف من هو الله، مع ان الأمر يبقى غامضًا جدًا، نعرف ما يجب علينا ان نكون. اجل، ورد في كتاب التعليم المسيحي القديم: ان الله لامتناهٍ ومجرد روح، لكن القديس بولس يوصيني بـ«الاقتداء بالله» (اف ٥/١) ويضيف أن حياتي كلها تقوم على التشبّه بالله. فلا أرى كيف استطيع ان أتشبّه بمجرد روح لامتناهٍ. في ذلك التحديد، يدور الكلام على صفات الهية لا استطيع على الاطلاق ان اقتدي بها. أَمَّا اذا كان جوهر الوحي الالهي ان الله محبة، أرى أنه من واجبي ان اسعى جاهدًا للمحبة وان حياتي كلها مردّها المحبة.

ما هو الشخص البشري؟ هو الكائن الذي يحقّق نفسه بهبة نفسه، ولا

يسعى وراء نفسه فيجد نفسه في الآخَر. وُهبت لنا الحياة لكي نتّجه الى الآخرين، فنهبَ انفسنا لهم، كما يفعل الاقانيم الالهيون الثلاثة فيما بينهم. علينا ان نتَّجه الى الآخرين، لا للاستيلاء عليهم او لتملّكهم او لضمّهم الى انفسنا، بل لإغنائهم ورفع شأنهم. كان القديس اوغسطينس يقول: «يجب علينا ألاَّ نحب الناس كما يحب الذوّاقون السُمَّان، لأن محبة الناس لا تعني الرغبة في هضمهم». علينا ان نحبّهم، لا لأجل انفسنا، بل لأجلهم.

ان اردنا ان نحبّ كما يحبّ الاقانيم الالهيون الثلاثة، وجب علينا ان نكون انفسَنا، على أعمق وجه ممكن. علينا ان نريد ان يكون الآخرون، وان يكونوا على اعمق وجه ممكن، لا أن نريد ذلك بالفكر والرغبة فقط، بل ان نسعى ليكونوا كذلك. أريد ان تكون أنت، واكرّس نفسي كلها لتكون أنت على وجه تام. وما صحّ في الافراد يصحّ في الاوطان والعروق والحضارات.

لا تقوم الوحدة الحقيقية على التفرّد، بل على غنى التعددية الملتحمة بالمحبة. تقوم السمفونية على تعدّد علامات موسيقية لا قيمة لها إلاَّ في الصلات القائمة بعضها ببعض. لكن لا بدّ لكل علامة ان تبقى نفسَها وان تريد ان تبقى العلامات الأخرى نفسَها، فلو غابت علامة من العلامات، لم يعد الائتلاف واحدًا، بل أمسى فقيرًا. ليس الأفضل ان لا يكون هناك إلاَّ كمنجات. فعلى الكمنجة أن تريد ان يكون الكمان الكبير كمانًا كبيرًا على اكمل وجه، وان يكون الناي نايًا على اكمل وجه، وان يؤلِّف هذا التشكّل وهذا الغنى وهذا الاختلاف في الآلات جوقةً موسيقية واحدة حقًا.

تُرغمنا المحبة في الثالوث الاقدس على نفي السيطرة والرغبة في ضمّ الآخرين، بل على نفي ضعف الذين يُضَمّون أيضًا وجبنهم.

سواء أكان المقصود حياتنا الشخصية في اعماق عمقها او ممارسة حريتنا على مختلف صُعد الاسرة او المهنة او الدولة او المجتمع الدُوَلي، يعود كل شيء الى عدم الانخداع في امر الحب. ارادت الكنيسة ان تعلّم الناس ما معنى الحب وما هي شروط الحب ونتائجه وتضمّناته وما قد تكون تزويراته وأوهامه، فما زالت

طوال القرون تسأل الروح القدس الذي وُهب لها. فهو وحده يعرف سرّ الله، وهو يهب لنا الطاقة على الحياة كما يحيا الله، وعلى المحبة كما يحب الله. هذه هي ارفع صيغة للحياة نعتقد بأن الانسان يستطيع الوصول اليها، شرطَ ان يتقبّلها كعطية (لأنها في حدّ ذاتها منيعة)، وألاَّ يرفض «رسم المرور» (كما يقول موريس بلُونْديل) وهو بذل النفس المؤلم.

الله يخلق الانسان خالقًا

قد يكون سر الخَلْق اكثر الاسرار المسيحية تعقيدًا وأشدّ الاسرار سِرّيّة. لنحاول مع ذلك ان نقول بعض الشيء في هذا الموضوع، اذا صحّ ان الالحاد انّما يستند في ايامنا الى سرّ الخَلْق هذا. في الحقيقة، ما يرفضه الملحدون لا يتناول التعالي في حد ذاته أوّلاً، بل الاله الخالق. لأننا، كما يقولون، ان كنّا مِن خَلْق الله، لا يمكننا ان نكون أحرارًا حقًا، بل نكون، اذا صح القول، ادوات في يدي الخالق، او «دمى في ايدي الآلهة»، كما ورد على لسان احد اشخاص افلاطون، ومن الواضح ان ذلك ينافي كرامة الانسان. فنحن اذًا أمام موضوع اساسي. وحتى ان لم نتوصّل الى الإتيان بأشياء على جانب كبير من الايجابية، فمن المهم ان نتخلّص على الاقل من بعض التصوّرات التي من شأنها ان تصدّ غير المؤمن او الملحد.

ملاحظة تمهيدية

حين نتطرّق الى مثل هذا الموضوع، علينا ان نتخلّى عن كل تصوّر، مهما كلّف الأمر. لا يخفى عليَّ ان هذا امر شاق، علمًا بأننا أسرع الى تصوُّر الاشياء منّا الى تكوين فكرة عنها، واذا لم نتوصّل الى التصوُّر، نقول إننا لا نفهم. فلا بدّ من بذل جهد كبير لقهر المخيِّلة تمامًا. وكما اننا لا نستطيع ان نتصوَّر الله، لا نستطيع ان نتصوّر عمله الخالق وخَلْقه العالم.

ولا بدّ أيضًا من قهر فضولنا ، حتى فضولنا العقلي ، لأن الوحي لا يتناول حقائق من شأنها ان تُرضي فضول الناس عن الله. فليست المسيحية نظامًا فلسفيًا ، ولا يقف الوحي على مستوى تفسير الاشياء ، بل يضيء سيرنا الى الله ، وهو امر يختلف كل الاختلاف. يفيدنا الوحي بعض الشيء عن الله وبعض الشيء عن الانسان ، بقدر ما يكون ذلك ضروريًا لحقيقة صلتنا الحية والحقيقية بالله.

فمن واجبنا على الاطلاق ان نفهم حق الفهم ما هو الفرق بين التفسير والمعنى ، لأن الايمان لا يقف ابدًا على مستوى التفسير العلمي والفلسفي ، بل يقف دائمًا على مستوى المعنى ، اي معنى وجودنا. هذا التمييز جوهري على الاطلاق ، والخطأ الذي يقع فيه كثير من الناس هو استعلام الدين عمّا يعود الى العلم. لا يقول لكم الدين إن الماء يجلد في درجة الصفر او ان مجموع زوايا المثلث يساوي ١٨٠ درجة. اتصوّر رجلاً ذا دماغ متفوّق حقًا واختصاصيًا في كثير من العلوم ومطّلعًا على تفسير العالم الى اقصى درجة في متناول الانسان. ان خانته امرأته ، فقد ينتحر لأن الحياة لم يعد لها معنى في نظره ، لأنه فقد علّة وجوده. لم يكن معنى حياته ذلك التفسير الذي كان يجده في العلوم ، بل حب امرأته. ليس شأن المسيحية ان تفسّر العالم.

اختبار حبّ محرِّر وديناميّة تحرير

ما يوحى به أولاً في الكتاب المقدس ليس هو الاله الخالق ، بل الاله المحرِّر. وما هو في قلب الكتاب المقدس هو الخروج من مصر ، اي سر تحرير اسرائيل. وما هو في قلب ايماننا المسيحي هو بلوغنا حرية الله نفسها ، ما سبق ان سمَّيناه تأليهنا ، مع الجملة الاساسية التي اكرّرها هنا : نحن على هذه الارض لنصير بالمشاركة ما هو الله بالطبيعة. في الكتاب المقدس ، لا نسمع الله يقول

أولاً للشعب العبراني : «أنا خلقتُك» ، بل ولا شك : «أنا حرَّرتك ، أنا اخرجتُك من عبودية مصر» . ولم يطرح اليهود السؤال عن الخلق على أنفسهم إلاَّ في وقت متأخر جدًّا.

ولذلك يجب قراءة الكتاب المقدس ، لا انطلاقًا من أوله ، بل انطلاقًا من الاختبار الذي كان في نشأة الكتاب والذي هو اختبار شعب اسرائيل . أقول وأُشدِّد : الاختبار ، والحقيقي ، والملموس ، والواقعي بخلاف التصوُّري ، والمجرَّد . القيام باختبار تفَّاحة هو أكْلها ، لا وصفها بكلمات . يمكنني ان أصف بكلماتٍ طعم ثمرة من الثمار ، لكن الناس يقولون لي في آخر الأمر : كُلْها . ويمكنني ان اصف رائحة وردة من الوردات ، لكن المنخارَين هما ، على ما يبدو ، أداة أَفيَد للمعرفة من المفردات . ويمكنني ان اصف مشاعر الحب ، وهناك كتّاب روائيون ينصرفون الى هذا العمل ، ولكن ، ان لم يكن عندي ايّ اختبار للحب ، يكاد ان يكون لي كل وصف حبرًا على ورق ، كما لو كنت أقرأ الصِّينية !

فكم بالأحرى ، ان كان الكلام على خلق الانسان والعالم عن يد الله . ليس عندنا أولاً اختبار الأصل . كتب الأب غانْ ، بما يمتاز به من الشعور بالكلمات الأولية (لأنه على يقين ثابت من ان ما يراه الانسان بأقل وضوح هو ما كان أوليًا ، والأب غانْ على حق) : ان الولد الفرنسي الذي على صدر أمّه لا يتساءل أولاً هل هو وريث ڤيرسانجيتوريكس والغاليين ، بل ما يطلبه هو التخلّص من مَغص معدته ، فتبدو له أمه أولاً ، لا تلك التي ولدته ، بل تلك التي تخلِّصه الآن من ألمه وجوعه . ولا يتساءل عن اصله ونهايته إلاَّ بعد ان يكون قد تقدّم في السنّ ورجع في الزمن بالنسبة الى ثدي امّه وأصبح بالغًا .

وهذا شأن بني اسرائيل ، فإنهم لم يبدأوا بذكر آدم . فإنَّ الشعور الملموس والواقعي والحيّ لا ينطلق أبدًا من الاصل ، بل يرجع إليه انطلاقًا ممَّا يعيشه في واقع حاضره . هذه الملاحظات المبتذلة تعبّر عن حقيقة في منتهى البساطة ، لكننا ننساها أحيانًا ، فنشوّه بالتالي كل التعليم المسيحي تشويهًا جذريًا . لم ينطلق

ايمان اسرائيل من العقيدة الى الحياة ، بل من الحياة الى العقيدة ، وأمّا الاختبار الأوّلي الذي قام به اسرائيل ، والذي نسمّيه الاختبار المؤسِّس ، فهو التحرير من عبودية مصر. واذكّر بأن هذا التحرير - الخروج من مصر - ، الذي تمَّ في القرن الثالث عشر قبل المسيح ، قد سبق ، بخمسة قرون على الاقل ، الرواية الثانية لخلق العالم (تك ٢ و٣) ، وهي الاقدم ومن الراجح ان عهدها يرقى الى القرن الثامن ، وسبق ، بسبعة قرون ، الرواية الأولى (تك ١) ، وهي الاحدث ويرقى عهدها الى القرن السادس.

لنضَعْ انفسنا في محلّ اسرائيليي القرن السادس ، ولنحاولْ ان نعيش ما يعيشونه في ذلك الزمن. انهم مجلوّون الى بابل منذ مطلع القرن. فهناك اذًا أُناس وُلدوا في المنفى ، بعيدًا عن ارض الاجداد ، ويتساءلون هل صدق آباؤهم في كل ما قالوه لهم. يعلمون بأن اورشليم فقدت هيكلها فغابت الاعياد. وعلى الصعيد السياسي ، شُطب الشعب اليهودي من التاريخ. ولا يعلم احد الى متى يبقى الجلاء ، وليس هناك ايّ دليل على الفَرَج. فكيف لا يظنّون ان الله ترك شعبه؟ أَوَلم يُفسَخ العهد الذي قُطع مع موسى والذي كان قلب الدين اليهودي؟ لا يصعب علينا ان نتصوَّر تهكّمات الوثنيين ، لا سيّما وان الدين البابلي مزدهر : فهناك الاعياد والمواكب الباهرة ، وهناك عبادة الاوثان والتنجيم. فكيف مقاومة مثل ذلك الاغراء؟ ومن جهة أخرى ، لا تخلو العلاقات الاجتماعية من المغامرات العاطفية بين اليهود والبابليات ، وبين اليهوديات والبابليين.

وماذا يعمل الرب؟ لا شيئًا في الظاهر. لكنه في الحقيقة يتكلّم على لسان الأنبياء (كما يقول قانون الايمان). وماذا يقول الانبياء؟ يقولون ان الله لم يترك شعبه ، فإن اله اليهود امين ، وكلمته صخرة. فسوف تعود البرّية الى الإزهار وسوف تنهض اورشليم من أطلالها. أَوَليس الله طاقة على التحرير؟ فلا يَنْسَ اليهود ذلك! استعبدوا في مصر في حوالى السنة ١٢٥٠ فحرَّرهم الله قبل سبعة قرون ، لكن للشعوب ذاكرة جماعية. ولذلك اراد اليهود ان يستعيدوا رباطة الجأش ويقاوموا فتور الهمة والارتياب ويظهروا بمظهر لائق امام تهكّمات البابليين

ويُمسكوا بيد الذين ينزلقون على منحدر الجحود، فأخذوا يروون بعضهم لبعض مآثر الخروج من مصر. ما فعل الله مرة سيفعله مرة ثانية، وسيكون خروج جديد وتجديد للعهد.

أقترح عليكم ان تبدأوا قراءة الكتاب المقدس بنصوص أشعيا الثاني، اي كاتب الفصول ٤٠ الى ٥٦ من سفر أشعيا، وهو نبيّ من القرن السادس. فسترون كيف ان «الواقع» الديني الذي يعيشه اسرائيل في ذلك الزمن هو صلة بإله ليس هو خالق الطبيعة وعلّة العالم الأولى، بل محبة محرِّرة.

لكن الخروج من مصر ليس هو البداية. ماذا جرى قبل موسى؟ سبق ان قلنا ان الشعور الواقعي لا ينطلق أبدًا من الاصل، بل يرجع إليه.

في حوالى السنة ٢٠٠٠، قام ابراهيم أيضًا باختبار تحريري. ففي ضوء الخروج من مصر، فسَّر اليهود هجرة عشيرة ابراهيم كدليل على حضور الله. وها نحن امام عهد قطعه الله مع ابراهيم. وبعد قراءة اشعيا الثاني وسفر الخروج، لا بدّ من قراءة سيرة ابراهيم في سفر التكوين. وقَبْلَ ابراهيم؟ في نظر اليهود، هذا زمن ما قبل التاريخ. فهل سيتوقّفون عند هذا الحدّ؟ لا، لأنهم يؤمنون بأن إلههم هو الاله الحق الوحيد (سائر الآلهة هي اوثان). اذا كان اله اسرائيل الاله الحق الوحيد، فليس هو إله اليهود فقط، بل اله البشرية كلها. فالإله الذي قطع عهدًا مع ابراهيم وموسى قطع عهدًا مع البشرية كلها. هذا ما ورد في دورة نوح، حيث يستخدم الكتّاب اساطير قديمة للتعبير عن شمولية العهد. وقَبلَ نوح؟ آدم، اي الانسان والبشرية كلها (وهو معنى كلمة آدم).

هذا المدخل جوهري، ان اردنا عدم الوقوع في تفاسير خاطئة جسيمة لفصول الكتاب المقدس الأولى: ان المحبة المحرِّرة (من الطبيعي ان تكون المحبة محرِّرة، وإلاَّ لم تكن محبة. فالمحبة التي تستعبد او تحافظ على العبودية تكون تناقضًا لفظيًا) او القدرة على التحرير، التي في اصل تاريخ العبرانيين، هي أيضًا في اصل كلّ موجود. والله الذي اختبر اسرائيل محبته المحرِّرة طوال تاريخه هو الاله الذي خلق العالم.

فلا خوف ان يبدو الله قدرةً على السيطرة او صانعًا. في اصل كل شيء، نجد المحبة نفسها التي اختبرها اسرائيل على مرّ تاريخه. ويمكنكم ان تتحقّقوا من قولي، اذا قرأتم ما يلي بانتباه: «هكذا قال الرب فاديك وجابلك من البطن: انا الرب صانع الكل، ناشر السموات وحدي» (اش ٢٤/٤٤). ولا أَوضح من ذلك: فالذي حرَّر اسرائيل هو الذي صنع كل شيء، والخالق هو المحرِّر. والارتباط بين الخَلْق والتحرير واضح جدًا. وهناك فقرات مماثلة كثيرة.

لا بدّ، على كل حال، من الاقتناع بأننا عاجزون عن ادراك بداية اي شيء. حاوِلوا ان تدركوا لحظة نَومكم، لحظة عجزكم عن القول «إني أنام» او «اني لا انام». يُخشى في هذه الحال ألاّ تناموا أبدًا. وكذلك في شأن الاستيقاظ: ففي أية لحظة يمكنكم ان تقولوا: «اني استَيقظ»؟ سيكون ذلك، ولا شك، بعد ان تكونوا قد استيقظتم. وهل يمكنكم ان تتكلّموا على ميلادكم فتقولوا، من دون ان تسألوا عنه شاهدًا لا يزال حيًّا: هكذا جرت الامور؟ لا شك ان ميلادكم كان حدثًا، ولكنه لم يكن حدثًا لوعيكم. وكذلك لا نستطيع ان ندرك بداية التاريخ. ان إدراك بداية العالم امر مستحيل على الاطلاق، لأنه من غير المعقول ان يكون لدينا اية شهادة لشخص يشعر بأنه كان بداية البشرية. لن يُكتب أبدًا الفصل الاول من تاريخ البشرية، على الصعيد التاريخي بالمعنى الدقيق طبعًا. فليس هناك اي ادراك ممكن غير التفكير القائم على الاختبار الحالي.

كتب الأب غانْ: «ان العهد هو الذي يضفي على الخَلق معناه: فالايمان بالخالق هو الاعتراف بقدرة على التحرير يرقى عهدها الى الأصل، وتتّسع باتّساع الكون كله».

شَطْب ثلاث كلمات خَطِرة

من المهمّ ان نشطب من ذهننا ، بكل ما لنا من قوة ، بعض التصوّرات الخدّاعة الرهيبة والمتبلورة في بعض الكلمات التي نستعملها بدون تروّ والتي يجب علينا ان ننتقدها بقوّة ، وهي : الانبعاث والصُّنع والبداية . فأقترح عليكم ان تُحلّوا :

– محلّ الانبعاث : الاختلاف او الغيرية (وجود أحد آخر)
– ومحلّ الصُّنع : التكوُّن
– ومحل البداية : الارتباط الجذري (ارتباط الانسان بالله) .

١) **الانبعاث** : أحيانًا ما يتصوّر الناس خلق العالم انبعاثًا ، كما لو كان العالم ينبعث من الله كالنهر من الينبوع او كسماط الضوء من بؤرة ضوئية . تختلف هذه الفكرة عن الفكرة اليهودية المسيحية ، وهي تقول بأن العالم ليس هو انبعاثًا من الله . فلو كان العالم انبعاثًا من الله ، لوجب القول بأنه حتمي . فإن وجود الينبوع يعني وجود سيل ينبعث حتمًا ، وان وجود البؤرة الضوئية يعني وجود الاشعة وسماط الضوء . المسألة هامة ، لأن العالَم في أديان أخرى ، كالأديان الشرقية مثلاً ، يُنظر اليه كإلى انبعاث حتمي من الله .

ان كان العالم ينبعث من الله كالنهر من الينبوع ، لا يكون هناك اي تمييز جذري بين الانسان والله ، اذ ليس النهر غير الينبوع على وجه جذري ، وليس الشعاع غير البؤرة الضوئية على وجه جذري . فليس هناك غَيريَّة ، وان لم يكن هناك غيرية ، لا يكون هناك مجال للحب : لا يستطيع الانسان ان يحبَّ إلاَّ غيره ، وهو لا يحب قرارة نفسه .

في الكتاب المقدس ، لا يمكن ان تكون الاشياء على هذا الشكل ، اذ ان المقصود به الكشف عن إله ليس هو إلاَّ محبة . فلقد ورد فيه أن الله موجود ، وأن

الله شخصي ، وأن الله يريد ان يكون العالم ، وأن العالم حقيقة تمتاز عن الله . فإن الله يخلق عالمًا غير نفسه . ولذلك قلت لكم : نشطب كلمة انبعاث ونحلّ محلّها كلمة تمييز او غيرية .

٢) **الصُّنْع** : ليس الخلق صُنعًا . ولا يصنع الله اي شيء ، لأن الصُّنع يؤدّي الى غرض جاهز . لا شك ان الله قدير ، لكن محبته هي القديرة . ليس المقصود ايّة قدرة كانت ، اذ ان الله لا يقدر على شيء إلاَّ على ما تقدر عليه المحبة . لا يجوز ان نقول : إن الله على كل شيء قدير ، فهذا خطأ جسيم . لا يقدر الله على التدمير ، لأن المحبة لا تقدر على التدمير . ولذلك أومن بالحياة الابدية ، اذ ان الذي يخلقني لن يدمّرني . والله لا يقدر ان يصنع ، لأن المحبة لا تصنع ، بل تولّد ، وهذا يختلف كل الاختلاف .

لا تقدر المحبة ان تخلق إلاَّ خالقين . اجل ، نحن مخلوقات ، ولكننا مخلوقات خالقة . وليس العالم المادي إلاَّ ما يكيّف حريتنا ، وما علينا ان ننطلق منه لنخلق انفسنا . نحن لسنا الله ، فهو وحده غير مكيَّف ، أمَّا نحن فمكيَّفون . انا مثلاً مكيَّف بجنسي وهو مذكَّر ، فلا يمكن ان يكون مسعى حياتي مسعًى مؤنَّثًا . وهذا التكييف بعيد المدى ، فهو يشمل جميع المجرَّات ، ولكن لا معنى له إلاَّ لحرية الانسان . ان الله محبة ، فلا يمكن ان يخلق مخلوقات لا تكون خالقة .

فعلينا اذًا ان ننتقد بعض عبارات وردت في الكتاب المقدس (وهذا أمر طبيعي ، اذ ان الكتاب المقدس كتاب تربية وتربية تدريجية) . ففي الرواية الثانية لخلق العالم ، وهي الأقدم ، يشبَّه الله بخزَّاف يجبل الطين . أمَّا في الرواية الأولى ، وهي الاحدث ، فقد عُدل عن صورة الخزَّاف ، وحُذف فعل « جَبَل » واُحلّ محلّه فعل جديد يعني « خَلَق » تمامًا ، وهو ثمرة تفكير اعمق قام به الشعب اليهودي .

ان الله لا يصنع أَصغر عنصر من عناصر العالم ، ولا ادقَّ ذرّة من الذرَّات . لا تُصنع الحرّيات ، لأن من خواصّ الحرية ان لا تكون مصنوعة وان

لا يمكن صنعها ، فهي ليست غرضًا من الاغراض . فليست الحرية حرية إلاَّ ان خلقت نفسها .

بقدر ما يتصوّر الملحدون إلهًا صانعًا ، يحق لهم ان يحتجّوا باسم كرامة الانسان . فلو كنّا من صُنع خزّاف أزلي ، لكان ذلك مخالفًا لكرامتنا . فنحن نشطب تلك الفكرة غير المعقولة والخطرة ، فكرة عالم صنعه الله . لسنا من صُنع الله ، «كما يصنع الحِرَفيّ مقطع ورق» بحسب تعبير لجان پول سارتر .

٣) **البداية** : أحيانًا ما يتصوّر الناس خلق العالم نوعًا من النقفة الأوّلية حرَّك بها الله سيرًا تطوّريًا . ولقد شبّه ڤكتور هوغو خَلق العالم ، في يوم كان فيه قليل القريحة ، بضربة قدم في كرة ، كرةِ العالم الضخمة ، وفي اثرها لا يزال العالم يدور من تلقاء نفسه ويحافظ على وجوده وحركته ، نظرًا لما في ضربة القدم من قوة الهية لامتناهية . إنه لتشبيه سخيف !

ليس الفعل الخالق بداية زمنية ، بل أنتولوجية ، و«ارتباطًا جذريًا في الكيان» ، بحسب تعبير القديس توما الأكويني . حين نقول : الله يخلق العالم ، لا نقول إنه خلقه . لا يجوز ابدًا ان نضع فعل خلق في صيغة الماضي ، فإن الله يخلق الآن . لا يجوز ان نتصوّر خلق العالم عملاً في الماضي ، فإن الله يخلق العالم في هذا اليوم بقدر ما يخلقه في البداية . ان الفعل الخالق هو هو الآن وفي بداية العالم ، وهو يتّسع باتّساع العالم .

لو كان الخلق صُنعًا ، لَما جاز لنا ان نقول ذلك . ففي حالة الغرض المصنوع ، كالطاولة التي اجعل عليها مرفقيّ ، لا نتكلّم على عمل حالي يقوم به النجّار ، لأنه لا يصنع الطاولة في الوقت الحاضر . أمّا في حالة الخَلق ، فإن الله يخلق الآن .

فكِّروا في ما يلي : الخَلق عند الله عمل بسيط ، وخذوا هذه الكلمة بأدقّ معانيها واقربها الى الاشتقاق . البسيط هو غير المركَّب ، والعمل البسيط هو الذي لا يمكن تقسيمه الى عمليات متتالية . في الصُّنع عمليات متتالية ، ففي صُنع

الفستان مثلاً ، يُقصّ القماش أوّلاً ، ثم يُخيَّط ويُزيَّن ويُطرَّز الخ . أمَّا في حالة الخَلْق ، فنكون امام عمل بسيط لا تركيب فيه ولا تعاقب عمليات ، فهو عمل لا يُجزَّأ . كلّ ما ليس بالله هو مركَّب بوجه من الوجوه . والله وحده بسيط على الاطلاق .

من قال إن الفعل الخالق هو عمل بسيط قال إن الطاقة الالهية التي تخلق هي حاضرة ، في آن واحد ، في كامل عملها ، وهذا يعني ، في نظر الله ، ان البداية والنهاية يتزامنان . فالله يخلق اليوم الشخص الذي في الخامسة والتسعين من عمره ، بقدر ما خلقه حين كان في بطن أمّه ، وإلاَّ وجب القول بأن الفعل الخالق هو نوع من سياق عمليَّات ، كصُنع الخيَّاطة او المعدِّنة . فنكون في منتهى الصبيانية !

بعض الطرق للبحث في سرّ الخَلْق

لا يعود خلق العالم الى ميدان العلم

هذا تمهيد لا بدّ منه ، فإن ما يعلّمه الدين المسيحي في خلق العالم لا يجيب عن اسئلة يطرحها العلم . أتوقَّع انكم ستطرحون عليَّ اسئلة اضطرّ ان اجيب عنها هذا الجواب : «عن هذا الموضوع ، اسألوا العلماء ، لا اللاهوتيين» . فما يجري في عالمنا الطبيعي يختصّ بالفيزيائي ، والفيزيائي ، بصفته فيزيائيًا ، لا يُطلب منه اللجوء الى افتراض وجود خالق . وهذا شأن الكيميائي بصفته كيميائيًا ، والأحيائي بصفته أحيائيًا .

أذكر أن محاضرة نُظِّمت في ليون ، بعد أحداث ايار ٦٨ ببضعة اشهر ، لطلاَّب الصفوف النهائية في المدينة كلها . فكانوا نحو ثلاثماية او اربعماية فتى وفتاة في السابعة عشرة او الثامنة عشرة . وكان موضوع المحاضرة خلق العالم .

فدُعي محاضران: فيزيائي، استاذ في كلية العلوم، وخادمكم. وكان استاذ الفيزياء أول المتكلّمَين. فشرح انه، بصفته فيزيائيًا، لا يحتاج على الاطلاق الى افتراض وجود إله خالق، لا بل ان هذا الافتراض أمر مزعج قد يحول، في أقصى حد، دون ممارسة مهنته كفيزيائي ممارسة شريفة. وكان في القاعة بعض البالغين، فهربوا مرتعبين وقائلين: «تصوَّروا ما يقال الآن لطلاَّبنا: لا حاجة الى إله خالق!». ولمَّا أنهى الاستاذ محاضرته، سأله بعض الطلاَّب قائلين: «وبماذا تؤمن أنت، ايها الاستاذ؟». أجاب: «اذا كنتم تسألونني بماذا أومن، أومن بإله خالق وأتلو قانون الايمان المسيحي». صعُب على الطلاّب ان يفهموا معنى قوله. وأتى دوري، فبدأت بهذا القول: «اوافق تمامًا على ما قيل». فاصطُدم بعضهم الى أقصى حد!

يتساءل العِلم كيف تجري ظواهر عالمنا، كالصاعقة والريح والزلازل وتطور الانواع البيولوجي الخ. وليس من شأن العلم ان يتساءل عن اصل الكائنات الأول، ولا عن معناها الأخير. أقول: الأصل، ولا أقول: البداية. وهل تشعرون بالفرق؟ فقد يتساءل شخص في الثمانين من عمره عن اصله، بعد ان بلغ الثمانين. وهذا يختلف كل الاختلاف عن بدايته، فقد جرت هذه البداية قبل ثمانين سنة. لكنه قد يتسائل الآن عن اصله وعن اساس وجوده، كما انه ربّما طرح هذا السؤال على نفسه في الثلاثين او الخمسين من عمره.

لا ينظر العلم إلاَّ الى التغييرات التي تطرأ على عالم معيَّن. لكن هذا لا يعني أنّ أيّ سؤال عن البداية الأولى او النهاية الأخيرة لا يُطرح على مستوى العلم الطبيعي. اليكم مثلاً: ماذا يكون في النهاية؟ وهل هناك من نهاية؟ ما هو تدنّي الطاقة؟ لكن تلك الاسئلة العلمية تختلف كل الاختلاف عن قانون الايمان المسيحي، فهي مشاكل حركية حرارية. فلا يجوز ان نفتّش عن طرق البحث في سرّ خلق العالم باللجوء الى العلم.

نجد في اختبارنا، على ما يبدو، طريقتين ممكنتين للبحث في سرّ الخَلْق. اليكم بعض الكلمات في الابداع الفني، لكننا سنكون اكثر تشديدًا على الحب (الحب الذي هو خالق في حد ذاته)، لأننا لسنا جميعًا عباقرة مبدعين، من رسَّامين وموسيقيين وشعراء، لكنّ لنا جميعًا، على وجه من الوجوه، اختبار الحب.

فكِّروا في موسيقار او في رسَّام تحبّونه. كرانْبرانت وبيتهوفن وموزارْتْ وشوبان وغيرهم. ليس الابداع الفني صُنعًا، فهناك ابتكار مجّاني تمامًا. هل تساءلتم كيف أمكن نشأة الجملة الموسيقية الفلانية عند موزارْتْ في دماغ بشري؟ إنه لأمر رائع يأخذ بمجامع قلوبنا. ليس ذلك صُنعًا، بل هو ابتكار يدلّ على العبقرية.

لكن العمل الفني يحتوي على قسط من الصُّنع، ولا يمكن ان يكون الأمر على غير ذلك. ولا بدّ ان يعبَّر عن تلك الفكرة المجانية وعن موضوع «التلاحُق» وعن اللازمة، عَبرَ العلامات الموسيقية او الكلمات او الرخام او المادة أو الألوان. لا بد ان يحوِّل الفنّان المادة ليجسِّد فكرته، علمًا بأنه خالق ومبتكر بكل معنى الكلمة. فتمثال فينوس ميلو كان كتلة في أول أمره، فوجب نحت تلك الكتلة. وصحيح أن في هذا العمل عنصرَ صُنع، فبسياق العمل المتواصل ينحت النَّحات الحجر، ويصارع الكاتب مادة اللغة. ومن هذه الناحية، يبدو الابداع الفنّي مشابهًا للصُّنع. ولكن في الاصل ابداعًا بكل معنى الكلمة وعدَم تواصل بين المادة السابقة الوجود (كالرخام والألوان والحجارة والاصوات والكلمات) والعمل الفني نفسه.

ان اتّجهنا نحو صورة الابداع الفني، ولم نَنْس أنّ في العمل الفني قسطًا من الصُّنع، نكون قد اتَّجهنا اتّجاهًا صحيحًا نحو العمل الخالق الذي يقوم به الله.

الحبّ المشارك في الخَلْق

في اختبار الحب مزيد من المطابقة لما أقول. أشعر شخصيًا بالدهشة أمام قدرتنا، نحن البشر، على ان نخلق ثانيةً قاطعَ طُرُق او متشرِّدًا او حَدَثًا جانحًا او مسكينًا يكاد ان لا يُعدّ وجوده وجودًا، لأنه غير محبوب في الحياة، فيتّجه، لأنه غير محبوب، الى وجود يشبه العدم.

فلا بدّ لنا من طرح السؤال التالي: هل يتمتّع بعض الكائنات بالوجود؟ يتمتعون طبعًا بالوجود، بمعنى أنهم يأكلون ويشربون ويتنفّسون. ولكن لا يجوز لنا ان نسمّي ذلك وجودًا بالمعنى القوي، فهم يشبهون العدم او يكادون ان يشبهوه، اذا صح القول، بانحطاطهم شيئًا فشيئًا. ومع ذلك فلي قدرة غريبة على ان أخلق ثانيةً مثل هذا الكائن، وذلك لمجرّد النظر إليه بحب، وبالاهتمام بشؤونه والانتباه له. فما إن يرى نظرة حبّ تقع عليه حتى نراه يلتفت الى الوجود، بعد ان كان يسير الى العدم، فيصبح او يعود انسانًا بكل معنى الكلمة.

قبل بضع سنوات، نظَّم كهنة وعلمانيون من احدى رعايا باريس مآدب دعوا اليها بعض الاحداث الجانحين. فأخبرني الكهنة بأنهم شاهدوا نوعًا من الانقلاب الباطني. كان اولئك الصبيان يسيرون الى العدم، فلمَّا رأوا أن الناس يهتمّون بهم وينظرون اليهم نظرة حب او صداقة، التفتوا الى الوجود واستعادوا الثقة بالنفس وعادوا الى الحياة بالمعنى القوي، لا الى التنفّس والشرب والاكل.

سرّ الفعل الخالق

من هذا المنطَلق احاول شخصيًا ان أفهم سر الفعل الخالق. ان المحبة – وليس الله إلاَّ محبَّة – «تفرِّق بقدر ما توحِّد» (تيّار دي شاردان). تبدأ بالتفريق، فالمحبة تريد ان يكون الآخَر وان يكون آخَر، لا ان يكون ظِلاً لغيره ولا تبيعًا له، بل حرية

أخرى. والله يريد (وهذا هو كيانه بالذات وعمله البسيط والازلي) ان يكون الآخَر وان يكون آخرون. وهذه الارادة فعّالة ككل ارادة الهية.

من كان النور، أراد أن ينبثق النور من عيني الكائن المحبوب. فإن كنتُ احبُّك، لا يسعني ان أريد ان تكون عيناك كليلتَين. ان كُنتُ احبك، اردت ان يكون نورٌ في عينيك وأردت ان أكون بالقرب منك كعَدْوى نور، وكعَدْوى وجود نيِّر. فإن نظرة الحب او الصداقة هي نظرة طموح نريده للآخَر. عبارة «إني احبّك» تعني: اريد لك الطموح، ولا أريد أبدًا ان اسيطر عليك وأخنق حريتك، أريد ان أوقظك. أريد ان تشارك حريتي في حريتك، ولا يمكن ذلك إلاّ بوجود حريتك.

ليست القدرة الالهية قدرة على السيطرة، بل قدرة على الايقاظ. اذكّركم بأن الله لا يخلق اغراضًا. فلو كان الله يسيطر علينا، لكنّا اغراضًا عنده. لا يمكن ان يكون الكائن المسيطَر عليه إلاّ غرضًا، والغرض يُصنع. فالحب الذي يسيطر علينا يناقض نفسه. عفوًا عن التشديد، لكن الاختبار يفيدني بأن نحو الثمانين في المائة من الناس الذين يسمّون انفسهم مسيحيين يتصوّرون الله مَن يسيطر علينا. لا يمكن السيطرة على الحريات، فلا معنى لذلك، اذ لا تكون السيطرة إلاّ على الأغراض والاشياء. والله مُبدع الأحرار، فلا يمكنه ان يحبّنا، ما لم يَرَ في اعيننا نور الحرية.

الحب إبداع وعَدْوى وجود

ان الله يخلق بدافع عَدْواه الموقِظة. وبما أنه علينا ان ننطلق دائمًا من اختبارنا، حين نفكّر (وإلاّ تحرّكنا في عالم المجرّدات)، سأستند الى اختبارنا، فأطرح عليكم هذا السؤال: ألم تتقبّلوا قط عَدْوى أحد؟ يمكنني ان أدلي لكم بشهادتي الشخصية. كنت في حياتي ذا حظ كبير لا يوفَّر، مع الاسف، لجميع الناس، فكان لي معلّمٌ، معلّم حقيقي عشت في جواره أكثر من عشرين سنة، وكان لي أبًا ومعلّمًا وصديقًا على السواء. وكنت اتقبّل عَدْوى ذلك الرجل، فأكاد ان اقول إنه خلقني. لم يأمرني قط ايّ أمر، لا بل أظن أنه لم يُشر عليَّ

بأي شيء ايجابي، ولربَّما حدث ذلك نادرًا وبطريق الصدفة.

فماذا عمل ذلك الرجل بالقرب مني؟ كان موجودًا، وكفى. لكن وجوده كان مُعديًا، بمعنى ان رغبتي الدائمة كانت رغبة في التشبّه به والوجود على مثاله، بشهامة القلب نفسها والثقافة نفسها. كان وجود ذلك الرجل معديًا بمعنى اني كنت عاجزًا عن البقاء الى جانبه في التقصير المتواصل. ولو اردت ان اقصِّر فتنحط اخلاقي، لوجب عليَّ التخلّص من عدواه الموقظة والمبدعة. واذا لم يكن لكم انتم مثل هذا المعلّم في حياتكم، فلا شك انكم اختبرتم أن في الحياة ساعاتٍ يقول فيها الانسان: ان بقيتُ في صلة دائمة بذلك الرجل او تلك المرأة، لا يمكن ان اكون مقصِّرًا. فالتقصير هو شبه العدم.

ان الفعل الخالق الذي يقوم الله به هو مجرّد الوجود هذا. في الحقيقة، لا يعمل الله شيئًا، وأظن أنه يجب الامتناع عن القول إن الله يعمل هذا او ذاك، لأن جميع الناس يفهمون عندئذ أنه يصنع. والحال أن الخَلْق ليس هو القيام بأي عمل. ان الله في منتهى البساطة، وهذه البساطة امر رهيب، فاسألوا المتصوّفين الذين اختبروها. ليس في الله وجود وعمل، كما لو كانا أمرَين. فإن عمله يطابق كيانه. ان الله يخلق بصفته موجودًا: هذا كل شيء. لكن هذا الوجود مُعدٍ لأنه محبة، فالمحبة هي إبداع وجود.

الفعل الذي يسعى به الله لتصنع الكائنات أنفسها

لنحاول ان نذهب الى ما ابعد، فإننا نقترب من الأمر الاساسي. ان الخَلْق هو الفعل الذي يسعى به الله لتصنع الكائنات أنفسها بأنفسها. نتصوّر دائمًا أنفسنا مسيَّرين. لكننا لا نستطيع في هذه الحال ان نقول ان الله محبة. بما ان الله محبة، فهو يريد ان نصنع انفسنا بأنفسنا. ولقد وردت هذه الفكرة حرفيًا في الكتاب المقدس: «جَعلنا في يد مشورتنا» (سي ١٦/١٤).

ألا تتصوّرون؟ ولا أنا أيضًا، مع اني أذكر فريق عائلات فتية كان لها أولاد في العاشرة أو الثانية عشرة. حاولت ان أشرح لهم ذلك، فكانوا على

جانب كبير او صغير من الشكّ. واذا بأبي عائلة يناديني من آخرِ القاعة فيقول: «لقد فهمتُ! الأفضل ان يصنع اولادي انفسَهم بأنفسهم، اي، بعبارة أخرى، ان لا تشتمل التربية على أوامر وضغوط. فالمربّي الحقيقي يتألّم إن وجب عليه ان يأمر، حتى ان كانت الأوامر ضرورية». فهذا الرجل أخذ يدرك ان الخَلْق هو الفعل الذي يسعى لأن يصنع الآخرون انفسهم.

وأذكر أني شهدت نقاشًا حادًا دار بين كاهن فتي غيور وشيوعيّ مناضل حزبي. وكاد النقاش ان لا ينتهي. كان الكاهن يقول: «ان الله هو الذي خلق العالم»، مستعملاً فعل خلق في صيغة الماضي. أمَّا أنا فكنت ارتجف في زاويتي واقول في نفسي: أتُراه سيتوقّف عن الكلام في صيغة الماضي؟ وكان الشيوعي يردّ: «لا، بل الانسان هو الذي يخلق نفسه». لو كنتم حاضرين هذا النقاش، ماذا كنتم لتفعلون؟ أظنّ ان بعضكم لأيّد الكاهن على الشيوعي، وبعضكم الآخَر لأيَّد الشيوعي على الكاهن. بعد فترة من الزمن، تدخَّلت فقلت: «تُضيعان وقتكما، فكلا كما على حق، أو كلا كما على خطأ، والأمران على حد سواء». فلو كان العالم لا يخلق نفسه، ولو لم يكن في تكوين خالق، لوجب القول بأن الله يصنعه. وان قلنا إن العالم يخلق نفسه، لا نعود مسيحيين، بما اننا نقول في مطلع قانون الايمان: «نؤمن بإله واحد آب ضابط الكل خالق السماء والأرض». والحال ان الله لا يكون خالقًا، لو كان يصنع جاهزًا. ليس هناك من جاهز، بل هناك ما «يصنع نفسه».

فعل تواضع الله

أشدّد كثيرًا على فكرة الفعل الخالق كتخلٍّ من قبل الله، كفِعل تواضعه. ليس الله أحدًا يحبّ مثلكم ومثلي. فنحن نوجَد أولاً ثم نحب. أمَّا في الله، فليس فعل الحب عَرَضيًا، بل هو كيانه بالذات. الوجود والحب عند الله شيء واحد تمامًا. والحال ان الحب لا يكون من دون التواضع، اي من دون التخلّي عن النفس.

اناشد اختباركم: المحبة هي ان يُراد الآخرُ لاجل نفسه. لا يمكنني ان أُريد الآخر لاجل نفسه وأريده في الوقت نفسه لأجلي. «اريدك لاجل نفسي». صحيح ان الله هو الكل، لكنه كل يتخلّى عن ان يكون الكل، فإن التخلّي هو في قلب المحبة.

تصوَّروا ان الله ليس ثالوثًا، اي تصوَّروا ان الله ليس محبة في نفسه، يصبح الفعل الخالق غير مفهوم. اذا كان قلب الله محبة، وبالتالي تخلّيًا عن النفس، وبالتالي تواضعًا، فالفعل الخالق هو فعل تواضع. عندئذ، يمكنني ان ادرك أن الخَلْق هو الفعل الذي لا يتخلّى به الله فقط عن نفسه في داخل الثالوث، بل «ينسحب» حقًا، اذا صحّ القول، لكي لا يكون الكل، و«يتقلّص»، كما يقول بعض الروحانيين الشرقيين، بولغاكوف مثلاً، بحسب تقليد القديس غريغوريوس بالاماس.

فالفعل الخالق هو العمل الذي ينسحب به الله ويتوارى لتتمكّن الحريات التي ليست هو من النشوء. كثُر في ايّامنا الاستشهاد بهذه العبارة للشاعر الالماني هلدرلين: «صنع الله الانسان كما صنع البحر القارّات، بالانسحاب». الحب هو عدم فرض النفس، بل الارادة ان يكون الآخَر. فلا نتصوّر الفعل الخالق الذي يقوم الله به ارادةَ الحصول على تِباع، لا ابدًا. لو لم يكن الله يتخلّى عن ان يكون الكل، لما عدنا نستطيع ان نقول انه محبة. ان صورة البحر الذي ينسحب فيصنع القارات بانسحابه صورة رائعة، ولكنها خطرة، لأن الله لا ينسحب على شكل مكاني، بل يبقى حاضرًا لخليقته. فالصور تقصِّر دائمًا بوجه من الوجوه.

ان قدرة الله هي التي تخلق العالم، نعم. ولكن اية قدرة؟ لا قدرة على السيطرة والصنع، ولا قدرة تجمِّد حريتنا. فالقدرة الخالقة هي قدرة على التخلّي المطلق عن النفس، تدع الآخرين يوجَدون في انفسهم وبانفسهم. حين يخلقني الله، يوليني سلطانًا لأكون في نفسي وبنفسي. وعندئذ، لا نعود نستطيع ان نقول إن الله مزاحم يهدّد حريتنا. وبما ان الله يتخلّى عن نفسه وينسحب لنكون

في انفسنا وبأنفسنا ، فلا خوف عليه ان يكون شخصًا ثالثًا مزاحمًا . ما من شيء اكثر الوهة من تخلّي الله هذا إلاَّ التخلّي الأزلي الذي يوصف به الله في نفسه في حضن الثالوث الاقدس .

ليس الله ساعاتي العالم

لو لم يكن الله خالقًا بهذا المعنى ، ولو لم يكن يخلق مخلوقات خالقة ، ولو لم يكن سوى صانع للعالم ، لكان لنا مآخذ وجيهة على سوء صُنعه . وقد كثر عدد الذين لا يتردَّدون في توبيخه . فما اكثر العيوب في الصُّنع : فهناك المدود العالية والاعاصير والثورانات البركانية والأمراض وجميع اللاَّمعقولات التي في الوجود البشري ! ما أغرب ذلك الصانع ! لو كان الله ذلك الساعاتي الذي صنع ساعة ، كما تصوّره ڤولتير (« العالم يوقعني في حيرة ، ولا يسعني ان اعتقد بأن تلك الساعة موجودة وليس لها ساعاتي ») ، لوجب علينا ان نقول له : أتعلم بأنك ساعاتي رديء جدًا ؟ فإن ساعتك لا تدقّ ابدًا في الوقت ! وبعبارة أخرى : كثُر الشرّ في العالم .

يقال احيانًا إن الشر في العالم ينجم عن الخطيئة . كلاَّ ! فليست خطيئة الانسان سبب الاعاصير والمدود العالية والثورانات البركانية . والحق ان الخطيئة تزيد شر العالم سوءًا الى حد بعيد : فهناك انواع البغض والتنافس وتنازع الانانيات وجميع الحروب ! وحتى التقدم البشري له انعكاس سيّئ ، التلوّث مثلاً .

نناقض انفسنا ، ان كنّا نؤمن بالله ونؤمن بأنه يصنع العالم . أمَّا إن كان الله يخلق بشرًا يخلقون انفسهم ، وان كانت المحبة في الله ، وهي أرفع محبة ، تقوم على احترام حريتهم الخالقة بدون تسييرها (فإن المحبة لا تسيِّر الآخَر ، بل تريد ان يكون الآخَر ويصنع نفسه) ، فلا نستغرب ان يتردّد الانسان وأن لا يُصنع تاريخ العالم ، اي تاريخ خلق الانسان بنفسه ، بدون تراجع واخفاق وخطأ . هل أحسنوا في الذهاب الى القمر ؟ قد يكون ، لا ادري . ألم يكن من الافضل ان

يُنفق كل هذا المال لبحوث في السرطان؟ قد يكون، وهو الراجح، لا ادري.

الانسان يتردّد. افتريدون ان يتدخّل الله فيقول: يا مسكين، لا تفهم اي شيء، فسأقول لك كيف العمل. اتريدون إلهًا يتدخل على هذا الوجه؟ اين تكون كرامتنا الانسانية؟ لا نعود نستطيع ان نقول اننا نوجد في انفسنا وبأنفسنا، فتكون عطية الله بالتالي شيئًا احطّ شأنًا بكثير. هل يمكنكم ان تتصوّروا عطية أرفع شأنًا من امكانية الوجود في انفسنا وبأنفسنا؟

من الواضح ان الانسان يؤنِّس عالمه ببطء لا يصدَّق، وهذا شيء اليم جدًا. لكن الله، صدّقوني، أوّل المتألّمين. ومع ذلك لا يتدخّل، لأنه محبة. هذا يتعلّق بنا، لأن الانسان هو المسؤول عن تأنيس العالم والبشرية.

المحبة الخالقة تشتمل على التعرّض للصليب

لا شك انكم تقولون لي: كيف يمكن ان يدع الله الانسان يتألّم؟ اني أومن ايمانًا ثابتًا بأن الفعل الخالق يشتمل على التعرّض للصليب. فصليب المسيح هو في داخل الفعل الخالق وهو العمل الذي يهب الله به دائمًا لحريتنا ان تخلق نفسها، وهذا ما لا يتم بدون ألم. لكن الله نفسه يدخل في هذا الألم ويموت منه على الصليب. ورد في رؤيا القديس يوحنا: «يُذبح الحَمَل (اي الابن) منذ انشاء العالم». وهذا يعني، بوجه من الوجوه، أنه مذبوح منذ الأزل في قلب الله. فالفعل الخالق يشتمل على ذبيحة الابن.

لو كان الله يتدخل ليحول دون عذاب الانسان، لربّما استطعنا ان نقول، على وجه التقريب، إنه يحبّنا بالحيلولة دون عذابنا. ولكن، ان تقصَّينا الأمور، تصوَّرنا محبة الله حبًّا ساذجًا لا يؤخذ على محمل الجد. ما هو في قلب الفعل الخالق هو الاحترام المطلق لخليقة عليها ان تخلق نفسها ولا تستطيع ذلك بدون ألم، مهما يكن من امر الخطيئة، فمن الواضح انها تعقّد الامور.

أجرؤ على التمييز بين مستويَي محبة. انها طريقة في الكلام، ولا شك. مستوى أسفل حيث يتدخل الله للحيلولة دون عذاب الانسان، ومستوى أعلى

حيث يحترم على الاطلاق الخليقة التي عليها ان تخلق نفسها. قال لي فيلسوف مؤخّرًا: «أتبلغ هذا المبلغ؟» أجبته: «نعم، ابلغ هذا المبلغ. فمن ادرك معنى المحبة في صميم اعماقها، ادرك معنى عدم تدخّل الله».

اذا تدخّل الله، سواء اكان في الانجيل عن طريق المعجزات، ام في حياة بعض الناس عن طريق الاشفية مثلاً، فلأنه حاضر لبداياتنا المتواضعة، حيث لا تزال رغبتنا بشرية، وحيث يدور الكلام على الحاجات اكثر مما يدور على الرغبات. والغاية من ذلك تبقى الانتهاء بنا الى الجلجلة حيث لا وجود لأيّ تدخّل. ففي الجلجلة الصمت والغياب، وفي تلك الساعة تنكشف المحبة في صميم اعماقها.

أجرؤ على الختام بتلك المفارقة، معترفًا بأن الموضوع متعقّد. احفظوا على الاقل أن هناك صورًا خطرة لا بد من استئصالها مهما كلّف الأمر. وبما اننا لا نستطيع الاستغناء عن الصور، يجب ان نستبدل بها صورًا اقلّ خطأ نقتبسها من عالم الإبداع الفني وعالم الحب. ويجب، في قلب كل ذلك، ان نتمسّك بطرفَي السلسلة: من جهة بأن الله هو الذي يخلق، ومن جهة أخرى بأن ما يخلقه هو قدرة الانسان على خلق نفسه وعلى الكيان في نفسه وبنفسه.

الخطيئة الاصلية
جميع الناس خاطئون في اصل كيانهم

ثلاث ملاحظات تمهيدية :

١) لماذا الكلام على الخطيئة الاصلية؟ لم يأت يسوع قط على ذكرها ولم يرد ذكرها في الانجيل ، مباشرةً على الاقل. أمَّا قانون الايمان ، فنعترف فيه بـ « معمودية واحدة لمغفرة الخطايا » ، بدون ذكر صريح للخطيئة الاصلية . ولا عجب في ذلك ، فإن مركز قانون الايمان هو اتّحاد الله والبشرية في يسوع المسيح .

ما يجب ان نفهمه هو أن العَرض العقائدي ، كعرض الخطيئة الاصلية ، يبقى دائمًا توضيحًا للايمان لوجه من وجوه تلك الحقيقة المركزية . فكل عَرض عقائدي هو ضوء يصدر عن سرّ المسيح ويسلّط على وضعنا البشري . ومجمل العقائد هو مجموع الإثباتات التي كان لا بدّ منها على مر التاريخ ليُقبَل نور المسيح كما يجب .

٢) وبالتالي ، ليس المقصود ان يُنظر الى الخطيئة الاصلية انطلاقًا من رواية سفر التكوين وحدها ، بل من المسيح يجب الانطلاق . فالعقيدة والتوضيح الايماني يبقيان دائمًا على مستوى العهد الجديد (وهو يلقي الأضواء على العهد القديم ويتبنّاه) . والعرض الايماني في شأن الخطيئة الاصلية هو نتيجة لتفكير الكنيسة انطلاقًا من :

– اختبارنا : لا يخلو العالم من الخطيئة ، حولنا وفينا : هذا امر واقع .

– المعمودية، فقد رأى فيها التقليد ولادة جديدة في المسيح.

– بعض فقرات العهد الجديد، ولا سيّما الرسالة الى اهل رومة (١٢/٥ ت)، حيث كتب القديس بولس ما مفاده: «كما انّكم، انتم اليهود، تقولون إننا جميعًا متضامنون في آدم، فأنا بولس اقول لكم: فما أحرانا ان نكون متضامنين في يسوع المسيح القائم من الموت». وكثيرًا ما يسمّي بولس المسيح آدم الجديد. فقبل ان يُعدّ آدم الخاطئ الأول (اذ لا بد من ارتكاب خطيئة اولى!)، يجب ان يُعدّ صورةً تمهّد لآدم الجديد، «صورة للآتي بعده» (روم ١٤/٥)، اي المسيح. وعلى هذا الوجه فكّر آباء الكنيسة في القرون الأولى، وعلى رأسهم القديس ايريناوس، اسقف ليون في القرن الثاني: «لمّا خلق الله الانسان، فكّر في المسيح».

٣) يُستخلص ممّا سبق أننا نُخطئ دائمًا في البحث اللاهوتي، إن عزلنا عقيدة من العقائد. ادّعى بعضهم، على سبيل المثل، القيام بعرضٍ للدين المسيحي انطلاقًا من الخطيئة الاصلية وحدها، كما لو كانت الزلّة، الوارد ذكرها في سفر التكوين، نقطة الانطلاق التي قام عليها الدين المسيحي.

لقد أدّت طريقة تربوية معيّنة الى تصوّر الاشياء تصوّرًا كاريكاتوريًا يسمّى «ضربة الرصّاص الإلهي»: كان الله، وهو الرصّاص الأكبر، قد صنع العالم وما فيه من شبكة أنابيب تؤدّي وظيفتها على أحسن وجه. لكن الانسان توصّل الى تدمير هذه الشبكة. فعزم الرصّاص على ارسال ابنه ليُصلح كل شيء، فتؤدي الشبكة وظيفتها على وجه افضل ممّا كان في التصميم الأوّلي. لا، بل الدين المسيحي كله مبنيّ على يسوع المسيح. سبق ان اتّخذنا عادات سيئة فكنّا نميل الى التشديد حيث لا يجوز. ان الكنيسة تتقدّم، لا اذا أنكرنا اليوم ما كنّا نعتقد به في الامس، بل اذا قضينا على العادات السيئة، واذا تخطّينا التشوّهات التي لا يمكن تجنّبها (انها عابرة شرعًا، ولكنها متأصّلة فعلاً، كجميع العادات) وعدنا فوجدنا ايمان الكنيسة في وجهه التقليدي الافضل.

وضع آدم هو وضعنا

لا بدّ من العدول عن تلك الفكرة الاسطورية بكل معنى الكلمة والقائلة بوجود زمن عاش فيه الانسان ، قبل ارتكابه الخطيئة ، في حالة سعادة وكمال لا تشوبهما شائبة . كتب احد علماء اللاهوت المعارضين : «لا تفرض العقيدة هذا التأويل ، وبالتالي لا يفرضه الكتاب المقدس أيضًا . ولو كان الكتاب المقدس يفرضه ، لفرضته العقيدة أيضًا» .

من المعروف أن الفن الأدبي المستخدَم في الفصلين الثاني والثالث من سفر التكوين هو الفن الحِكَمي ، وهو يعبّر عن تفكير «الحكيم» واختباره ، وكل ذلك في صيغة الامثال والحِكَم والخطب ، وهدفها ان تنقل الى السامع والقارئ تعليمًا له مدلول شمولي . فهناك امثال او حِكَم لغزيّة . اليكم مثلاً : «الباب يدور على مفاصله ، والكسلان على فراشه» (مثل ٢٦/١٤) . وهو لُغز يمكن تأويله على الوجه التالي : «مَن الذي يدور كالباب على مفاصله؟ الجواب : هو الكسلان على فراشه ! » . في ذلك ما يشبه الأُحجية . لكن النصوص الحِكَمية لا تحتوي على الألغاز الفكاهية او الحِكَمية الشعبية فقط ، بل هناك أيضًا الألغاز الكبرى في الحياة والموت والعالم ومصير البشرية .

ففي الفصلين الثاني والثالث من سفر التكوين ، نرى انفسنا ، لا امام رواية تاريخية (كسيرة داود وسليمان) ، بل أمام رواية اسطورية محض ، لا أمام قضية فلسفية بالمعنى العصري ، بل أمام نص حِكَمي يبلغ ذروته في حلّ لغز ، في حل اللغز الكبير الذي يشكّله وضع الانسان في العالم وأمام الله . وهذا النص هو ، في الوقت نفسه ، ثمرة اختبار اسرائيل وتفكير الحكماء .

وما اراد كاتب هذين الفصلَين ان يعرضه لنا هو وضع الانسان أوّلاً ، ايّ انسان كان ، سواء أكان انسان القرن العشرين ام انسان اي زمن كان ، بالنسبة

الى الله وبالنسبة الى الخطيئة. ان كلمة «أدم» العبرية تعني، بحسب اشتقاقها، الارض والتربة والطين الاحمر. فـ«آدم» هو الارضي والطيني والآتي من الارض. قد أُدهشكم بما سأقول، ولكني اقوله مع ذلك، لا كرأي خاص، بل باسم الكنيسة: قالت الكنيسة إن سبب الخطيئة هو آدم، لكنّها لم تقل قط من هو آدم. ومعظم علماء اللاهوت المعاصرين يسلّمون بأن آدم هو البشرية كلّها. وبالتالي، فإن سيرة آدم التي تُروى لنا هي سيرتنا نحن أيضًا، وخطيئته هي خطيئتنا.

صحيح ان الرواية تفيدنا بأن آدم خُلق في حالة القداسة والبِرّ. أفيجب أن نتصوَّره انسانًا كامل العقل والحرّية، نوعًا من الانسان المتفوِّق على البشر الذين نعرفهم؟ لا يوافق هذا أبدًا ما يقوله العلم الحالي في الناس الأولين الذين خرجوا شيئًا فشيئًا من الحيوانية. لا حاجة أبدًا الى ان نتصوَّر، في بداية البشرية (اي قبل مليونَي سنة أو ثلاثة ملايين)، انسانًا متفوِّقًا، واعتقد انا شخصيًا بأن من الافضل ان نتجنَّب هذا التصوُّر.

كمال آدم كمال دعوة

ما يعرضه لنا الكتاب المقدس هو الغاية التي جعلها الله للانسان، اي تأليهه. فكمال الانسان الاول هو انه ليس كسائر كائنات الطبيعة من حيوان ونبات، بل ان الله دعاه منذ البدء الى غاية الهية بكل معنى الكلمة: دعاه الى الدخول في محبة الله والى المشاركة في حياة الله نفسها للأبد. وما إن تفتّح عقله حتى رأى أنه لا يستطيع ان يعيش كسائر كائنات الطبيعة. فلا تحتاج تلك الكائنات الى ان تصبح حرّة، أمّا هو فكان عليه ان يصبح ما يجب عليه ان يكون. وبعبارة أخرى، إن كمال الانسان هو كمال دعوة، لا كمال وضع. وهذا ما يعلّمنا الكتاب المقدس ايّاه بقوله إن الانسان خُلق «على صورة الله ومثاله» (تك ١/٢٦)، علمًا بأن علماء اللاهوت يفسّرون المثال بمعنى المشاركة في حياة الله نفسها.

يهب الله للانسان القدرة على ان يصبح كاملاً ، لأنه يريد ان يكون الانسان كاملاً ، على صورته . اكرّر أن الله لم يصنع حريةً ، فإن على الانسان المخلوق في امكانية الحرية ان يجعل نفسه حرًّا . يخلق الله الانسان قادرًا على خلق نفسه . لذلك لا أُحب عبارة : ان الله خلق الانسان حرًّا . ففيها خطآن : استعمال فعل خلق في صيغة الماضي والشعور بأن الحرية هي هدية ونوع من الشيء الجاهز ، في حين ان الحرية هي في الاساس عكس الشيء الجاهز . فليست الحرية حرية إلاَّ ان خلقها الانسان نفسه .

نستخلص ممَّا سبق ان كمال آدم ، الذي نحن بصدده ، ليس هو حالة كمال ، بل بداية سيرة كمال تنتهي في مجد الله . هذا ما يريده الله ، فهو يخلق الانسان قابلاً للتأليه . وهذا هو اعمق تحديد ممكن للانسان ، يتخطَّى كل ما تقوله لنا العلوم الانسانية . وهذه هي دعوته ، وهي في منتهى التطلُّب .

لكن الانسان لا يستطيع ان يتألَّه وحده ، بل عليه ان يتقبَّل عطية الله ، فإن الله هو الذي يؤلِّه . لا يستطيع الانسان ان يجتاز الهوَّة اللامتناهية التي تفصل بينه وبين الله ، لأن اصله ارضي وجذوره كونية . إنه «ترابي» . لا يهمّ كيف تتصوَّرون هذا الاصل الترابي ، سواء أُأخرج هو مباشرةً من التراب ، كما ورد في سفر التكوين ، ام كان نتيجة مراقٍ حيوانية كثيرة ، كما يسلّمون به في ايامنا .

وهذا الاصل الترابي هو مصدر اختلاف بين الله والانسان ، فإن صوت الطبيعة لا يزال يخلّف في الانسان صدى دعوة الى العيش ، لا من اجل الله وسائر الناس ، بل من اجل نفسه وحدها كسائر كائنات الطبيعة ، فهي تعيش بحسب غريزتها . إن بسّطنا الامور ، نستطيع ان نقول ما يلي : في الانسان قوة مزدوجة .

— قوة ثِقَل وقصور ذاتي تدعوه الى العدول عن ان يكون انسانًا حرًّا ، وتدفعه الى العيش كسائر كائنات العالم ، فهي لا تتمتّع بحرية يجب عليها ان تبنيها (كالنبات والكلب والقِطّ) .

– وقوة رافعة تدعوه الى بناء حريته ، علمًا بأن الله سيوصلها بنعمته الى حريته هو.

فهاهوذا تتنازعه – ولا يمكن ألاَّ تتنازعه ، اذ ان الله يدعوه الى المشاركة في حياته – قوَّة ثِقَل تجرّه الى الاسفل (الى طريق استعباد حريته) وقوة أخرى رافعة (وهي طريق نموّ حريته).

الخلاصة ان الانسان الاول لم يكن في وضع يختلف عن وضعنا. وباطلاً نحاول ان نتصوَّر أيًّا كانت خطيئته. كثيرًا ما يتصوَّر الناس خطيئةً خارقة الجسامة. لكن ذلك يفترض ان يكون آدم قد تمتّع بعقل تامّ النموّ وبحرية كاملة. اكرِّر ان هذا النوع من الانسان ليس هو ما نجده ، عن طريق العلم ، في اصل البشرية. على كل حال ، من هو آدم؟ يفيدنا العلماء بأن البشرية ، على ما يُرجَّح ، لا تتحدّر من زوجَين وحيدَين ، بل ظهرت في زمن واحد على وجه التقريب في عدّة اماكن من الكرة الارضية.

هذا هو وضع الانسان. فالخطيئة ، اي الخضوع لقوة الثِقَل ، مرتبطة بتفتّح الضمير ، حين يشعر الانسان بأنه كائن مختلف عن الآخرين وبأن عليه ، بهذه الصفة ، ان يبني حريته بالاستناد الى تكييفاته. ان الله يطلب من الانسان ان يحقّق نفسه بالاتّجاه نحو الله واختيار الله وتقبّل عطية الله. ولا يستطيع الانسان ان يكون انسانًا حقًّا إلاّ باختيار الله مركزًا. والخطيئة الاصلية هي ان يختار الانسان ، كل انسان ، ان يحقّق نفسه بسدّ أُذنيه لئلاَّ يسمع دعوة الله الى خلق نفسه ، وان يفضّل العبودية الرخيصة على الحرية ومتطلّباتها.

هذه هي الخطيئة الاصلية : ليس المقصود أصلاً زمنيًا ، بل اصل الطبيعة البشرية وجذور الوجود نفسها. ولذلك تبدو الخطيئة الاصلية غير معقولة بمعزل عن دعوة الانسان الى التأليه. اذا كان هناك حجر عثرة في تربية الاولاد والشباب المسيحية ، فهو ان مربّيهم يحدّثونهم عن الخطيئة الاصلية قبل التأكّد من انهم فهموا ان جوهر الايمان هو الايمان بأنهم مدعوّون الى المشاركة في الحياة الالهية. لا معنى للعقائد المسيحية إلاَّ بالنسبة الى ذلك الجوهر! فالخطيئة

الاصلية هي المسافة التي لا تقاس بين ما هو الانسان المستند الى قواه وما عليه ان يكون بالمشاركة في حياة الله.

كيف تنتشر الخطيئة الاصلية وتنتقل؟

لا بد من العدول عن الفكرة القائلة بأن الانسان الاول كان نقطة انطلاق سقوط رهيب شمل التاريخ كله. نجعل من الخطيئة بداية تاريخنا ونتصوَّر أن حالة آدم قبل الخطيئة لا تشبه ابدًا الحالة التي عرفها الانسان بعد ذلك. فنسأل بشيء من السذاجة: لو لم يرتكب آدم تلك الحماقة، ولو كان اكثر حكمةً وأشد حزمًا في معاملة امرأته، لجنَّبنا كثيرًا من الكوارث، ولَكُنَّا في السعادة التامّة، ولَكُنَّا بقينا راسخين في الفضيلة للأبد. بالصراحة، ما ادراكم بذلك؟ كلّه خيالي محض، فهو أرض مفضَّلة للصبيانية.

لنفترض ان الانسان الاول لم يخطأ، فما الذي يضمن لنا أن الانسان الثاني لن يخطأ؟ والثالث او الرابع؟ إن أثَّرت فينا خطيئة الانسان الاول كل هذا التأثير، فلماذا لا تؤثّر فينا بالقدر نفسه خطيئة الانسان الثاني او الثالث؟ يبدو كل ذلك غريبًا! أستخلص منه ما يلي: نتصوّر بشرية في وسعها ان تصل الى مجد التأليه باستغنائها التام عن يسوع المسيح. نتصور أن آدم، لو لم يخطأ، لاستطاع وحده ان يقود ذريته كلها الى التأليه. لكنه ارتكب هفوة مع الاسف، فوجب ان يأتي يسوع المسيح للتكفير عنها!

نحتاج الى مزيد من التفكير! تكفينا قراءة العهد الجديد لنرى أن هناك مصدرًا واحدًا لتأليهنا وهو المسيح. منذ الأزل اراده الله، ولقد خُلقنا فيه، كما يقول القديس بولس (قول ١/١٦). وهذا يعني ان البشرية كُتب لها منذ نشأتها ان تدخل في البنوّة الالهية بالمسيح وفيه.

كان بعض الوعَّاظ يُشعروننا بأن خطيئة الانسان الأول اهانت الله، حتى إنه قضى بأن يُستعبد جميع الناس بعد ذلك للخطيئة. أَعترف بأنه استنتاج

غريب ، اذ ليس همّ الله ان يستعبد البشر للخطيئة ، بل ان يخلِّصهم منها. وليس هو الذي قضى ، بقرار من ارادته العليا ، ان يُسند الينا خطيئة الانسان الاول ، كما لو استاء من تعدّي الانسان الاول على شريعته. كلاَّ ! لا يمكن ان تريد الحرية المطلقة شيئًا إلاَّ التحرير.

واذا كانت الخطيئة تنتقل ، فلأن الانتقال الى الآخرين هو من طبيعة كل خطيئة. ولا تنتقل الخطيئة انتقال الفعل الاجرامي. فحين نرتكب خطيئة ، تبقى هذه الخطيئة خطيئتنا ولا تنتقل الى اولادنا او الى جيراننا. ومن هذه الناحية ، تدعو عبارة «خطيئة أصلية» الى الالتباس ، فإن الخطيئة الاصلية تمتاز عن الخطيئة الشخصية بغياب الموافقة الشخصية. فليست الخطيئة الاصلية التي فينا عملاً خاطئًا ، بل هي نتيجة فينا لجميع الخطايا المرتكبَة منذ الخطيئة الاولى. انه وضع بالنسبة الى دعوة.

من شأن كل خطيئة ان تحرِّك دفعة موجات تعكّر صفو العلاقات بين البشر. فإن كان انسان لا يعيش إلاَّ في تسلُّط فكرة المال عليه ، تُفسَد صلته بالآخرين. وان كان رجل «دون جُوانًا» لا يفكِّر إلاَّ في الدعارة ، تبدو له جميع غواني العالم مَدعاةً الى اللذّة ، فتُعكَّر الأمور وتُفقَد الأخوَّة. ان اصغر خطايانا هي تحريض على الشرّ ندفنه في ضمائر الآخرين. فكلَّ مرة اتصرّف بأنانية ، احمل الآخرين على الاقتداء بي. وكلَّ مرة أسعى الى الاستمتاع ، أُحرِّض الآخَر على التصرُّف مِثلي. فكل خطيئة تصبح سبيلاً يسلكه ميل الى الخطيئة للتسلّل الى ضمير الانسان.

يشكّل مجمل العلاقات الانسانية ما يمكننا ان نسمّيه ضمير البشرية المشترك ، وارادة الجنس البشري المشتركة. والاعمال السيّئة التي يرتكبها جميع الناس تسهم في نشر الخطيئة. وكل عمل سيّئ نرتكبه يشبه موجةً تنتشر عن طريق موصِلات العلاقات الانسانية. وعلى هذا النحو تلتحم جميع خطايا البشر وتكوِّن جسم خطيئة حقيقيًا. فالولد الذي يولد يدخل في جماعة خاطئة. اني خاطئ منذ أول لحظة من وجودي ، فإن أول لحظة من وجودي أعيشها في

عالم خاطئ. لا يستطيع اي انسان ان يكوّن نفسه بدون مساعدة الآخَرين. لكن الآخرين يساعدونه بالقدر نفسه على تدمير نفسه وعلى بنائها. فعلى هذا الوجه يمكننا ان نفهم كيف تنتشر الخطيئة الاصلية.

لكن العالم هو، في الوقت نفسه، جسم خطيئة وجسم نعمة. فإذا كان لنا تأثير في حقل الخطيئة، فلنا تأثير في حقل الخير أيضًا، والخير، ايًّا كان، هو إسهام في العمل الالهي.

عقيدة الخطيئة الاصلية عقيدة لا بدّ منها لصدق صلتنا بالله

خاطئون غُفر لنا في اصل كياننا

اذا كانت الكنيسة حريصة على عقيدة الخطيئة الاصلية، فلأنها لا بدّ منها لصدق صلتنا بالله. فإن أهملتُ الخطيئة الاصلية، لم تعد صلتي بالله صلة صادقة. من الواضح ان ذلك لا يظهر لأول وهلة، فيجب اثباته. ولأنه لا يظهر لأول وهلة، يميل كثير من الناس الى الاستخفاف به، قائلين: على كل حال، سواء أكانت هناك خطيئة اصلية ام لم تكن، أيُّ تغيير يطرأ على حياتي؟ في الواقع، يطرأ تغيير كبير.

روى جان پول سارتر، في كتابه «الكلمات»، القصة التالية: لمّا كان حديث السنّ، عصى والديه ولعب بعيدان الكبريت، فأحرق سجّادة. لكنه ستر الضرر على قدر الامكان وقفز الى ركبتَي أمّه ولم يفاتحها بالخطأ الذي ارتكبه. وأضاف سارتر: صلة كاذبة. فلو قلتُ لأمي: استغفركِ يا أمّاه، فلقد عصيتُ أمركِ ولعبتُ بعيدان الكبريت فأحرقت السجّادة، فأرجو ان تغفري لي وتسمحي لي بتقبيلك، لكانت صلتي الطفلية بأمّي صلة صادقة.

ان لم يعترف الانسان بأنه خاطئ ، كانت صِلته بالله كاذبة . فحين تحدّثنا الكنيسة عن الخطيئة الاصلية ، تريد ان نفهم أننا ، في اصل كياننا ، لسنا مخلوقات محدودة فقط ، بل مخلوقات خاطئة . ففي أصلنا اتّجاه ليس اتّجاهًا نحو الله .

في الحقيقة (وأظن أن الأمر واضح جدًا في رياضات القديس اغناطيوس التي تستغرق ثلاثين يومًا والتي يستغرب بعض الناس ان يخصَّص فيها اسبوع كامل للتأمّل في الخطيئة) ، ان لم اعترف بأني عبد ، لا يمكنني ان اعرف ما هي الحرية ولا استطيع ان انطلق نحو محرِّر . أسوأ العبوديات هي العبودية التي تجهل نفسها . وبالنسبة الى الحرية فقط ، تبدو الحاجة ماسَّة الى ان يعرف الانسان انه عبد ، وإلاَّ فلا فائدة في الأمر . والمسيح المخلّص والمحرِّر هو الذي يحرّرنا ، لا من المحدودية فقط (نحن كائنات محدودة ، واذا ألّهنا ، وجب ان نكون محرَّرين من تلك المحدودية التي تضيِّق علينا من كل جانب) ، بل من عبودية الخطيئة أيضًا ، فهي تضاعف المحدودية . إنه تحرير من شأنه ان يبلغ بنا الى حرية الله نفسها .

فالصلة الصادقة بالله ، صلة الصدق بين الانسان والله ، هي صلة خاطئ غُفر له بلامتناهي محبة وغفران . من قال ان الانسان خليقة وان الله خالق ، قال الحق ، ولكن جوهر الأمور هو غير ذلك . فالمسافة الفاصلة بين ما نحن وإله المحبة الذي يؤلِّهنا هي أكبر بما لا حد له : فهي مسافة تفصل بين لامتناهي محبة يغفر وخليقة هي ، لا محدودة فقط ، بل خاطئة ومغفور لها أيضًا . باستثناء مريم العذراء وحدها ، يستحيل على الانسان ان يمثل امام الله مرفوع الرأس . واذا مثلتُ امام الله مرفوع الرأس مثولَ البريء ، كانت صلتي به صلة كاذبة ، وتجاهلتُ بالتالي ما هو نفسه بالنسبة إليَّ ، اي لا مَن يخلقنا فقط ، بل مَن يؤلِّهنا ويغفر لنا .

ليست الحقيقة الكبرى الخطيئة ، بل الغفران . ولا يكشف الله عن نفسه كشفًا كاملاً إلاَّ حين يكشف أنه قدرة لامتناهية على الغفران . لا اعلم هل

اختبرتم الغفران. أَمَّا انا فلم أختبره إلاَّ الى حد ما، فأنا لا اشعر بأني اُهنتُ في حياتي إهانة كبيرة. اُهنتُ في أمور صغيرة، لكني لا أشعر بأني وُجدت في ظروف مكَّنتني من الكشف عن مجانيَّة حبّي التامّة عن طريق الغفران. أعمق ما يمكننا ان نقول في الله هو انه قدرة لامتناهية على الغفران. لو لم نكن خاطئين، لعرفنا إلهًا يعطي، ولَما عرفناه إلهًا يعطي حتى الغفران، ولتساءلنا هل يواصل عطاءه بعد ان نكون قد أهنّاه. وبعبارة أخرى، لَما كنَّا نعرف حقيقة الله.

فهناك ثلاث درجات في مجَّانية محبة الله لنا:

- مجّانية المحبة التي تخلقنا
- مجّانية المحبة التي تؤلّهنا
- مجّانية المحبة التي تغفر لنا، اي التي تعيد لنا دائمًا ما نفقده دائمًا بالخطيئة.

لا تطلبوا من الكنيسة ما لا تدَّعي أنها تعطيه. فالكنيسة لا تدّعي ان خطيئة آدم هي تفسير للشر والألم. لكنها تؤكّد، في الوقت نفسه، على شمولية الخطيئة وعلى شمولية الغفران المحرِّر. لا يجوز الكلام أبدًا على الخطيئة الاصلية، بل يجب الكلام دائمًا على الخطيئة والغفران الاصليَّين، او على الخطيئة والفداء الاصليَّين، شرط ان يُعرف ان الفداء يعني التحرير. اذا كان تأليهنا نحن الخاطئين يسمَّى فداء، فلأن خلاصنا ليس في شكل نموّ فقط، بل بشكل اصلاح أيضًا. يريد الله ان يؤلّهنا، فيأتي يبحث عنا، لا في وضع مخلوقات بريئة، بل في وضع خاطئين، فيكون نموّنا، وهو يسير نحو الله نفسه، في شكل اصلاح.

تحويل العطية الى دَين

الخطيئة الاصلية هي تحويل عطية التأليه الى دَين، وهي أخْذ ما يجب تقبُّله. «لن تأكل من هذا الثمر، لكن كل شيء لك، وسأُعطيك إيَّاه». ثمر الفردوس الارضي ثمر فج لا يستطيع الله ان يعطيه. ولا غنى عن الدور الذي يقوم به الزمن، والخطيئة الاصلية تقوم على الرغبة في شطب هذا الزمن، وعلى الرغبة

في الحصول فورًا على الثمر. انها الأخذ المستبدَل بالعطاء. يستهوينا الاستيلاء على الوضع الإلهي، مع أنه مقدَّم لنا. ان دعوتموني لتُروني اعمالاً فنّية جمعتموها ولتقولوا لي إنها لي وإنكم ستعطونني إيَّاها في وقت لاحق، فسرقتُ مسكنكم ليلاً واخذتُ ما اعطيتموني إيَّاه، تلك هي الخطيئة.

ليست حريتنا شيئًا جاهزًا. والرغبة في الاخذ هي الحيلولة دون عطاء الله، فإن الله لا يستطيع ان يعطي شيئًا جاهزًا. فلا بدّ من تقبّل التأليه. وفي اصل وجودنا وفي صميم خطايانا الحالية، نجد ذلك الفساد القائم على تحويل العطية الى دَين. إنه الفساد المطلق والرغبة في الاستيلاء او الأخذ، المستبدَلة بالرغبة في التقبُّل. لا تقلّ محبة التقبّل عن محبة العطاء، وما يمتاز به الدين المسيحي هو ان كل شيء يمكن ان نعيشه على طريقة التقبّل والعطاء.

اناشد المسيحيين بألاَّ يكونوا انتصاريين، وألاَّ يظهروا امام غير المؤمنين بمظهر من يستطيع ان يقدّم لهم تفسيرًا. لماذا الانسان خاطئ؟ لا جواب. ان الخطيئة هي في اصل وجودنا، ونحن أصلاً في ذراعي الله كما في ذراعي أبٍ يغفر: هذا هو المعنى، لكنه ليس بتفسير. وليس جواب الله جوابًا نظريًا، فإن الله يدخل في عالم الخطيئة ويموت منه. هذا هو تواضعه.

ما من مسيحي يستطيع ان يقول: الجواب في حوزتي. ليس بوسعه إلاَّ ان يعيش هذا الجواب بالمحبة، كما ان الله أحب الى اقصى حدود المحبة. وما من مسيحي يستطيع ان يفتخر بحيازة الحقيقة عن الخطيئة، وعن الشر والألم الناتجَين عنها، لأنه لا يستطيع الحيلولة دون طرح السؤال الدائم: أليس هناك أناس عاشوا عيشة أُبعد عنها كل مظهر رجاء، عيشة سادها الليل وخلت من اي بصيص نور؟ يرجو المسيحي الحصول على معنى تام (اذكّر بأنْ لا جواب نظري على الـ «لماذا؟» الأخير، بل أن هناك رجاء)، ومع ذلك فعليه ان يكون متواضعًا الى اقصى حد وان يلزم صمتًا بسيطًا أمام اختبار اليأس واللامعقولية الذي يختبره الملايين من الناس حوله. ما نستطيع ان نرجوه لمقاومة الخطيئة هو الانتصار الأخير، اي الحياة الأبدية في المحبة.

قيامة الجسد او تأليه الانسان والكون

الجسد في العربية هو جسم الانسان. لكن المسيحيين يستعملون أيضًا هذه الكلمة، الى جانب كلمتي لحم وبشر، لترجمة كلمة «بَسَر» العبرية وكلمة «ساركس» اليونانية. وفي هذه المحاضرة تأتي كلمة جسد تارة بمعنى جسم الانسان وتارة بمعنى «بسَر» و«ساركس»، كما في العنوان.

لا يجعل اليهودي من «بَسَر» نقيض الروح، لأن «بَسَر»، في نظره، هو الانسان كله، في ضعفه وعدم ثباته، بل وفي تأصّله أيضًا في الطبيعة والبيئة والعِرق. و«بَسَر» يتضمّن أيضًا جميع العلاقات مع الاشخاص والاشياء. وحين نقول إننا نؤمن بقيامة الجسد – وهذا بند من بنود قانون الايمان – نقول اذًا إن الانسان كله يقوم من الموت.

ألفت نظركم أيضًا الى ان صيَغ قانون ايماننا لا تذكر قيامة الاجساد. في قانون ايمان الرسل يدور الكلام على «قيامة الجسد»، وفي قانون ايمان نيقيا، الذي نتلوه في اثناء القدّاس، يدور الكلام على «قيامة الموتى». ان الجِسم يندرج في مجموعة أوسع بكثير يسمّيها الكتاب المقدس جسدًا.

ان ايمان الكنيسة بقيامة الجسد، اي بقيامة الانسان والعالم كله، صدم الفكر الوثني صدمةً شديدة، فلا نستغرب اليوم بأية مشقّة تقبَّل المسيحيون الذين من اصل وثني كلام الكتّاب المسيحيين الأولين. فجدير بالذكر أن عددًا كبيرًا من مؤلّفات آباء الكنيسة خُصِّص للبحث في هذه العقيدة. وبما ان الدين

المسيحي هو تعليم في الحياة ، أعود فأطرح صراحةً السؤال الذي سبق ان طرحته في شأن الثالوث الاقدس : ان صرَّح مجمع ، بفرض المستحيل ، أَنْ لا قيامة للجسد ، أيُّ تغيير يطرأ في الواقع على حياتكم اليومية ؟

عدم خلود النفس ، بل قيامة الانسان كله

لقد تلاشى وافتقر غنى الايمان المسيحي بسعادتنا الأبدية ، بقدر ما انصرفنا قليلاً عن اتّباع الطريقة التربوية الالهية المعبَّر عنها في الكتاب المقدس. وأخطر ما في الأمر هو أننا نخلط بين خلود النفس وقيامة الجسد. ونجعل من السماء مجرّد مكانٍ للنفس الخالدة. والنتيجة أن هذا العالم ، الذي نعيش فيه ونعمل ونتألّم مدة اربعين سنة او ستين او ثمانين ، يفقد لونه وقيمته. فلا تبدو لنا قيمة عالم اليوم وقيمة مهمّاتنا البشرية ، سواء أكانت عائلية ام اجتماعية او نقابية او سياسية او ثقافية ، سوى أمر ثانوي تمامًا بالنسبة الى العالم الآخَر ، الى الحياة الأخرى.

فكأَن هناك عالمين وكأن هذا العالم الذي نحن فيه قليل الفائدة بالنسبة الى العالم الآخَر ! إننا نخلط بين العالم الآخَر والعالم الذي صار آخَر ، مع ان الفرق بينهما كبير ! بالمعنى الدقيق ، ليس هناك من عالم آخَر ومن حياة أخرى ، بل ان هذا العالم يصير آخرَ تمامًا وهذه الحياة تصير أُخرى تمامًا. اذا رأيتم رجلاً في الستين من عمره سبق ان عرفتموه شابًا ، تقولون إنه هو نفسه ، ولا تقولون إنه رجل آخَر. لكنه تقدّم في السن فأصبح آخَر تمامًا ، مع أنه بقي هو هو. يجب علينا أن نتكلّم ، لا على عالم آخَر ، بل على العالم الذي بالقيامة يصير آخَر تمامًا.

فإن تكلّمنا على عالم آخَر ، يُخشى ان تحملنا اهميته الجوهرية على عدّ هذا العالم مجرَّد ميدان امتحانات قبل المكافأة. والله أعلم ان السماء، في نظر العديد من المسيحيين، هي مكان المكافأة! فإن أفرغنا السماء من جوهرها وجاذبيتها، نكون قد افرغنا الارض أيضًا منهما ، فتمسي السماء مجرّد خلود للنفس وتمسي الارض مجرَّد مادّة زائلة وآلةً لإنتاج أرواح محض. ترون اذًا أن الرهان هو على جانب كبير من الاهمية.

سعادة إلهية جماعية محسَّدة

ما تقوله الكنيسة هو في الاساس ما يلي : ستكون سعادتنا الأبدية سعادة انسان حقًا ، اي مطابقة لطبيعة الانسان :

– اجتماعية او جماعية (لأن الانسان كائن اجتماعي ، فالسعادة الفردية لا تطابق طبيعته).

– محسَّدة (لأن الانسان ليس روحًا محضًا).

– إلهية ، تقوم على وحدة الحياة مع الله (لأن الانسان ليس كائنًا منغلقًا على نفسه ، بل منفتحًا لِلاّمتناهي ، او ، بعبارة أخرى ، ان أحد ابعاد الانسان هو طموحه الى اللامتناهي).

وهذه الوجوه الثلاثة ترتبط بعضها ببعض ارتباطًا وثيقًا في عقيدة قيامة الجسد. اعني ان مثل تلك السعادة هي بشرية تمامًا ، فلا يمكن ان تحقَّق إلاَّ في قيامة الجسد وبها. فلو كان الانسان لا يقوم بكامله ، جسدًا ونفسًا ، لَما كانت سعادتنا الابدية سعادة انسان ، بل مكافأة خارجية ، تُلصَق بالانسان من الخارج ، كالدرَّاجة التي تُهدى الى صبيّ نجح في امتحانه ، ولَما كانت السعادة الأبدية سعادتي أنا الانسان بالطبيعة ، بل سعادة كائن جديد ومختلف. ومثل هذه الفكرة لا يطاق. فالمسألة مسألة كرامة على ابسط وجه ، كما يذكّرنا به بعض الملحدين : اني انسان ، وكرامتي هي ان اكون انسانًا وبالتالي ان ابقى

انسانًا للأبد. واذا صحّ أنْ لا قيامة للجسد بدون عطية الله الذي يدعونا الى المشاركة في حياته، فإن هذه العطية وهذه الدعوة تفترضان ان نبني انفسنا بكل نشاطنا وحياتنا الحاضرة. لا شك ان المكافأة وردت في الانجيل: «إن أجركم في السموات عظيم»، لكنها وردت بالمعنى الذي نقول به ان الحصاد هو مكافأة الزرع. فالمقصود هو المكافأة الذاتية.

ولذلك تبدو الحياة الابدية السعيدة، بحسب تعليم الكنيسة، الاستمرار المؤلّه للانسان كله: أنا وأنا كلّي. سأكون أنا وأنا كلّي سعيدًا للأبد. وحين اقول: انا كلّي، اريد بذلك علاقاتي كلها: فإن كنت متزوّجًا، فزوجتي. وان كنت أبا عائلة او أم عائلة، فأولادي. واريد بقولي: اخوتي وأخواتي وأصدقائي وجماعتي الدينية ومحيطي الاجتماعي ومحيطي المهني وعملي: لا الهدف الذي اجعله في عملي، بل العمل نفسه. أفاتحكم بهذا السرّ: حين وضعت كتابي الصغير في «تواضع الله»، قال لي بعض الناس: «فيه شواهد موسيقيين وشعراء!». أجبت: «نعم، فإني لا أريد ان اصرف جميع الذين أسهموا في جعلي ما انا، بل اريد ان اعود فأجدهم طوال الابدية. وإلاَّ لا اكون انا».

وحين اقول: الانسان كله، أريد به الكون كله، لأننا مرتبطون بالكون كله، اي بعالم المادة والحياة النباتية والحيوانية. نستوعب الكون حين نأكل او حين ننظر بإعجاب الى عمل فنّي. وحين أقضي عدّة ساعات في مشاهدة البارثينون ثم اعود فأنزل من الأكروبول، يصبح البارثينون جزءًا مني، اذ اني مختلف عمَّا كنت قبل ان أراه. فسيقوم البارثينون فيّ وبي.

لا يستطيع الانسان ان يكون منفصلاً عن الكون، بل هو متضامن معه. اجسادنا والكون مفصَّلة بالقماش نفسه: فنحن بحاجة الى الكلسيوم والأملاح الفسفورية الخ، وانتم أعلم مني بذلك! ليس الانسان، بالنسبة الى العالم، كالتمثال الموضوع على قاعدة، بل بالاحرى كالزهرة بالنسبة الى الساق، فهي جزء لا يتجزأ من الساق كله. نحن والكون واحد، فكل ما نقوله في اجسادنا ينطبق على الكون. قال بوسويت، في عظة شهيرة ألقاها بمناسبة عيد البشارة:

«إن الانسان عالم صغير في داخل العالم».

وبناءً على ذلك، فالايمان بقيامة الجسد هو، في الواقع، الايمان بقيامة العالم. تشعرون منذ الآن بأهمية مهمّاتنا الارضية، وهي تقوم دائمًا، بطريقة مباشرة او غير مباشرة، على تحويل العالم وعلى تأنيسه. فالعالم يقوم. ما أبعدنا عن نظام فلسفي يكتفي بالدلالة على خلود النفس، ويقول بأن العالم كما هو ليس له اية قيمة ثابتة. ففي هذه الحال، نكون أمام سعادة روح محض لا تلبث ان تمسي سعادة مبنية على الفردية. ان الحقيقة الموحى بها اغنى بما لا حد له: سعادة اجتماعية او جماعية، ومجسَّدة وإلهية، او، بعبارة اخرى، استمرار مُرَوحَن ومؤلَّه للانسان كله والكون كله. فلنحاول ان نفهم ما هو الجسد، وان كانت الخواطر التالية على شيء من الصعوبة.

قيمة الجسد.
لا نفس بدون جسد، ولا جسد بدون نفس

ما هو الجسد؟ ما هو جسدنا البشري؟ ليس غرضًا من مختلف اغراض العالم الطبيعي، وليس شيئًا من الاشياء، مع انه يبدو أوَّلاً بهذه الصفة: شيء ثقيل أغبش يفرض الحدود، ويظهر بمظهر مجموعٍ من الحدود ونوعٍ من السجن. فإن كنتُ هنا، لا اكون في مكان آخر. صحيح ان الولد يكتشف جسده أولاً، كما لو لم يكن جسده: فطرف رِجله الصغيرة هو شيء كالشرشف او الحِرام الذي وُضع عليه.

في الواقع، ليس الأمر على ذلك، وليس الجسد شيئًا. فالجسد هو أحد: جسدي هو أنا. إنه شيء ثقيل أغبش، نعم، إنه محدود ومحدِّد، نعم، إنه مجموع من المادة، نعم بمعنى من المعاني. لكن جسدي هو، على وجه

خاص ، بؤرة طاقات ، وطاقاتٍ ما أقواها وما أمرَنها ! إنه كتلة خلايا حيّة ، نعم ، ولكن انظروا ما تصبح هذه الكتلة في الرياضة او في الرقص.

وان كنتم رياضيين ، فكّروا في ما هو لاعب الهجوم في فريق كرة القدم : إنه على الملعب في كل مكان في آن واحد. وان كنتم فنّانين ، فكّروا في ما هو الراقص او الراقصة. اقرأوا الحوار الصغير الذي استوحاه پول ڤاليري من افلاطون وعنونه : «النفس والرقص». فالعنوان أولاً شديد الايحاء : ان النفس هي التي تتجسَّد أمام أعيننا المنبهرة في قفزات الراقص ، وهو أيضًا في كل مكان على خشبة المسرح : «تعلّمنا (الراقصة) ما نعمله ، كاشفةً بوضوح لنفوسنا ما تقوم به اجسادنا بغموض. وفي ضوء ساقَيها ، تبدو لنا حركاتنا المباشرة معجزات ، وهي أخيرًا تُدهشنا بقدر ما يجب». اراد ڤاليري ان يقول ، ان نقلتُه الى نثر بسيط ، أن فن الراقص او الراقصة يفيدنا عمَّا نحقّقه جميعًا ، من دون ان نشعر ، في الحياة العادية ، حين نمشي في الشارع او في حديقتنا.

ما اكثر الطاقات المبذولة ! وهناك الاتّصال بالآخرين ! وهناك أخيرًا التعبير المشرق على الحياة والقوة والجمال والذكاء ! قد تقولون لي : تمدح اجساد الراقصين ونحن لسنا براقصين ، تمدح اجساد الرياضيين ونحن لسنا برياضيين. لكن مديحي لأجساد الراقصين والرياضيين يهدف الى مدح اجسادنا نحن. فإن الرياضي والراقص يكشفان كشفًا رائعًا عن اجسادنا جميعًا ، فهو بؤرة طاقات.

انظروا الى اليد (ليس لعازفي البيان وحدهم يدان !). قال القديس توما الاكويني إن ما يقوم عليه الانسان هو العقل واليد. تبدو اليد مجرَّد رأس الطرفَين الاماميَين. لكن اليد ، عند الانسان الذي هو حيوان منتصب ، هي محرَّرة (لا يحتاج الانسان الى يديه ليمشي) ، وفي استطاعتها ان تُمسك كل شيء بدون الارتباط بأي شيء ممَّا تتملّكه. وهذا يعني أنها أروع دليل على الذكاء : فهي تبقى هي هي مع الحصول على علاقات شاملة. يضع الانسان يده على كل شيء ، وكل شيء يقع تحت يد الانسان. باليد يصنع الانسان العالم. واليد هي عاملة العقل وحضور عملي للعقل في العالم.

بعد ان مدح پول ڤاليري الرقص، وهو الذكاء نفسه المجسَّد في الرِجلَين والساقَين والجسد كله، يمدح اليد، فيتكلّم على «يَدَي الجرَّاح العالمتَين والبصيرتَين والحاذقتَين». كما ان الراقص يملأ خشبةَ المسرح كلها وان الرياضي يشغل الملعب كله، فالناس جميعًا بعملهم يملأون العالم بأجسادهم وبنشاطهم الجسدي. لا بدّ من القول (مع ان الأمر أصبح مبتذلاً، لكنه ضروري لحديثنا) بأن جميع منتوجات العمل والفن، من الريشة التي استعملتُها لخط الاسطر التي أمام عينيّ الى صواريخ روّاد الفضاء، هي امتداد لأجساد البشر، او، والأمر هو هو، حضورها الفاعل الممتدّ الى الكون كله. وفي اقصى حد، يصبح الكون كله جسد البشر.

لكن يد الانسان، في قدرتها على إمساك كل شيء، تفترض وجود الدماغ وترتبط به. يشرح لنا العلماء كيف ان وقوف الانسان على قدميه قد حرَّر المركَّب الجمجمي من نوع من النير العضلي كان يجمّد نموّه. وبعد ان رُفع هذا القيد، تمكّن البيت الذي يقي الدماغ القشري من النموّ. وفي هذا البيت أقام ذلك العقل الالكتروني الحيّ الهائل، وهو يحتوي، على اقل تقدير، على خمسة عشر مليار خلية: الدماغ. فهو الذي يمكّن من قيام لعبة الترابط اللامحدودة التي يعيش منها العقل ويولّدها.

ثم ظهرت الطَّلعة. قبل ان نقول: طلعة، لنقلْ: وجه. ان اليد هي التي تمكّن من ظهور الوجه البشري. فبغياب اليد، يعود الإقبال على اكل الاطعمة مباشرة الى الفكّ او المنقار او اللسان او الناب، وهذا ما يتطلّب شيئًا من العنف. وحين تُحرَّر اليد بفضل وقوف الانسان على قدميه، وتتناول الاطعمة، تُحرَّر الطلعة من العنف وتتقلّص وتتأنَّس للانصراف الى وظائف غير وظيفة الأكل. وعندئذ تصبح الطلعة وجهًا، اي ابتسامًا ونظرًا ولا سيّما كلامًا (علمًا بأن البسمة والنظرة هما أيضًا كلمات، بوجه من الوجوه).

لا بدّ من التشديد بعض الشيء على ذلك الشيء العجيب الذي نسمّيه كلامًا. ما هو الكلام؟ انه إبراز أفكار في داخل مجموعة صوتية ليست في حد

ذاتها سوى لعبة اهتزازات. وهذه القدرة محصورة في الانسان. فالكلام هو النُّطق بمجموعة منظَّمة من الاصوات والحروف الصوتية والحروف الصامتة التي تشكّل مقاطع وكلمات، وترتبط بمجموعة منظّمة من المعاني. وهذا الجهاز الصوتي، المرتبط بجهاز معانٍ، يختلف باختلاف البلدان: ويسمَّى اللغة: العربية والفرنسية والصينية الخ. فيتعلّم الانسان لغة، او لغته بالاحرى، وتسمَّى لغة المولد، فيصبح منذ ذلك الحين قادرًا على الانفتاح لعالم اللقاء والحوار. اقول: العالم، اي ان الانسان «يتعوَلَم» بالكلام فيصبح شخصًا بين اشخاص آخرين.

لو كان الانسان عاجزًا عن الكلام، لكان عاجزًا عن التفكير، وما من تفكير إلاَّ حيث كلام. والحال ان الكلام جسدي، ولربّما كان ايمائيًا في أصله، اذ كانوا يتكلَّمون بالحركات، فانتقلوا شيئًا فشيئًا الى ما يسمَّى الايماء الحنجري الفمَوي، اي بحركة الحنجرة والحلق والفم. ولو كنّا لا نستطيع ان نومئ او ان نتكلّم، لما كنَّا نستطيع ان نبني الاستدلالات او ان نُدلي بالآراء، كاللّآلئ التي نشكّها في عقد والتي تنفلت كلّما شُكَّت.

روى الأب ڤالَنْسان كيف انه عاين مشهدًا مفيدًا جدًا في مُنتَزه رأس الذهب في ليون. ألقى الناس جوزة الى احد القرود، ولكنها كانت بعيدة عنه، فأخذ ينظر الى عصًا يستعين بها ليقبض على الجوزة، لكن العصا كانت قصيرة. فرأى أن هناك عصًا اكبر بكثير، لكنه كان عاجزًا عن الوصول اليها لأنها كانت بعيدة جدًا. فاستعان بالعصا الصغيرة للقبض على العصا الكبيرة، وتمكّن من القبض على الجوزة. لماذا لا يتجاوز القرد عتبة التفكير، عتبة الفكر البشري؟ لأنه لا يتمتع بالكلام، وهو لا يتمتع بالكلام لأنه غير متحرّرٍ من قائمتَيه الأماميتَين. له شبه يدَين فلا يستطيع ان يتخلّص تمامًا ليأتي بالحركات، وبالتالي ليتكلّم، بل يعود فيقف على قوائمه الاربع. ما يجعل الانسان هو امكان الوقوف على قدميه، حرَّ اليدين، فيصبح الكلام ممكنًا وبالتالي يمكنه ان يفكّر تفكيرًا حقيقيًا.

ليس الجسد غير النفس ، اذا نظرنا اليها في بذل قدرتها وطاقتها . فتلك الكتلة من الخلايا الحية ، التي نسمّيها جسدًا والتي هي بؤرة طاقات ، تغذّي وظائف تُنمي بدورها حياة نفسية تنقلب في ذروتها الى مشاعر عُليا وذكاء وإرادة وحب . الجسد تعبير عن العقل ، والعقل هو لا شيء بمعزل عن ذلك التعبير . وبكلمات أخرى ، ليس العقل حجمًا منفصلاً عن الجسد او يمكن فصله عنه ، بل طاقة متجسّدة .

كل ذلك مسلَّم به في ايامنا ، ويبدو تكراره تحصيل حاصل . ولكن لا بدّ من التشديد عليه ، ان أردنا الإعراض عن فكرة خلود للنفس بدون الجسد . فمن الواضح ان النفس لا تعمل ولا توجد بدون الجسد . الاكل والشرب ضروريان للبقاء . وان اردنا ان نحقّق حضارة ، لا يكفينا ان نبحث فيها ، بل يجب علينا ان نبنيها ببذل الجهود الجسدية ، ولا بدّ من يد البنّاء ويد الفنّان ويد الجرّاح الخ . والجسد ضروري أيضًا حتى في اعمالنا الاشد روحيةً . كتب جان مورو : « المفكّر هو الانسان ، لا العقل » . وأضيف : المصلّي هو الانسان كله ، لا الروح . جميع الكتّاب الروحانيين شدّدوا على دور الجسد في الصلاة : اسألوا جميع اولئك الشباب الذين يصلّون في ايامنا في حركات التجديد بالروح القدس .

في عزلة الموت ، لقاء المسيح القائم من الموت

لمّا كان الجسد جزءًا لا يتجزّأ من هويتنا البشرية ، لا عنصرًا ثانويًا منها ، ولمّا كان الانسان لا يستغني عنه ليكون انسانًا ، وجب علينا ان نحرِّم على انفسنا عدّ الموت حدثًا يحرّر النفس من عوائق الجسد ، كما لو كان الجسد عائقة للنفس وحزامًا ، ان لم نقل مجرَّد تغليفة او سجنًا ! لا أقبل جملة كهذه : « في الموت يباشر الروح وجوده » ، فإن مثل هذه الجملة يعني ان الجسد هو شر الروح . فمن

قال ان الروح يحرَّر ذات يوم من هذا الشر ، رجا رجاءً سيّئًا ووقع في تفاؤل صبياني .

لماذا الموت ؟

من الافضل ان نواجه الامور صراحةً ونقول في مرحلة أولى : الموت من الوجهة الانسانية هو مصيبة وحجر عثرة او ، في رأي ألبير كامو ، سخافة . ليس الموت مأساة من المآسي ، بل هو المأساة بالتعريف ، المأساة الكاملة ، المأساة التي لا يُرجَع منها ، لا بل المأساة المطلقة . فإن الموت يدمّر وجود الانسان في اصله . لا يحسن ولا يصحّ ان نقفز فوق هذه المرحلة الاولى : فلا نستطيع ان نتخطّاها إلاَّ بالتقليل بلا حق من قيمة الجسد ، وبالتالي في آخر الأمر ، بإنزال عقيدة قيامة الجسد الى منزلة الاسطورة او ، على الاقل ، الى منزلة معتقد ثانوي.

اذا كان الموت مصيبة وحجر عثرة وسخافة ، فكيف يمكننا ان نرضى بأن يقبل الله ، ولا سيَّما إله نؤمن بأنه مجرّد محبة ، ان تذوق الخليقة (التي يخلقها عن محبة ، كما قلنا) مثل تلك المصيبة؟ فهل يجب على الانسان ان يموت لأنه خاطئ؟ لا ، ليس الموت نتيجة للخطيئة ، بل ما ينتج عن الخطيئة وما هو « أجر الخطيئة » (روم ٦/٢٣) هو الموت بصفته انفصالاً مُرعبًا . أمَّا الموت في حد ذاته وبصفته نهاية ، فإنه يعود الى محدوديتنا . تحصيل حاصل ! لا بدّ للمحدود ان ينتهي . فكيف نبرّئ الله؟

يريد الله ان يكون الانسان أحدًا ، أحدًا من اجله ، أحدًا امامه . يريدني شخصًا . ولا يمكن ذلك إلاَّ ان كنتُ مختلفًا عنه ، اي ان لم اكن إلهًا . هذا أمر بديهي ، لكننا معرَّضون لأن ننساه : لستم أحدًا بالنسبة إليَّ إلاَّ ان كنتم غيري . وبما ان الله لا حد له ، فلا بد ان تكون الخليقة محدودة . وإلاَّ لكانت ، لا أحدًا ، بل انبعاثًا من الالوهة ، كما لو كان النهر انبعاثًا من الينبوع ولم يكن غير الينبوع . والحال اننا لا نستطيع ان نتصوَّر محدودًا لا نهاية له : فالنهاية – تحصيل حاصل أيضًا – تدل على محدوديتنا . لستُ إلهًا ، لامتناهيًا ، فأنا محدود اذًا

وقابل للموت.

قد تقولون لي: لكن الله هو القدير! أفما كان بوسعه ان يخلق الانسان غير محدود؟ بما أنه كامل، أفما كان بوسعه ان يخلق الانسان كاملاً مثله؟ لا استغرب ان تبقى هذه الفكرة في عقولكم: فهذا أمر عادي، بما اننا لسنا هنا امام امر طفيف من حياتنا، بل امام رهبة الموت وعثاره. من بين الكثير من الاجوبة التي قد تجرّنا الى المستوى الميتافيزيقي، اذكّر بهذه الفكرة البسيطة: قدرة الله هي القدرة على المحبة. والحال ان المحبة تريد ان يكون الآخَر آخَر حقًّا، لا ظلاًّ للنفس. ما من رجل يقول لامرأة يحبها: أريد ان تكوني ظلّي، بل يقول لها: أريد ان تكوني «أنتِ»، غَيري، انت تمامًا وغيري تمامًا. وتريد المحبة ألاَّ يكون الآخر مخلوقًا جاهزًا. فلو كان المخلوق كاملاً، لَما كان كائنًا يخلق نفسه، بل لربما كان خليقة رائعة، ولكن لَما كانت هذه الخليقة خالقةً نفسها.

فالجدّيّة في المحبة الخالقة هي التي تقتضي ان يخلق الله آخَر غير نفسه: خليقة خالقةً نفسها والعالم. فلأن الله محبة، فهو يخلق لاإلهًا، كائنًا محدودًا، لا بدّ اذًا، من طبيعته، ان ينتهي. وهل نقول ان الله، وهو يتوقّع تلك الآلام الناجمة عن المحدودية، كان عليه ان يمتنع عن الخلق؟ هذا ما يعتقده الكثيرون، وهم لا يسامحون الله بأنه خلق عالمًا تخلّف فيها المحدودية كلّ تلك النكبات والآلام. صحيح ان خلق العالم كان مغامرة بالنسبة الى الله. لا اخاف من هذه الكلمة: فإن الله قد غامر، حين خلق العالم، بمعنى أنه لا يتردّد أمام المأساة التي ستنجم عن خلق كائنات حرَّة ومحدودة. المغامرة والمأساة والمخاطرة: تعبّر هذه الكلمات عن شيء صحيح. مأساة بالنسبة إلينا، ولكن بالنسبة الى الله أيضًا. ولذلك أظنّ، خلافًا لما يزعمه الكثيرون، أن الله يتألّم.

ألم الله

الله محبة، والمحبة لا بدّ ان تكون معرَّضة. ما يغتاظ منه عالمنا هو تصوّر إله يُشرف من علٍ على الألم البشري في شيء من الصفاء الجليل، كالمرأة التي

تقول : لا يخفى عليَّ أن اولادي يتألّمون كثيرًا ، لكني أنا سعيدة حتى إن ألم أولادي لا يؤثِّر فيَّ . ان سمعنا امرأة تتكلّم هذا الكلام ، نقول ان سعادتها وحشية بكل معنى الكلمة. ومع ذلك نقبله ببساطة ، اذا كان المقصود هو الله ، فنتصوَّره جوبيتيرًا آخر وراء الغيوم ، لا يؤثّر ألم البشر في صفائه الذي لا يزول. كتب جاك ماريتان : « لو عرف الناس ان الله يتألّم معنا ، واكثر منّا بكثير ، من كل الشر الذي يُفسد الارض ، لتغيَّرت أشياء كثيرة ولا شك ، ولَحُرِّرت نفوس كثيرة » . لو لم يخاطر الله بألم الانسان ، لكان قد وفَّر الألم على نفسه أيضًا ، ولكنه لكان قد خلقنا جاهزين !

منذ الازل ، يرى الله بسابق علمه شقاء الانسان امام الموت . لكنه ، بحسب ما يعلّمنا ايَّاه الايمان المسيحي ، يُلغي في الوقت نفسه العثار الذي يسبّبه هذا الشقاء . ففي الفعل الذي يخلق الله به الانسان قابلاً للموت ، يخلق تخطّي الموت في قيامة من الموت . وهو يحطّم دائرة الموت في الفعل الذي يخلقها .

قد تقولون : ألسنا هنا امام لعبة ؟ لماذا في فعل واحد يحطّم ما يوضَع ؟ أَوَلم يكن أشدّ ألوهة ألاَّ يوضع وان يُخلق الانسان خالدًا ؟ ها إنَّنا في قلب سر المحبة : فبدلَ ان يجنِّبنا الموت بفعلٍ يكون خارقًا من الخوارق ، لا بل يكون سِحرًا (حيث لا يُحترَم الانسان وحيث لا يخاطر الله بشيء ، لا بالنسبة إليه ولا بالنسبة إلينا) ، يقضي منذ الأزل بأن يدخل هو نفسه في محدوديتنا ويشارك فيها . وبعبارة اخرى ، يقضي بأن يموت هو نفسه .

ففي فعل واحد يخلق الله ويتجسّد . وفي الوقت الذي (كلمة « وقت » غير صالحة ، وعليَّ ان أقول : « في الازلية نفسها ») يقوم اللامحدود بخلق المحدود ، يصبح هو نفسه محدودًا ليُدخل المحدود في حياة اللامحدود . فيصير انسانًا ليصير الانسان إلهًا ، كما ورد في القول المأثور . لا يريد الله ولا يستطيع ان يخلق آلهةً ، لكنه يخلقهم قادرين على خلق انفسهم ، ويصير انسانًا ليصبّ تاريخهم في تأليههم .

فعلينا ان نُقلع عن ذلك التصوّر الصبياني ، القائل بأن الخلق (في البداية)

سبق التجسّد. ليس الخلق بداية، بل هو الآن، واذا صحّ ان المسيح ظهر في مركز التاريخ (لميلاد المسيح تأريخ ثابت)، فهو كائن ازليًا في الله. اقرأوا مطلع الرسالة الى اهل افسس ومطلع الرسالة الى اهل قولوسي، فإن القديس بولس يشدّد بقوله: «ان الله خالق ومتجسِّد على وجه لا يتجزأ». وقد قال صراحة ان المسيح هو «بِكر الخلائق كلها». أؤمن ايمانًا ثابتًا بأن خلق العالم لا يُعقل، من وجهة نظر الله، بمعزل عن التجسّد. قال الأب تيَّار دي شاردان: ان الله يصبح الانسان الذي يخلقه. هذه جملة لا تُنسى.

في بستان الزيتون، ارتعش المسيح وقلق وخاف: وردت جميع هذه الكلمات في الانجيل، وهذا من حسن حظنا! اذا تجسَّد يسوع، فلِيعيش شقاءنا، لا ليُشرف عليه من علُ، حتى اذا أصبح هذا الشقاء نفسه واقِع الله (أقول شيئًا فظيعًا: ان شقاءنا البشري امام الموت يصبح واقع الله نفسه!)، حُوِّل بقدرة الله. لا اقول: أُزيل (وفي هذه الحال نقع مرة أخرى في السحر)، بل حُوِّل: فإن الموت، ان تبنَّاه الانسان بكل ما فيه من شقاء وقلق وعزلة، يصبح عتبة قيامة من الموت.

تبدأ القيامة فورَ الموت، لكنها لا تكون تامّة إلاَّ في آخر الازمنة

من سمَّاه القديس بولس «بِكر الخلائق كلّها» يسمّيه سفر الرؤيا «بِكر المولودين من بين الاموات» (١/٥)، وبِكر جميع الأحياء الذين ماتوا وسيموتون. يبقى الموت نهاية (ولا يمكن ان يكون الامر على غير ذلك)، ولكن هذه النهاية نهاية نمط حياة وانتقال الى نمط حياة آخَر، نمط حياة الله نفسه.

حين نجتاز عتبة الموت، نلاقي المسيح القائم من الموت. كيف نستطيع ان نتصوّره؟ بالمعنى الدقيق، لا نستطيع ان نتصوّره. ان ايماننا الثابت لا يُزيل الغموض العميق الذي نبقى فيه عمَّا هو المسيح القائم من الموت في حد ذاته، لأننا نعيش في عالم يخضع للموت. لا نستطيع ان نتصوَّر ما هي الحياة بعد

الموت ، تلك الحياة التي ليست هي إلاَّ حياة او ، والأمر هو هو ، تلك المحبة التي ليست هي إلاَّ محبة.

ما يقوم فيَّ من الموت ، بالضبط ما يبدأ ان يقوم فورَ الموت ، هو صلتي بالآخرين وبالعالم (بالآخرين ، اي بوالديَّ وأقاربي واصدقائي ، وبالعالم ، اي بكل ما أدركه جسدي بالعمل والفن والثقافة والراحة). فصلتي بالآخرين وبالعالم (اي حياتي) هي التي تقوم من الموت بقدرة وشدَّة الهيَّتين بكل معنى الكلمة ، فهما اذًا يعودان الى آخَر – المسيح الحيّ – ، لكني اشعر بهما كأنَّهما قدرتي وشدّتي.

ففرحي هو اذًا فرح المحبة : تأتيني السعادة من آخَر – ممَّن أحبّ – ، وهي مع ذلك سعادتي. فإن كنتُ أحبّك ، كنتَ أنتَ فرحي ، ولا اريد ان استمدّ فرحي إلاَّ منك ، وإلاَّ لَما قلت لك إنّي احبّك. فرحي أنت. وهذا ، بالنسبة الى الانسان ، في جسده وفي نفسه ، طريقة وجود جديدة. في جسده طبعًا ، اذ بجسده يتّصل بالآخرين وبالعالم. وهي قيامة حقيقية ، فقد وجب المرور بعزلة الموت المطلقة حيث لم يبق اي شيء.

تبدأ تلك القيامة فورَ الموت (ليس هناك قاعة انتظار ، تنتظر فيها النفس المنفصلة عن الجسد نهاية العالم لتستردّ جسدها !) ، لكنها لن تكون تامّة إلاَّ في آخر الازمنة ، لأني لا أكون انا حقًّا إلاَّ برفقة جميع اخوتي. وان أردتُ ان اتكلّم كما يتكلّم التعليم المسيحي الأوَّلي ، قلتُ إن جميع البشر لا يكونون في السماء إلاَّ في نهاية العالم.

ولكي تكون السعادة السماوية سعادة المحبة التي ليست إلاَّ محبّة ، يجب علينا ان نتجرّد على الاطلاق من تملّكنا لأنفسنا (على الاطلاق بالمعنى الدقيق ، كما تكلّمت على العزلة المطلقة). والقدرة التي تُنعش المسيح القائم من الموت هي قدرة خالية من كل شيء غريب عن المحبة. لا بد ان لا يكون ايّ شيء ، ليكون المحبوب كل شيء. فكّروا في ما يكون وجه المرأة المحبوبة المشرق ، في عالم لا يُلهيني فيه ايّ شيء عنها وأستمدّ فيه منها كل حياتي (تشبيه ناقص ، ككل تشبيه

في مثل هذا المجال !).

سيكون المسيح القائم من الموت كل شيء بالنسبة إليَّ، لكن جميع اخوتي هم اعضاء المسيح. لا يمكن الفصل بين المسيح واعضاء جسده: كيف تريدون ان ألاقي المسيح وهو الرأس، ولا ألاقي اعضاء جسده؟ يُطرح أحيانًا هذا السؤال: «هل سأعود فأجد في السماء ابني المتوفَّى في سن العشرين؟». لا بدّ من الوضوح التام: طبعًا، سيدتي، بما أنك قائمة على تلك الصلة بأولادك. هذا ما سمَّيته الجسد، وهذه هي سيرتك، وهي تقوم من الموت في المسيح: فماذا نكون بدون الذين نحبّهم؟

ليس جسدنا الحاليّ جسدًا على وجه تام

لو لم تكن دعوة الانسان ان يشارك في حياة الله نفسها، لما كانت قيامة للجسد. فإن تأليه الانسان هو الذي يمكّن من بقاء الجسد. وهذا يعني ما يلي: بين الوجوه الثلاثة التي تحتاج اليها سعادتنا لتكون سعادة بشرية، يبدو الوجه الالهي اصل الوجهَين الآخَرين. لسنا مؤلَّهين الآن إلاَّ في الاصل. ماذا سيجري بعد الموت؟ سنؤلَّه على وجه تام ونكون «أشباه الله» (١ يو ٣/٢). يمكن اختصار كل شيء في هذه الجملة: ان الروح، اذا تملَّكه الله، تملَّك جسده تمامًا.

لا يخفى علينا اننا لا نتملَّك اجسادنا تمامًا، فهي لا تخضع لنا الى حد ما. ان كنتُ مصابًا بصُداع شديد، لا تعتمدوا عليَّ لأُلقي عليكم محاضرة شيِّقة. وإن كنتُ في باريس، فأنا لست في ليون. ان طنَّت ذبابة، أعجز عن التفكير. بالجسد يتَّحد الزوجان في الحب، لكن الجسد هو الذي يحول دون وصول الاتحاد الى الكمال (وهذا هو ألم الحب). وهذا يعني ان الجسد ليس هو

جسدًا على وجه كامل ، بل هو أداة عمل واتّصال الى حد ما . وسيكون جسدًا على وجه كامل ، ان لم يكن عائقًا بوجه من الوجوه . وحين اقول : الجسد ، لا تنسوا اني اعني الكون كله ، فهو لا ينفصل عن الجسد .

الدين المسيحي وحده ، وحده تمامًا ، يعلّم التأليه . لا يعلّمه فقط ، بل يمكن القول بأنه ذلك التعليم نفسه . فالدين المسيحي كله في هذا الأمر ! قال غُوارديني : « الدين المسيحي وحده يجرؤ على جعل جسد بشري في صميم قلب الله » . إنه لأمر رائع ! ليس المقصود طبعًا اجسادنا بصفتها مجموع خلايا أحيائية . لا يهمّني على الاطلاق ان استردّ أصابع قدمي او معدتي للابد ! وكذلك حين نأكل جسد المسيح القائم من الموت ، لا نأكل خلايا احيائية .

فبهذا المعنى يقول لنا الانجيل « ان المختارين يصيرون كالملائكة في السماء » (متى ٢٢/٣٠) ، اي ان واقعهم الجسدي سيكون جديدًا تمامًا . لا نقُلْ ان الجسد سيصبح روحًا ، وإلاّ وقعنا في تفسير خاطئ كبير . سنبقى بشرًا . لا يصبح الجسد روحًا ، بل يبقى جسدًا ولا اكثر ، ويصبح جسدًا على وجه كامل .

يقول لنا القديس بولس إن الجسد القائم من الموت هو « جسد روحاني » (١ قور ١٥/٤٢) ، لكنه لا يتكلّم كلام الفلسفة . عبثًا تحاولون ان تتصوَّروا ما هو مثل هذا الجسد : فستفكّرون ولا شك في نوع من الغاز النيِّر (تكلّم نيتشيه على الفقاري الغازي الكبير !) . يذكّرني هذا بنكتة بدرت من كلوديل ، يوم طُلب اليه محاضرة في الثالوث الاقدس . كان معكَّر المزاج في ذلك اليوم ، فأجاب : « هل تريدون ان اعرض لكم افلامًا ؟ » . لا بد من التخلّي عن التصوُّر ، وليس هذا التخلّي أقل التخلّيات قهرًا للنفس ، ولكنه ضروري ، فإن الحياة المسيحية لا تُعاش في الخَياليات . والخواطر التي اقترحها عليكم ليس لها غاية أخرى ! لا تنسوا أنها مجرَّد آراء لاهوتية : فالكنيسة معتدلة جدًا من الناحية العقائدية ، لأنها تقول لنا فقط إننا « سنقوم جسدًا ونفسًا » .

«الجسد الروحاني» جسد حرية

ان الجسد الروحاني يعبّر عن الانسان الذي بلغ الحرية. فالانسان الذي أصبح حرًا هو الانسان الذي مات عن كل ما ليس بمحبة. والانسان هو حرّ، اذا كان قادرًا على مواجهة الموت، موت الانانية على جميع وجوهها: من راحة بال ورفاهية وحصول على الامتيازات وموافقة جامدة على ما في العالم من عدم مساواة صارخ. فالانسان هو حرّ، اذا مات ايجابيًا عن كل ذلك، اذا عمل على ألاّ يكون عبدًا لنفسه. اقول: ايجابيًا، اي بقيامه بأعمال حرة واتّخاذ القرارات، الصغيرة والكبيرة، التي تعمل يومًا بعد يوم على إحلال المزيد من الحرية. «ان اكتفى الانسان بالخضوع للموت، كان هذا الموت مجرّد تدمير. فالجسد الموسَع ضربًا لا يولّد راقصًا، مع ان الانسان، ان اراد ان يكون راقصًا، توجَّب عليه ان يوافق على احتمال آلام في الاطراف يزيد عددها على عدد التي يسبّبها أقسى العقابات الموافقة. ان كان الموت ذبيحة اختيارية، كان وحده قادرًا على البلوغ بنا الى عالم القيامة، كما ان أقسى التدريبات يبلغ بالانسان الى عالم الرقص. والحال ان الوحيد الذي مات ذبيحةً اختيارية محضًا هو المسيح» (ا. بوسيه).

جميع اعمال المسيح في حياته كانت اعمال محبة. ولم يبذل نفسه جزئيًا، في اعمالٍ معيَّنة دون اعمال أخرى. بالمعنى الدقيق، جاد بحياته، طوال حياته، ولم يستردَّها قط من اجل نفسه. فقد مات عن جميع الحدود التي تكوّن الانسان وعن جميع الخطايا التي تطوي الانسان على نفسه في تلك الحدود. مات موتًا يوميًا اختياريًا على وجه تام، كان عملَه حقًا ومجملَ الاعمال التي قام بها. ان موت المسيح – اعني الموت الذي يشكّله كل من اعماله طوال حياته، والموت الاخير على الصليب – هو العمل الكامل التي تقوم به حرية بشرية، وبالتالي هو التعبير الكامل في انسان عن حرية الله نفسها.

وذلك الانسان الذي من لحم ودم، والذي نسمّيه يسوع، ينتقل بكامله

الى حريته، الى فعل الحرية الذي يبذل نفسه به. يمكننا ان نقول على حد سواء: يسوع او الانسان الكامل الحرية. ان فهمنا فهمًا حرفيًا كلمة «كامل»، كان قولنا إنه حرّ بدون رواسب تحصيل حاصل، وكذلك قولُنا انه حيّ بدون رواسب، او انه بموته يقوم من الموت. «لم ينَل من جسده الفساد» (رسل ٣١/٢). لو كان موت يسوع موتًا طبيعيًا اكتفى بالخضوع له، لما كان القبر فارغًا، بل لكان هناك رواسب مصيرها الدمار. ولكن، اذا كان موت يسوع حياتَه التي جاد بها، كانت حياتُه الحياة التامَّة، لأن الحياة لا تكون الحياة التامَّة إلاَّ اذا جيدَ بها، بما ان الكيان والمحبة شيء واحد. الله محبة، فالحياة هي المحبة. في يسوع، يبدو الموت تعبيرًا كاملاً عن الحياة، وجسده المائت هو الحياة التامة نفسها، وهو تحقيقُ الحرّية وتجلّيها. إنه انسان حرّ، وليس في القبور من حرية، بل ليس هناك إلاَّ رواسب. ما من شيء ممَّا كان يسوع يصبح ترابًا: فالقبر فارغ.

فينا شيء غير المحبة وغير الحرية، فإننا مستعبَدون لأشياء كثيرة! ونعبِّر عن ذلك بالاعتراف بأننا خاطئون. ففينا شيء غير الحياة التامَّة. ونقيض الحياة، اي الموت، نحمله فينا منذ الآن طوال وجودنا على الارض. ان الموت هو في داخل كل من قراراتنا الانانية. وهذا الموت هو رفض الموت الاختياري، بل هو الموت الذي نخضع له. انه قسط الطاقة الناشئة في أجسامنا، الذي لم ينقلب الى اعمال حرية حقيقية، ولم يحوَّل الى طاقة محبة او موت اختياري.

يحسن بنا ان نلفظ الكلمة التي تدل على ان الموت الاختياري والمحبة هما شيء واحد: هي كلمة «ذبيحة». فإن الطاقة التي ترتفع من كياني القائم على اللحم والدم، ان لم تصبح ذبيحة على مستوى كياني الروحي (حريتي)، كان مصيرها الهَرَم: إنها رواسب لا يمكن إلاَّ ان تنقلب الى تراب. فلا حاجة الى محاولة تصوُّر ما عسى ان تكون قيامة الرواسب من الهَرَم: لا قيامة لها.

وقصارى القول، يمكن ان يموت الانسان من الهرم او من القيام بالواجب، كما يقولون. الموت من الهرم هو حتمية الطبيعة، أمَّا الموت من القيام

بالواجب فهو محرقة (ذبيحة تامة) اختيارية. في الواقع، كل انسان، ما عدا المسيح وأمّه، يموت من الهرم ومن المحرقة على السواء، موتًا خضع له وموتًا اختياريًا. كان قبر المسيح فارغًا، لأن كل شيء فيه كان محرقة وفعلَ محبة وبذلاً اختياريًا للنفس. ليست قبورنا فارغة، لأن كل شيء فينا ليس هو محرقة وفعل محبة وبذلاً اختياريًا لأنفسنا. قبورنا علامة تدل جميع الذين يأتون ليضعوا زهورًا على اننا خاطئون مساكين.

لكن فينا، والحمد لله، حياة حقيقية. كان في حياتنا محبة حقيقية، فلقد عملنا ولم نتوخَّ في عملنا الربح الفردي والعائلي وحده، بل بذلنا أنفسنا وقمنا بمهمّة من المهمّات، فمتنا بوجه من الوجوه من القيام بواجبنا. فسيقوم من الموت جزء منّا. لسنا مجرَّد رواسب. فلو لم نكن سوى رواسب، لكان مصيرنا جهنّم، اي حركة تدمير تُواصَل أبد الدهور ولا تبلغ الغاية أبدًا.

سبق ان قلتُ إنه يستحيل علينا ان نتصوّر جسدًا روحانيًا، جسدَ حرّية. يقترح الأب ا. بوسيه هذه المقارنة: «هناك أشجار بلُّوط وثمارها البلُّوطات. من لم ير إلاَّ الثمار لا يستطيع ان يتصوَّر شجرة البلُّوط. لا نستطيع ان نتصوَّر اجسادنا القائمة من الموت. لكنَّ من رأى شجرة البلُّوط لا يجوز له ان يسأل بأي شكلٍ خاص تبقى الثمرة فيها. لا تبقى فيها بشكل يختلف عن شكل الشجرة». وهذا ما قاله القديس بولس على وجه التقريب: «يكون زرع الجسد بفساد والقيامة بغير فساد. يكون زرع الجسد بهوان والقيامة بمجد. يكون زرع الجسد بضعف والقيامة بقوَّة. يُزرع جسد بشري فيقوم جسدًا روحانيًا» (١ قور ١٥/٤٢).

الاستمرار الأبدي والمؤلَّه للانسان كله والكون كله

في حياتنا القائمة من الموت، سنرى الله في كل شيء وكل شيء في الله. سأرى الله في كلّ شيء، لأن هذا العالم الذي أُحبه منذ الآن حبًا شديدًا، والذي أُولَع به (لانهاية السهول والبحار والنجوم والجبال، ولا سيّما جماعة البشر

وهي أجمل وافتن بكثير من جمال الطبيعة كله) سيتجلّى لي كما هو حين خرج من يدي الله، كما خلقه الله منذ الأزل، في كيانه كما هو، اي ليكون مشاركة في كيان الله نفسه. سيكون العالم كله شفَّافًا في نظري، وسأرى الله من خلاله. حاولوا ان تتصوَّروا ما يكون العالم، لو استطعنا ان نرى الله من خلال حبّ بشري، من خلال صداقة بشرية، وحتى من خلال مجرّد رفقة. الله في كل شيء.

وفي الوقت نفسه، وفي الشعور نفسه، في شعوري كإنسان مؤلَّه، سأرى كل شيء في الله: الكون كله سيكون لي. ذلك بأن الكون لا ينفصل عن الله، بما ان الله يخلقه منذ الازل. كل شيء في الله اذاً. واللوحتان – الله في كل شيء وكل شيء في الله – ستتطابقان تمامًا.

يجوز لنا أيضًا ان نعتقد بأن كل ما في الوجود على الارض من حَسَن وجميل وحق سيبقى في حياتنا القائمة من الموت. كلّ ما يُعمل في سبيل العدالة والجمال والثقافة وكل العمل الذي يُنفَّذ في الورش البشرية، كل ذلك خالد، لأن جسدي هو، في آخر الأمر، كل ذلك. ويجوز لي ان اقول إن جسدي هو سيرتي انطلاقًا من طبيعة: طبيعتي مذكَّرة وليست مؤنَّثة، أنا فرنسي ولست أحد الاسكيمو الخ. كل ذلك هو تأصُّل كياني، وانطلاقًا من هنا سيرتي طويلة: تربيتي ودروسي ودخولي دار الابتداء وعلاقات الرفقة والصداقة وعملي واحداث معيَّنة من الحياة الاجتماعية او السياسية، والساعة التي اعيشها معكم، كل ذلك يكوّن، في آخر الأمر، جسدي وذلك هو ما سيقوم من الموت.

سيرتي تبني وجهي الأبدي. كيف يمكننا ان نتصوَّر نجميَّة تكون فيها مليارات ومليارات من الألوان ولا يتشابه فيها لونان؟ هناك مليارات ومليارات من الوجوه البشرية، ولكن ليس هناك وجهان متطابقان تمامًا، وذلك منذ البداية وحتى آخِر الأزمنة على الارجح. وهذا التنوّع العجيب في الوجوه يرمز الى ما في النفوس وفي الاعماق من تنوّع اعجب. وما تختلفون به، اي ذلك اللون، ذلك اللون الازرق او الاخضر او الأحمر الفريد، الذي تصيرونه في النجمية

الابدية ، هو جميع القرارات التي تتّخذونها يومًا بعد يوم ، شرطَ ان تكون قرارات محبة وعدالة ، لا بل مجرَّد استقامة. وحتى ما يفعله الكافرون، وكم بالأحرى غير المؤمنين الذين ليسوا بكافرين ، بقدر ما هو حَسَن وجميل ، كل ذلك سأجده محوَّلاً في ملكوت السموات ، في اورشليم السماوية التي ورد ذكرها في سفر الرؤيا .

فنحن نبني اذًا ، طوالَ القرون ، حياتنا الابدية ، وذلك عَبرَ ارتقائنا وتقدّمنا وانحطاطنا . وهذا يعني ان سعادة انسان فرنسي لن تكون سعادة انسان صيني ، وسعادة انسان متزوّج لن تكون سعادة انسان اعزب ، ولكن الفرنسي سيشارك في سعادة الصيني ، والاعزب في سعادة المتزوّج ، والعكس بالعكس ، فإن سيرة الفرنسي المتزوّج الذي عاش في القرن العشرين ليست كسيرة الاعزب الصيني الذي عاش في القرن الخامس عشر .والحال ان ما يقوم من الموت هو كل الانسان الذي في كل انسان ، بمعنى ان المحبة او الموت الاختياري الذي تدركه القيامة استُقي في طاقة جسدية لها خواصّها وانتقل الى علامات قرابة ورفقة ومحبة وصداقة خاصّة بكل واحد . كل شيء يقوم ، ما عدا ما بقي دون المحبة ، ما عدا الانانية والخطيئة . ولذلك يمكنني ان اختم بعبارة تلخّص كل ما قلته : ان الحياة الابدية هي الاستمرار الأبدي والمروحَن والمؤلَّه للانسان كله والكون كله .

حاشية رقم ١ – عكس التأليه : جهنّم

ان الانزعاج الذي يشعر به المسيحيون أمام ما يُطلِق عليه التعليم المسيحي اسم جهنّم بلغ في ايامنا حدًّا بعيدًا ، حتى ان الكلام عليه انقطع في الواقع او كاد ان ينقطع . قد يكون السكوت أفضل من تعليق يُخشى ان يغذّي وجوهًا قديمة مستعصية من سوء التفاهم . لا شك ان سكوت الانسان يبدو أفضل ، ان عجز عن إشعار الآخرين بأن رفض جهنم بلا قيد ولا شرط يؤدي في آخر الأمر ، ان لم نقل الى رفض الله والانسان ، فعلى الاقل الى تشويه الله والانسان والمحبة .

اقول هنا شيئًا يبدو ، لأول وهلة ، مفارقة يصطدم بها العقل . ولكن ، لا بد ، والحالة هذه ، من مواجهة تلك المفارقة القائمة على الارتباط الوثيق بين المحبة وجهنّم . لو كان لدينا المتّسع من الوقت للتوسّع في تلك المفارقة والدخول في جميع تفاصيلها ، لأمكننا ان نُثبت ان احتمال الهلاك الأبدي – أقول : احتماله ، لا واقعيته ، لأنه يستحيل علينا ان نؤكّد ان الهلاك الأبدي امر واقع – لا غنى عنه لنفهم :

– سرّ دعوتنا الى ان نكون للأبد أحياءً بالحياة الابدية (من الواضح ان احتمال الهلاك الأبدي امر غير معقول ، ان فصلناه عن سر تأليهنا) .

– جدّية المحبة او خطورتها (سواء أكان المقصود محبّة الله لنا أم المحبة التي يمكّننا من كنِّها له)

– فالأعمال التي تقوم بها حريتنا في الزمان من بُعد مطلق ، وبالتالي ما للزمان الذي يُعطى لنا للقيام بها من بُعد مطلق

– طبيعة الرجاء الصحيحة وكيف يرتبط بمختلف الآمال البشرية ، مع الامتياز عنها ، بحيث إن التأمّل في جهنم يجب ان ينفتح على نشيد في الرجاء.

جهنّم في الكتاب المقدس

في اللغة المسيحية ، نتكلّم على مثوى الأموات وعلى جهنم ، فنقول ان المسيح نزل الى مثوى الأموات من جهة، وان الهالك ينزل الى جهنم من جهة أخرى. كلّ من مثوى الاموات وجهنّم هو مملكة الموت. ولولا المسيح ، لَما كان في العالم إلاَّ موت واحد ، وهو الموت الابدي . الموت المالك كل قدرته ، موت الكائن المحدود المنغلق في محدوديته.

اذا كان هناك «موت ثانٍ» ، كما يقول سفر الرؤيا (٢١/٨) ، موتٌ يمكن فصله عن الموت الاول ونُطلق عليه اسم جهنّم ، فلأن المسيح حطّم مُلك الموت. واذا كان مثوى الأموات غير جهنَّم وكان هناك موتان ، فلأن المسيح نزل الى مثوى الأموات.

ان «مثوى الأموات» هو الترجمة العربية لكلمة «شيئول» العبرية. كان الشيئول، في نظر اليهود، «ملتقى جميع الأحياء» (اي ٣٠/٢٣). كانوا يتصوَّرون البقاء ، على غرار الكثير من الشعوب ، ظلَّ وجود ، خاليًا من القيمة ومن الفرح ، وشيئًا أقرب الى العدم منه الى الكيان. كان الشيئول «أرضًا تحت أرضنا ، مكانَ ظلام وتراب ووحل ، ينزل اليه الأموات عراة ، ولا يصعد منه أحد ، وينضمّ فيه الانسان الى آبائه ويحيا فيه حياة الظلّ الكئيبة المحدودة ، حياةً لا يُحسَد عليها على الاطلاق ، بسبب غياب الله».

فالقول بأن المسيح نزل الى مثوى الاموات هو القول أولاً بأنه مات حقًا. واذا اقامه الله فنجّاه من الشيئول، كما يقول القديس بطرس (رسل ٢/٢٤)، فذلك بأنه غيَّبه فيه. عرف وحشة الموت وهي الوحشة التامّة التي تفوق كل وحشة في هذا العالم. عرف الشعور بتخلّي الله عنه.

جهنَّم الوحشة المطلقة

مأساة حياتنا هي ان الانسان يشعر، في عمق اعماق نفسه، بأنه وحيد. لكنه لا يستطيع احتمال هذه الوحشة، فيُخفيها ويقنّعها. اجل، إنه وحيد، لكنه لم يُخلَق ليكون وحيدًا. فالانسان «كيانٌ مع»، على صورة الله نفسه الذي هو ثالوث وجماعة مكوَّنة من ثلاثة أقانيم. ان شطبتم «مع»، تكادون ان تشطبوا «كيان». والتناقض هو ان يحتاج الانسان الى ان يكون مع الآخَر او الآخرين، وان يكون في الوقت نفسه وحيدًا. واذا شعر بهذا التناقض، شعر بالقلق. انه قَلَق الوحشة، وهي وحشة نسبية، لكنها وحدها تفيدنا، ولو بغموض، عن وحشة الموت.

يتكلَّم الكردينال رَتزِنْغِر على «الولد الذي طُلب منه ان يجتاز وحده في الليل غابة مظلمة. إنه يخاف، وان أَثبتوا له بأدمغ الحجج أنْ ليس فيها ما يخيف. فحين يكون وحده في الليل ويختبر العزلة اختبارًا جذريًا، يظهر الخوف، الخوف الحقيقي، وليس هو الخوف من الاشياء، بل الخوف في حد ذاته. الخوف أمام شيء معيَّن هو خوف طفيف، يمكن طرده بإزالة ما يسبّبه. فإن كان احد يخاف من كلب شرّير، يكفي ان يُربط هذا الكلب».

أَمَّا الخوف الذي تسبّبه الوحشة فهو شيء آخر تمامًا وأعمق بكثير. لم نعد أمام تهديد خارجي يسهل إزالته. فليس هناك ما يجب ازالته، لأن المقصود هو وجودنا نفسه والتناقض القائم في وجودنا.

لا يستطيع الانسان ان يتغلّب على قلق الوحشة إلاَّ بوجود كائن محبّ، كيَد أحد، او صوت أحد يقول: «أنت». ففي هذه الدنيا، أيًّا كان وضعنا وأيًّا

كان عمرنا ، لا تُفقَد أبدًا إمكانية وجود يد او صوت او «أنت». واذا كانت هناك وحشة لا ينفذ اليها أيّ صوت ، او لا تصل اليها أية يد ، فهي الوحشة المطلقة والقلق المطلق الذي يشعر به ذلك الذي لم يُخلق ليكون وحيدًا والذي أمسى وحيدًا للأبد. وهذه الوحشة وهذا القلق هما اللذان نسمّيهما «جهنّم».

ان موضوع الوحشة هذا عالجه الكثير من معاصرينا في الأدب والمسرح والسينما. فكِّروا في افلام انطونيوني: «جميع اللقاءات سطحية»، ولا يجوز لأي أحد في هذه الدنيا «ان يصل الى اعماق الآخَر». والاتّصال الصحيح، في الرفقة والصداقة والحب، أمر مستحيل. وكل لقاء، مهما كان رائعًا في الظاهر، لا يسعه إلاّ ان «يخدِّر جرح الوحشة الذي لا دواء له». كل ذلك ينمّ عن تشاؤم أسود، لأنه يعني ان الانسان يحمل جهنّم في نفسه، ولأن الرهبة التي يوحي بها تدفع الانسان الى التعلُّق بأي شيء كان للتخلّص منه والى التوهُّم أحيانًا أنه ينجح، مع أنه في الحقيقة لا ينجح أبدًا.

مهما يكن من امر الوحشة في اثناء الحياة، فهناك وحشة محتَّمة، وهي وحشة الموت، وما من انسان في مأمن منها. فالموت باب لا يجتازه الانسان إلاّ في الوحشة. والخوف الذي يشعر به العالم هو كله في الواقع خوف من تلك الوحشة. ولذلك لم يرد في العهد القديم إلاّ كلمة واحدة للدلالة على جهنّم وعلى الموت، وهي شيئول. فالموت هو الوحشة التامة. والحال اننا نؤمن بأن يسوع المسيح مات. وجهنّم هي الوحشة التي أمسى مستحيلاً على المحبة ان تدخل إليها. والحال اننا نؤمن بأن يسوع المسيح نزل الى مثوى الاموات. واذا اجتاز باب وحشتنا الاخيرة ودخل الى اعماق التخلّي التامّ الذي نشعر به، وجب الاعتراف بأن يسوع المسيح هو الآن حيث لا تصل أيّة يد او ايّ صوت او ايّ «أنت»، وبأنه تغلّب على جهنّم بصفتها مرادِفة للموت.

وبعبارة أخرى، كان الموت جهنّم فلم يعد جهنّم. فإن الحياة اصبحت في قلب الموت: ويسوع المسيح هو الحياة. وأصبحت المحبة في قلب الموت: ويسوع المسيح هو المحبة و«أنت» المطلق، اي ذلك الذي لا يمكنه ان يصبح «هو»

(ضمير الغائب الذي يدور الكلام عليه)، لأنه هو المخاطِب والمخاطَب.

أصبحت جهنّم بعد الآن شيئًا آخَر. إنها «موت ثانٍ»، لا الموت الذي نعرفه، بل الموت الاحتمالي الذي ينتظر اولئك الذين انطووا على انفسهم في الانانية فاستحال عليهم الانفتاح للمحبة. فإن كانت هناك يد محدودة، فهم لا يرونها، وان كان هناك صوت يرتفع، فهم لا يسمعونه، وان كان هناك «أنت» يُعرض، فهم يحسبونه «هو»، اي كائنًا غريبًا. إنهم، بالحرف الواحد، غرباء عن كل شيء.

كان العهد القديم قد شعر، مع ذلك، بأن هناك فرقًا بين الموت وجهنَّم. أجل، كان اليهود يستعملون كلمة واحدة للدلالة على الاثنين، لكنهم كانوا يُكثرون من الصور والتشابيه للتعبير عمَّا هو موت الانانية المتصلّبة، موت الذي أمسى كلّه انانية: فهناك صور الكبريت والنار، والدمار في وادي هِنّوم، وعجيج الدود المعبِّر عن افكار العُقم والعُقر والرُّذالة والتفاهة والفساد الخ. أتوا بالعديد من هذه الصور، فوضعوا أُسس ما حدَّدته الكنيسة في وقت لاحق على صعيد العقيدة. وعلينا اليوم ان ننتقل من الكتاب المقدس الحافل بالصور الى العقيدة التي صاغتها الكنيسة. ولا يحسن بنا ان ننبذ الصور لأننا نعدّها صبيانية، كما انه لا يحسن بنا ان نغوص فيها، بل علينا، انطلاقًا من الكلمات العقائدية التي تعرضها علينا الكنيسة، ان نُعمل التفكير بصفتنا أناسًا أذكياء.

التفكير اللاهوتي

يجب على المسيحي ان يُحسن قراءة الكتاب المقدس (في عهدَيه القديم والجديد)، وألاَّ يكون أصوليًا، اي ان يكتفي بقراءة لفظية للانجيل. ولكن لا يجوز له ان يجمع منتخبات من الكتاب المقدس، فيحفظ ما يحلو له ويُهمل ما

يُزعجه. فلا بدّ ان ينطلق التفكير اللاهوتي من جميع النصوص الكتابية، حتى من اشدّها تعقيدًا.

احتمال جهنّم: من شروط عظمة حريتنا.

نقول مرة أخرى إن جوهر المسيحية هو الوحي بإله ليس هو إلاّ محبة. لكننا نضيف على الفور أنه لا يجوز لنا التسرّع في الادّعاء بأننا نعرف ما هي المحبة عند الكائن اللامتناهي. اعتقد بأنه لا بدّ من حياة كاملة، من حياة مليئة بالاختبار، ليفهم الانسان قليلاً ما هي المحبة وماذا تتضمّنه. على كل حال، إن بدا لنا أن قضية من قضايا التعليم المسيحي لا ترتبط بالمحبة او تناقض المحبة او ليست شرطًا او نتيجة للمحبة، نكون على حق في رفضها.

لكن ذلك امر مستحيل، لأن المسيحي هو الذي يؤمن بأنه من المستحيل ان يكون هناك قضية من قضايا التعليم المسيحي لا صلة لها بالمحبة. فالتفكير اللاهوتي كله يقوم على الشعور بالارتباط المنطقي بين المحبة وكل من قضايا التعليم.

اذا كان الله محبة، يبدو وجود جهنم أمرًا مستحيلاً لأول وهلة. ليس المسيحي من يؤمن أولاً بجهنّم، بل من يؤمن بالمسيح ويرجو، إن أُثيرت هذه القضية، ان يكون وجود جهنّم للبشر أمرًا مستحيلاً. اُضيف على الفور – وهذا أمر هامّ جدًا –: ان قال احد إن جهنّم موجودة، ادّعى الاطّلاع على ما لا يعرفه المسيحيون على الاطلاق.

ليس لجهنّم وجود شبيه بوجود الأهرام في مصر. فإن التفكير انطلاقًا من الصور الكتابية يحمل الانسان على تصوُّر جهنَّم، لا مكانًا (يقال فيه طبعًا هل يوجد ام لا يوجد)، بل حالةً ووضعًا. وان كان في ذلك شيء من الالتباس، فلا نقلْ جهنَّم، بل «هلاكًا أبديًا» بالأحرى، او «حالة هلاك أبدي». فلا وجود لجهنّم، ان لم يكن هناك هالكون، ولا وجود لجهنّم بمعزل عن حالة الهلاك الابدي.

والحال اننا لا نعرف هل هناك هالكون وهل سيكون. وليس لنا ان نطلب

الى الله ان يطلعنا على هذا الأمر ، بل نرجو ولا يسعنا إلاَّ ان نرجو ألاَّ يكون هناك هالكون. نشعر أحيانًا بأن بعض الناس لا يروق لهم عدم امكانية التأكيد على ان هنالك هالكين، بل يرغبون من صميم قلوبهم أن يكون ذلك. وصلتني بطاقات يُزعم فيها، باسم القديس اوغسطينس والقديس يوحنا الذهبي الفم والقديس ايريناوس، أن التقليد المسيحي يُثبت ان عدد المختارين اقلّ من عدد الهالكين. أمر غريب! اعترف لكم بأنه شقٌّ عليَّ ان احافظ على هدوئي.

اذا كنتُ ادعو لجميع الناس بدون استثناء، بما فيهم يهوذا ومَن كانوا وحوشًا في هذا العالم، كهتلر وستالين (وما من احد يُرغمني على عدم الدعاء لهم)، فلأني ارجو خلاصهم. ولو لم أرجُه، لَما كنتُ أدعو لهم. هذا هو الجوهر: الايمان بإله ليس هو إلاَّ محبة ورجاء الخلاص الشامل.

لكن هذا الايمان وهذا الرجاء يقتضيان ان تكون المحبة المكنونة للبشر محبة تُحمَل على محمل الجدّ. وما هي المحبة الجدّية؟ هي محبة لا تُبطل حرية الانسان، بل تؤسّسها. ولو كانت المحبة تسيِّر الحرية للحصول على المبادلة مهما كلَّف الأمر، لَما كانت المحبة محبة. لا شك أنكم توفَّقون، مع اولادكم وهم أطفال، في الحصول على المبادلة. تحصلون على ملاطفة او قبلة او الكفّ عن الحرَد! لكنّهم لا يزالون صغارًا! فإن الله لا يعاملنا معاملة الصغار. لا تعود المحبة محبة، ان قالت: سأُرغمك في آخر الأمر على حبّي. فلا يستطيع الانسان ان يُرغم أحدًا على حبّه، لأن الإرغام على الحب ليس حبًّا.

في كتاب رائع، كتب جان لاكروا جملة قد تكون من اعمق ما كُتب في هذه السنوات الأخيرة: «المحبة هي الوعد والتواعد بعدم استعمال وسائل القوة في معاملة الكائن المحبوب. فالتخلّي عن كل قوة هو التعرُّض للرفض وعدم التفاهم والخيانة». هناك عدة وجوه قوَّة تُستعمل دائمًا، بقدر كبير او قليل، في الحب البشري، انطلاقًا من ضغط الإغواء القليل الضرر، الى العنف الخسيس. إن الغُنج والتملّق والكذب هي دود مختبئة في الثمار الجميلة المقدَّمة. هناك جميع وجوه الاغتصاب المُخفى او لا.

لا شيء من كل ذلك في الله : فليست فيه المحبة إلاَّ محبة ، فهي اذًا محبة تحرِّم على نفسها استعمال القوّة. محبته موهوبة حقًّا ، وهذا يقتضي ان تصبح محبة مقبولة. ومن الذي يستطيع ان يكفل أن المحبة الموهوبة حقًّا او المعروضة لن تكون محبة مرفوضة بحرّيّة؟ وان زعمتم ان مثل تلك الكفالة موجودة ، زالت المحبة ، لأنه لا يمكنكم ان تجدوا تلك الكفالة خارجًا عن استعمال القوة. والكفالة الوحيدة الممكنة هي ان يُرغمنا الله على محبته.

ان رفض المحبة هو ، في الواقع ، شيء مُرعب بكل معنى الكلمة ، وهو يكاد ان يتجاوز حد المعقول ، او إنه لا يُعقل إلاَّ بصفته حدًّا. وبالعكس ، فما يتجاوز المعقول وكلّ حد هو ان يستطيع الله ان يكفّ عن المحبة. ليس هناك أناس لا يحبّهم الله. لكن من شأن حرية الانسان – وعليها تقوم عظمته – ان تُقابل المحبة المعروضة بلا شرط برفض غير مشروط.

ان رأيتم أنه يستحيل على الانسان ان يُلزم صميم نفسه في انانية واعية ومتشبّثة ، قلَّلتم من قيمة الانسان وجعلتم منه ، بقدر كبير او قليل ، كما يقول سارتر ، دمية في أيدي الآلهة ، وانتهى بكم الأمر الى تصوّر اله يخلق حريتنا ويؤسّسها ويجمّدها ويسيّرها في الوقت نفسه ، وليس هذا أمرًا افضل. ان آمن الانسان ايمانًا حقيقيًا بعظمة نفسه ، آمن أيضًا بأن احتمال الهلاك الابدي مطبوع ، بصفته رفضًا غير مشروط للمحبة ، في بنية حريته نفسها. فإن احتمال جهنم هو عنصر بنيوي من عناصر حريتنا القابلة للتأليه.

هذا هو بالضبط ايمان الكنيسة : ان في عظمة الله وقداسته وصفاء محبته التي تحرّم على نفسها استعمال اية قوة كانت لإرغامنا على المحبة ، وفي عظمة الانسان وعظمة حريته ، ما يقتضي ان يكون الهلاك الابدي ، بصفته احتمالاً حقيقيًا ، مطبوعًا في عمق اعماق نفسه. هذا كل شيء ، ولكنه يذهب بنا بعيدًا.

جهنّم الله

أريد ان استشهد بقول لكيركغارد وبقول لنيتشه ، وهما جبّاران من جبابرة الفكر البشري ، كان احدهما مسيحيًا وكان الآخر غير مسيحي. قال كيركغارد ، وهو مسيحي ، إن «الخطيئة الى الروح القدس» التي ورد ذكرها في الانجيل هي الخطيئة التي «تنال من قدرته العليا». كيف ذلك؟ حين يعزم الانسان على ملاشاة محبة الله نفسها من اجل نفسه. لا يمكن ان تُلاشى محبة الله في حدّ ذاتها. لكني قادر على ملاشاتها من اجل نفسي ، كما اني أُلاشي الاكسيجين بالنسبة اليَّ ، من غير أن ألاشيه في حدّ ذاته ، ان رفضتُ التنفّس. فالهلاك الأبدي ، او الخطيئة الى الروح ، هو عزمي على عدم الاعتراف بأني استمدّ وجودي من المحبة. انه ، في الواقع ، رفض الانسان ان يكون محبوبًا.

طبعًا ، لا يكون الانسان في وضع الهالكين إلاَّ ان التزم بعزمه من صميم نفسه. من الواضح أنه لا يخطأ الى الروح القدس – او لا يرتكب خطيئة مميتة – كما يمشي في بركة ماء او كما يصطدم برصيف. اكرِّر أن هذا الاحتمال يكاد ان لا يكون معقولاً ، ولكن لا يمكن شطبه دون التقليل من قيمة الله والانسان والمحبة. وهذا ما لا تريده الكنيسة. يومَ يفهم الناس ما أروع رأي الكنيسة في الانسان وأنهم لا يجدون مثله خارجًا عنها ، تخفّ قساوتهم عليها ، بالرغم من اخطائها ونقائصها وهفواتها التعبيرية.

والقول الآخَر ورد على لسان نيتشه : «ولله أيضًا جهنّم ، وهي محبته للبشر». لكنه أساء الى عمق قوله ، اذ اضاف فيما بعد : «ولكن كيف التولّع بالبشر؟». هذه الاضافة مؤلمة ، إلاَّ انها مفيدة : فلا بدّ من الاختيار بين اله يخلو من المحبة فلا يمكن ان يكون إلاَّ وثنًا وإله محبة له هو أيضًا جهنَّم.

فإمَّا أن يسيِّرنا الله حريَّتنا ويستعمل القوة ليجعلنا نحبّه ، وفي هذه الحال لا وجود لاحتمال جهنَّم ، لا له ولا لنا. وإمَّا ان يكون صفاء المحبة المطلق فيحترم حريتنا احترامًا تامًا ويحرِّم على نفسه الحصول على مبادلة المحبة ، مهما كلّف

الأمر ، وفي هذه الحال يبقى احتمال جهنَّم له ولنا. إختَروا : اذا كان الله محبة ، كان جهنّم احتمالاً حقيقيًا ، وان لم تعترفوا بجهنّم ، فاجرُؤوا على التصريح بأن الله ليس محبة. أُقرّ بأن المفارقة تصدم العقل صدمة شديدة ، لكنها حقيقية.

لا شك ان العقل ، اذا قطع هذه المسافة ، اخذ يتردَّد مشدوهًا وعاجزاً. ولكن ، حين نشير الى ذلك الاحتمال الرهيب ، لماذا لا نفكّر إلاَّ في انفسنا وقليلاً فيه؟ يحسن بنا ألاَّ نرجو للبشر فقط ، بل ان نرجو أوَّلاً له.

وفي هذا الضوء ، يجب علينا ان نقرأ نصوص الانجيل. فحين يبدو لنا أن الانجيل يقول إن الله يأخذ على عاتقه هلاك البشر الأبدي وإنه هو الذي يُصدر حكم الهلاك (متى ١٣/٤١ و ٢٥/٤١) ، يعني هذا ان الله نفسه لا يستطيع ان يعمل اي شيء ، سوى أن يتألَّم امام حرية تنغلق على المحبة. فالعقاب لا يأتي من الله ، بل من الباطن ، كالانسان الذي يُغلق المصاريع فيحرم نفسه من نور الشمس. وهذا يعني أيضًا ان الفعل الخالق ، وهو أزلي ، لا يسعه إلاَّ ان يتضمَّن ذلك الاحتمال. ما اكبر المخاطرة التي يتعرَّض لها الفعل الخالق!

في الحقيقة ، تُملي علينا عقيدة جهنّم موقفًا نفسيًا ، لأنه ليس هناك أية عقيدة يُراد بها إشباع فضولنا العقلي. فلا يكشف لنا الله ولا تعلّمنا الكنيسة إلاَّ ما لا بدّ منه لكي يكون موقفنا النفسي موقف حق ولكي يكون عملنا عملاً حقيقيًا. ان الموقف النفسي والقيمة الروحية اللذين تفرضهما عقيدة جهنَّم هما الرجاء على وجه صلاة. نكاد ان نعجز عن تجاوز التنازع بين ايمان باحتمال الهلاك ورجاء خلاص جميع البشر. ولا يمكن ان يكون خلاصنا الأبدي وتأليهنا أمرًا اكيدًا من الطراز الحسابي ، كـ ٢ و ٢ يساويان ٤ ، وإلاَّ خرجنا من ملكوت المحبة. ان كان المقصود هو المحبة (فكِّروا في اختباركم للحب!) ، فيقيني لا يمكن ان يكون إلاَّ رجاء. إنه يقين ، ولكن على وجه رجاء ، والرجاء هو على وجه صلاة.

ان نزول المسيح الى مثوى الاموات هو بند من بنود قانون الايمان ، لكن احتمال جهنّم ليس بندًا من بنوده. ولماذا؟ لأن جميع بنود قانون الايمان مرتبطة

بعبارة «أومن ب» ، لا بعبارة «أعتقد ب» . وتتعدّى عبارة «آومن ب» الى العاقل ، لان الايمان يكون بأحد ، وهي عبارة المحبة : أومن بك ، احبُّك ، أثق بك ، أتّكل عليك ، أَستسلم اليك . وقانون الايمان هو الايمان بالله الآب والابن والروح القدس . فلا أرى ماذا يعني الايمان بجهنّم . ونعتقد بأن جهنّم هو احتمال . فنؤمن بإله لا تقدر محبته على احتمال جهنّم .

حاشية رقم ٢ – المطهر

ان علم اللاهوت اقلّ تأكيدًا لوجود المطهر منه لاحتمال وجود جهنَّم. لكني أميل شخصيًا الى القول: ان كان المطهر غير موجود، وجب ايجاده.

لا بدّ من المطهر للمشاركة في حياة الله

يتناسب عمق الهوّة مع علوّ الجبل. فإن كان علو الجبل ثلاثمائة متر، كان عمق الهوّة المناسبة ثلاثمائة متر. وان كان الكلام على جبل هملايا، كان عمق الهوَّة المناسبة حتى مستوى البحر ثمانية آلاف ومائة واثنين وثمانين مترًا. ما هو علوّ الجبل المسيحي؟ لا حدّ له ولا قياس. والهوّة المناسبة لا قعر لها. فلو لم تكن دعوتنا أن نشارك في حياة الله ونصبح أنفسنا آلهة (وهذا ما لا يتردّد المتصوّفون في قوله)، لَما كان هناك من جهنَّم، ولَما كان هناك أيضًا من مطهر.

ان كنتم مربّين، فلا تحدّثوا الأولاد عن جهنّم والمطهر قبل التأكّد من أنهم يؤمنون بأن جوهر كل شيء هو دعوتنا الى ان نشارك في حياة الله نفسها، وإلاَّ أمسى كل شيء غير معقول وغير معنى له، بما فيه الخطيئة الاصلية.

يقوم تعليم المطهر على المبدأ التالي: ان أردنا ان نتَّحد بالله في وحدة حياتية، وجب علينا ان نكون كلّنا محبة، كما انه هو كلّه محبة. لا تدخل في الله أية ذرَّة من الانانية، لأن الانانية هي نقيض الله، فهي تعارض الله. المحبة

وحدها تمثَّل بالمحبة. فمن الذي يجرؤ على الاعتقاد في ساعة موته بأنه قائم في حالة المحبة الكاملة وانه تخلّص من كل ذرَّة من الانانية؟ هذا امر مستحيل، باستثناء مريم العذراء.

من الراجح أنه ما من خليقة في وسعها ان تقوم في هذه الدنيا بعمل واحد يخلو تمامًا من اي رجوع أناني الى النفس. وبما ان المقصود ليس هو التمتُّع بسعادة طبيعية محض، بل المشاركة في الله كما هو في حد ذاته، فلا بد ان تضمحلّ تمامًا جميع رواسب الانانية. هذا هو معنى المطهر. لا بدّ ان تضمحلّ الانانية لكي تكون المحبة تامّة. لا بدّ ان تحترق الانانية بندامة مطهِّرة، لكي تكون المحبة تامَّة بالسعادة.

اذا كانت حياتكم الروحية اصيلة، واذا كنتم تعيشون في باطنكم مع الله، لا يخفى عليكم ان الانانية لا تقتصر على اعمالكم التي تناقض المحبة صراحة، بل تشمل أيضًا، كما يقول كلوديل، تلك «الحرارة الدائمة» حرارة الانطواء على النفس، الذي يلازم جميع اعمالنا حتى أكرمها، والذي ليست اعمالنا السيِّئة إلاَّ نقاط انبثاق له.

ومثل هذا التطهير، وهو يتغلغل الى اعماق الكيان، لا يمكن ألاَّ يكون أليمًا. والمراد به ان يكون الانسان منفصلاً عن نفسه ليكون قادرًا على هبة نفسه لله على وجه تام. والحال ان الانفصال عن النفس هو الألم بالذات. والألم الذي نعاني منه في الزمن الحاضر هو بداية ذلك العمل التطهيري. ولو لم يكن للألم الذي نعانيه اليوم قيمة تطهيرية، لكان أمرًا غير معقول وحجر عثرة. فهناك مطهر منذ الآن في هذه الدنيا. ولكن لا بد ان يُستكمَل ألم الزمن الحاضر بعد الموت، ويتم ذلك على وجه غامض (والكنيسة معتدلة جدًا في الكلام عليه)، ولكنه أكيد.

ولا عجب ان يشبِّه التقليد ذلك الحَرْق التطهيري بالنار. ففي الواقع، لا فرق بين النار التي تُهلك في جهنَّم والنار التي تُطهِّر في المطهر والنار التي تُسعد في السماء. ونحن هم المختلفون أمام المحبة الثابتة واللامتناهية: فإن كنَّا مخالفين تمامًا

للمحبة ، عذَّبتنا نار الله ، وإن كنَّا قادرين على الاطِّهار ، طهَّرتنا هذه النار ، وإن كنَّا متّحدين بالله ، أسعدتنا هذه النار .

المطهر محبَّة مطهِّرة

فليس المطهر ألمًا يُفرض ويحاول الانسان ان يقاومه عبثًا ، بل يجب ان نفهم أنه ألم يقاسيه الانسان طوعًا ، حين يمثل أمام قداسة الله الساطعة فيرتاع من حالته . وهذا الارتياع من النفس أمام المحبة هو الندامة . وهذه الندامة هي شدّة محبة تريد التعويض عن حقارة الماضي . ولا عجب ان تتفتّح عفويًا في الانسان ، بقدر ما يغمره النور الالهي فيضعه أمام حالته . فكأنها موازنة حيَّة لكلّ حياته ولكل سيرته .

فالمطهر ألَم اختياري لا يريد الانسان ان يفوته على الاطلاق ، وهو فرح في الوقت نفسه . فلا بدّ من الكلام على فرح المطهر ! في مقال رائع عن المطهر ، كتبت القديسة كاترينا الجنويَّة : ما من شيء ، ما عدا فرح السماء ، يشبه فرح المطهر ، إذ كلَّما احترق الانسان بنار المحبة المطهِّرة ، شعر ورأى نفسه يعود طاهرًا وقادرًا على الدخول في الله . فمَثَلُه مثل القضيب الحديدي الذي غطَّاه الصدأ وطهَّره ورق الزجاج ، فإنه ، لو كان واعيًا ، لَشعر بألَم الفَرْك ، ولَفرح في الوقت نفسه بالتخلّص من الصدأ .

حين يرى الانسان نفسه أمام المحبة ، لا يسعه إلاَّ ان يرغب فيها . وليس ألمه إلاَّ الشعور بأنه غير قادر على ذلك تمامًا . فينا ، منذ هذه الدنيا ، بداية مطهر ، حين نشعر بأسمى الآلام وهو الاكتشاف أننا ، في اللحظة التي نقول فيها لأعزّ الناس انّنا نحبه ، لا نتكلّم بالصدق تمامًا ، فإننا نحبّ أنفسنا اكثر ممَّا نحبّه ونفضّل أنفسنا عليه . بكاؤنا حَسَن اذا شعرنا أننا ، بقولنا : احبُّك ، لسنا صادقين أبدًا على وجه تام . نحن صادقون الى حد ما فقط . كثيرًا ما يكون الآخَر ، الى حد ما أيضًا ، وسيلة مفضَّلة للحب الذي نكنُّه لأنفسنا . فألَمنا هو الاعتراف ، في وعي تام ، بأننا عاجزون عن المحبة الحقيقية .

والمطهر هو ذلك الألم، إذا ازداد شدَّة وبلغ درجة ضخمة من الشدَّة بفضل النور الالهي الذي يكشف لنا في آن واحد لانهاية الله وصفاء محبته التي هي ليست إلاَّ محبة والقسط الهائل من الانانية في موازنة حياتنا.

المطهر هو، بالحرف الواحد، ساعة الحقيقة، لحظة الحقيقة. ورد على لسان فينلون هذه الكلمة الرهيبة: «كل ما لا يزال للانسان هو من مِلك المطهر». ففي ساعة موتي، ما هو لي بالأكثر هو أنا، هو كياني نفسه أكثر ممَّا هو عندي، ولا بد أن «انفصل» عن نفسي لأشابه الله وأدخل في وحدة حياتية معه.

اذا لازمتُ انسانًا لفظ انفاسه واستعاد هدوء وجهه بعد الانقباضات التي سبَّبها النزاع، سمعتُ حولي المسيحيين يقولون بإيمان: أخيرًا، أصبح سعيدًا! أفضّل أن يقولوا: أصبح أخيرًا قادرًا على المحبة! فإن سعادة السماء ليست أيّة سعادة كانت، بل هي سعادة القدرة على المحبة كما يحب الله، بدون أيّ رجوع الى النفس وأيّ انطواء على النفس وأيّ التفات الى النفس. فالمطهر هو ما يجعلنا قادرين على ان نكون على مثال الله، اي مجرّد صلة بالآخَر وبالآخرين.

وهذه الموازنة التي تُكشف لنا وتعرِّينا، اذا صحّ القول، وتقطع السبيل على ايّ تقنّع، هي ما يسمّونه أيضًا، في اللغة التقليدية، الدينونة الخاصة. فليس هناك ايّ فرق بين رؤية النفس على حقيقتها والتألُّم من هذه الحقيقة والتمتُّع الشديد بزوال العقبة التي تحول دون الدخول في الله على وجه تام.

ولذلك يضع كلوديل على لسان «نفوس المطهر»، في النشيد الكبير الذي سمَّاه «البيت المُغلَق»، هذه الكلمات: «ادعوا لنا، لا ليخفّ ألمنا، بل ليشتدّ، ولينتهي أخيرًا الشرّ فينا وفظاعة تلك المقاومة الممقوتة».

هذه الأبيات الشعرية تنمّ عن تفكير لاهوتي كامل. فالمطهر (او الدينونة الخاصة) هو حضور تام للنفس ومعرفة تامّة للنفس ورؤية تامّة للنفس وهذه الرؤية هي، في الوقت نفسه، صَلْب للنفس. فإن صليبي هو معرفة نفسي كما أنا هو، وهذا أمر لا يتمّ إلاَّ إن استنرت بالنور الالهي. وكل ذلك يُلقينا في الله للأبد.

بما أن عقلنا وكلامنا هما غير كاملَين ، فلا بدّ ان نترجم بالكَمّي ما هو كَيفي. الأفضل ان يكون تعبيرنا بألفاظ شِدَّة فقط : شدّة المحبة التي تذوّب رواسب الخطيئة. فنحن نعبِّر عنها تعبيرًا غير موفَّق بألفاظ تدل على المدَّة، ونتكلّم على « زمن » طويل او قصير يقضيه الانسان في المطهر. لماذا هذا الجهل في الكلام؟ الجواب بسيط في نظري : في زمن كان الناس اقلَّ نقدًا منَّا ، لم يكن هناك وسيلة أفضل لايصال الفكرة الى العقول.

فلا بدّ من انتقاد ذلك التصورُّ الزمني ، علمًا بأنه مجرّد رمز. انّنا نعبِّر بألفاظ مدة وزمن عمَّا لا نستطيع ان نعبّر عنه بألفاظ وافية. لكننا ، ان سلكنا طريق النقد (ان بني جيلنا كثيرو التطلّب في هذا الأمر ، لكن الكنيسة تتكلّم كلامًا موجَّهًا الى جميع الناس !) ، وجب علينا الذهاب الى اقصى حدود النقد الفلسفي.

وعليه ، فلا نعُد نقول إن المطهر هو « بعد » الموت وإن السعادة هي « بعد » المطهر ، اذ ليس هناك من « بَعد » بالمعنى الدقيق. الـ « بَعْد » والـ « قَبْل » يرتبطان بالزمن ، وبالتالي بهذه الحياة. فمن تباهى بكونه فيلسوفًا ، وجب عليه ان يقول إن الموت هو شرط المطهر وإن المطهر هو شرط السعادة. وكلمة شرط صحيحة لأنها غير زمنية ولا تنطوي على « قبل » و« بعد ».

وأضيف في الختام : ان عادة الصلاة من اجل الأموات من قديم الايام هي التي ولَّدت عقيدة المطهر ، لا العكس. لا يصلّون من اجل الأموات لأن هناك مطهرًا ، لكن الكنيسة تقول بأن هناك مطهرًا لأن عادة الصلاة من اجل الأموات عريقة في القدم. في الكنيسة ، الحياة هي الأولى دائمًا ، وهي تسبق العقيدة ، لا العكس.

لنكنْ ذوي فطنة ودقّة في طريقة كلامنا على هذه الاسرار. ليست هذه الساعة ساعة تكديس العقبات في طريق الايمان ، فإن الايمان أمر عسير عند بني جيلنا.

فرح الإيمان

بهجة الحياة

محاضرات في أهمّ قضايا الإيمان المسيحيّ

الأب فرنسوا ڤاريّون اليسوعيّ



القسم الرابع : **بعض المقاييس التمييزية للقيام بالمهمة البشرية**

القسم الرابع

بعض المقاييس التمييزية للقيام بالمهمّة البشرية

الحياة هي الرجاء

سأستند الى الكتيّب الذي وضعه الأب غان في سلسلة «ثقافات وايمان» والذي عنونه «الرجاء الذي فينا»، وسأستشهد به أحيانًا بالحرف الواحد. إنه رائعة من روائع المنطق العملي او النقد القاسي لما نجده في طريقة شائعة معيَّنة لفهم الكتاب المقدس من وجوه نظرية تعرِّض القارئ للخطر. يتّسم هذا العمل بروح كتابي أصيل، ولا ينقطع فيه الاستشهاد الصريح بالكتاب المقدس، لكن هذا الاستشهاد يخضع لتفكير بسيط في حياة البشر، في حياتنا وحياة اخوتنا. ليست عبارتا «كان في الحياة» و«انطلق من الحياة» مجرّد شِعار، بل المراد بهما، في آن واحد، الانجيل الدائم وأحداث آخِر ساعة.

لننطلق اذًا من الحياة ولنطرح على أنفسنا هذا السؤال: ما هو رجاء البشر في ايَّامنا؟ رجاء أي شيء؟ رجاء يستند الى اي شيء؟ ما هو الشيء الذي يمكّن بني جيلنا من رجاء ما يرجونه؟ ما هي العلاقة التي سنكتشفها قائمةً بين رجاء بني جيلنا والرجاء المسيحي؟ انّهما يتعارضان في الواقع، ولا شك، بمعنى ان الرجاء الذي يعيشه السواد الاعظم من معاصرينا، والذي هو حياتهم نفسها (الحياة هي الرجاء)، لا يمتّ بصلة الى ما نسمّيه «فضيلة الرجاء الالهية». ولكن، كيف يجب ان تكون الأمور؟ او، بعبارة أخرى، أمِن المحتّم ان يؤدّي رجاء بني جيلنا الى الالحاد؟ ان كان الجواب نعم، وجب علينا ان نستخلص ان الايمان لا يمكن ان يكون إلاَّ خارج الحياة، وهذا ما تسميه الماركسية اغترابًا. أمَّا اذا

كانت اصالة الايمان مشروطة بارتباطه بالحياة ، فأين هي انواع سوء التفاهم وما العمل للقضاء عليها؟

اذا خُيِّر الانسان بين العالم البشري والعالم الالهي ، بين الآمال البشرية والرجاء المسيحي ، وجب القول إن هناك شيئًا ما لا يسير على ما يُرام ولا يرتكز على اساس متين. فالخيار بين العالم البشري والعالم الالهي هو انكار للتجسّد ، لأن التجسّد هو الاتّحاد الذي لا ينحلّ بين الله والانسان في المسيح. لا خيار بين الانسان والله ، اذا صحّ ان المسيح هو نفسه الانسان والله. يجب ان نتخلّص من تلك العادة السيّئة التي ادّت الى نتائج وخيمة.

الآمال البشرية

الرجاء مرتبط بالقدرة

يوضّح الأب غان الأمور ، بمجرّد تحديده للرجاء ، كما فعل غبريال مرسيل قبله. يرجو الانسان ، اذا ظنَّ انه يقدر على الوصول الى ما يطلبه ، ويفقد الرجاء ، اذا ظنَّ انه غير قادر على ذلك. كنتُ ارجو ، يا صديقي العزيز ، ان اقدر على الحصول على هذا او ذاك ، لكني أرى الآن ان الأمر مستحيل. فبالصراحة ، لا حيلة لي في ذلك. هذا مفتاح سيفتح امامنا كثيرًا من الابواب ، بما فيها ابواب الكتاب المقدس.

يرجو الانسان ، لأنه يظنّ أنه يقدر. فالرجاء يرتكز دائمًا على قدرة تجعل ممكنًا تحويل الوجود. ان كنتُ أرجو شراء مسكن اضافي ، فلأني اتوقّع حدوث تحوُّل في وجودي : فلن يكون الغد ، مع بيت ريفي ، كاليوم بدون بيت. والحال اني لا اقدر على شراء بيت إلاَّ ان توفَّر لي المال. فالمال هنا هو القدرة التي ارتكز عليها ، وهو الذي يضمن رجائي فلا يكون رجائي حلمًا أو وهمًا. وفي حالات

أخرى ، تكون القدرة نجاحًا اجتماعيًا او تقدّمًا علميًا او السيطرة على الحكم السياسي او الثورة. فإن فُقدت القدرة ، فُقد الرجاء.

وما هو مضمون كل رجاء؟ هو دائمًا السعي الى التحرُّر. فلا يرغب الانسان في التغيير لمجرّد التغيير ، ما لم يَبدُ التغيير لمجرّد التغيير تحرُّرًا من الروتين الذي يولِّد السأم ، السأم من البقاء في المكان نفسه والقيام بالعمل نفسه من الصباح الى المساء. ولكن لا حاجة الى الافراط في التدقيق. فما يرجوه الانسان هو ، كما قال رامْبو ، «تغيير الحياة» ، اي تحويل اوضاع الوجود التي تُعدّ غير انسانية. لا كلام على الرجاء ، حيث لا طموح الى تحويل حالة استعباد لا يُطاق الى حد بعيد او قريب.

التحرُّر ، ولماذا؟ ليحيا الانسان حياة تكون انسانية بكل معنى الكلمة ، وليزداد انسانيةً في مجتمع اكثر انسانية. ولا بدّ ان نتساءل ما هو ، في آخر الأمر ، ازدياد الانسان انسانيةً وما هو المجتمع الاكثر انسانية. جميع محاولات التحرُّر في التاريخ تفترض وجود تصوُّر للانسان. فالفرويدية مثلاً هي تصوُّر للانسان وأنتروبولوجية ، اذ ان التحليل النفساني يهدف دائمًا الى جعل الانسان اكثر انسانية.

يمكننا هنا ان نتكلّم منذ الآن على الكتاب المقدس ، فليس هو سوى قصة تحرُّر طويلة واكتشاف قدرة فعَّالة لتحرير البشرية.

يروي لنا الكتاب المقدس كيف أن بعض الناس حملهم تاريخهم على السعي الى التحرّر ، فاكتشفوا وقبلوا ، في اختبارهم البشري ، ما في المسيح القائم من الموت من قدرة محرِّرة.

الرجاء هو الالتفات الى المستقبل ورفض الانحصار في تقصير الحاضر عن طريق الاستسلام لهذا الحاضر. فإن الشعور بالعبودية هو الذي يولّد ، في الواقع ، العزم على الخروج منها. ويمكن القول بأن الرجاء هو يأس تمَّ التغلّب عليه. وأُضيف : الرجاء هو جَماعي دائمًا ، لأن الانسان لا يرجو وحده. قد يتصوّر أنه يرجو وحده او من اجل نفسه فقط. لكن ذلك وهم من الاوهام.

أمّا الانعزال فهو يحمل على اليأس. والرجاء الذي لا يُعاش جماعيًا ينحطّ او يضمر. والرجاء يشبه الفرح، فكلاهما ينموان في المشاركة. ليس هناك فرح فرديّ بالمعنى الحصري. فالرجاء يرتبط اذًا بالتضامن.

القوى البشرية في ايّامنا

الى ايّ قوى يستند رجاء العالَم الجماعي، لتحويل أوضاعه الوجودية، «وتغيير الحياة»؟ يختصرها جان لاكروا، في كتاب صغير قيّم، في ثلاث:

١) **القدرة التقنية**: التقنية بنت العلم. في الماضي، كان العلم يهدي الى الله. فكانوا يقولون بصواب: قليل من العلم يُبعد عن الله، وكثير منه يردّ اليه. فكلّما كانوا يطّلعون على عجائب العالم، كانوا يُعجبون بخالق هذا العالم، مفسّرين ما ورد في أحد المزامير: «السموات تحدّث بمجد الله». وكانوا يسلّمون باستقلال العلم في حقله، ولكن في حقله فقط.

والحال ان حقل العلم هو الطبيعة، وما يسمّيه الفلاسفة عالم الظواهر، اي ما يظهر وينتج، لا عن التفكير، بل عن المراقبة. أمّا الواقع في كُنهه، اي ما هو وما هو وراء ما يظهر (كالنفس الروحية او الله)، فكان حقلَ الفلسفة والدين. لكن العلم وصل شيئًا فشيئًا الى القول بأنه يدرك الواقع، كل الواقع، لأن الواقع هو في هذه الدنيا، وأن العالَم الحقيقي الوحيد هو عالم هذه الدنيا، وان العالم الذي يريد العلم أن يوفّر فيه مصير البشر ويحقّق رجاءهم هو عالم هذه الدنيا.

يصرّح العالِم بأن فكرة وجود الله لا تفسّر شيئًا، او، بوجه ادقّ، بأن اللجوء الى فكرة وجود الله لتفسير العالَم هو حلّ رخيص تحرّمه النزاهة العلمية على نفسها. وهذا ما عناه الفيلسوف رينوڤييه، بقوله الشهير الذي كثيرًا ما أُسيء فهمه: «الالحاد هو الاسلوب العلمي الصحيح». المسألة هي مسألة اسلوب: لا يكون الإثبات حقيقيًا في نظر العلم إلاّ اذا أقامه العالِم بالأساليب الخاصة به.

فالعلم لا يُجيز تشبيه العالَم بساعة يجب البحث عن صانعها خارج العالم.

على كل حال، إن أثبتُّم وجود الله بطريقة علمية، فإن هذا الاله الذي تُثبتون وجوده هو أُولى حلقات سلسلة تفسيرية. فلا يعود إلهًا، لأن أُولى حلقات السلسلة هي جزء من السلسلة. والحال ان الله يصبح إلهًا كاذبًا، اذا كان جزءًا من العالم. ولذا فإن جان لاكروا على صواب حين يؤكّد بقوة فيقول: «مهما وجد العلم، نرفض ان نسمّيه إلهًا».

ان العلم يُنمي عقلية مُلحدة بقدر ما يريد ان يكون عَمَليًا. أعني أنه عقد معاهدة مع التقنية. فلم تعد المسألة مسألة معرفة للمعرفة، بل أصبحت مسألة معرفة للعمل (بناء جسور وصنع صواريخ الخ). بالجمع بين العلم والتقنية، تُبنى البشرية ويُضطلَع بمسؤولية التاريخ. ثلاث ثورات متعاقبة حتى اليوم حوَّلت مجرى الحضارة. الثورة الأولى كانت ثورة الآلة البخارية، والثانية كانت ثورة الكهرباء، والثالثة كانت ثورة الطاقة الذرّيّة.

منذ مئة سنة، أنمت التقنية أوضاع الحياة إنماءً عجيبًا، سواء أكان في ميدان السكن او النقل او البيئة الخ. ولا شك ان القوة التقنية زادت الانسان ثقةً بإمكانياته، وإن استُخدمت أحيانًا استخدامًا لاإنسانيًا (يمكن استخدام الطاقة الذرية لتدمير الارض)، وإن كثُرت الحوادث (حوادث السير وحوادث السكة الحديدية والكوارث الجوية...)، وإن كان التقدم الصناعي يثير مشكلة التلوّث. فإن القوة التقنية تبعث الامل بالتحرّر من عبوديات الطبيعة. وما من شيء يمنع الامل بأن تتمكّن القوة التقنية من تحرير البشر من أخطار الاعاصير والزلازل الارضية والثورانات البركانية. فالتقنية تقضي على فكرة الحتمية التي هي نقيض الرجاء والتي تدفعنا الى القول: قُضي الأمر ولا فائدة في العمل ومكتوب!

وقصارى القول، لم تعد الطبيعة مقدَّسة. كان الوثنيون يقولون: القَدَر، لكن المتديّنين كانوا يفضّلون كلمة «العناية الالهية». لا بأس! كانوا يعنون ان القوى الطبيعية تبدو مقدّسة. ولكن، اذا كانت القوى التقنية أقوى من قوى

الطبيعة ، لم تعد الطبيعة مقدسة . ولّى الزمن الذي كان الانسان المتديّن ينظر فيه الى الله نظره الى مسدّ يسدّ ثغر العلم . في الماضي ، كانوا يصلّون الى الله لكي ينزل المطر او تشرق الشمس . أما اليوم ، فإن الصلاة لاجل ذلك تخفّ يومًا بعد يوم ، لأن الانسان يعلّل النفس بأمل الحصول على ذلك بنفسه . ان التقنية هي قوة تمكّن من الرجاء ، في حين ان الاستسلام الذي كان مرتبطًا بالدين في عقل الانسان لم يكن يمكّن منه .

٢) **السياسة** : هي الوجه الثاني للقدرة التي يتأصّل فيها رجاء العالم العصري . من الواضح ان الانسان لا يُفلت من السياسة وان البعد السياسي هو بعد اساسي في الانسان . لكن السياسة حُصرت ، طوال ألوف من السنين ، في بعض الافراد او بعض الأُسر او في طبقة اجتماعية . أمّا اليوم ، فإن عامّة الناس تشعر بوجودها السياسي . وأصبح الانسان قادرًا ، لا على التحكّم في قوى الطبيعة فقط ، بل على توجيه طاقة الجماهير أيضًا .

والحال ان الله يظهر لبني جيلنا بمظهر السلطة العليا التي تُستخدم لإبقاء تلك الجماهير في نوع من القصور السياسي ، للحيلولة دون وصولها الى الرشد السياسي . قد يُقال ان الله يحبنا ، لكن ذلك لا يجدي نفعًا ، لأن الاله الأبوي ارهب من الاله الطاغية . نعرف كيف نتصرّف مع الطاغية ، أمّا الأبوي فإن فيه حجابًا من المحبة يستر فسادًا عميقًا تأصّلت فيه اللاعدالة . وهنا نلمس ما سمّاه جان لاكروا « أسوأ المآسي » ، اي « أن ما يدفع بالناس الى الالحاد هو ما يقتضيه العدل » . فيبدو الايمان بالله لكثير من الناس عقبةً تحول دون الامل ، لأن الدين ، بتأكيده على عزاء الآخرة ، يعزّي الذين خابت آمالهم !

٣) وهناك اخيرًا **الطاقة الاخلاقية** ، او قدرة الضمير الذي يريد ان يكون مسؤولاً . يرى الملحدون أن إنكار وجود الله هو الشرط المطلوب لتكون الاخلاقية انسانية على وجه صحيح ، اي جديرة بالانسان . قبل ان نحتجّ بشدة ، يجب علينا ان نفهم ما يعنون .

يعتقد الانسان العصري بأنه ، اذا تحمّل كامل المسؤولية عن تحويل الحياة الاجتماعية لتحرُّر الانسان ، مارس الاخلاقية ممارسة صحيحة . ويوضّح الملحد أنه لا يستطيع ان يفعل ذلك إلاَّ اذا تجاهل ذلك الوضع الاجرامي الذي يسمّيه المسيحيون الخطيئة الاصلية . لنقلْ بطريق العرض : لا بدّ من الاعتراف بأن المسيحيين كثيرًا ما (لا اقول : دائمًا) استخدموا عقيدة الخطيئة الاصلية ليبقوا في بيوتهم . كم مرةٍ سمعتُ كلامًا كهذا : ما الفائدة في تحمّل المسؤولية لتحويل العالم ، بما ان الانسان خاطئ منذ البدء وسيبقى خاطئًا للأبد !

كتب الفيلسوف ميرلوبونْتي (وكان في حداثته من اعضاء الشبيبة الطالبة المسيحية) : يجب رفض افتراض وجود الله ، مهما كلّف الأمر ، لأنه ، اذا كان موجودًا ، عرف كل شيء . ففي نظره ، جميع المشاكل وجميع المآسي محلولة ، وهو الذي يدير كل شيء من وراء الستار ، في المهزلة الكبرى التي يمثّلها الناس كالدمى المتحركة . ولكي يكون الانسان انسانًا في الحقيقة ، وانسانًا من الناحية الاخلاقية ، يجب ألاَّ يكون هناك وراء الغيوم حقيقة جاهزة ، بل يجب ان يبتدع الانسان الحقيقة ، يومًا بعد يوم ، مشمِّرًا عن ساعده ، من دون ان يكون هناك اي ضمان خارج عنه ، ليحوّل العلاقات البشرية ، أملاً بإحلال عالم اكثر عدلاً وأخوَّةً .

وبعبارة أخرى ، قام جوهر الأخلاقية ، زمنًا طويلاً ، على الخضوع للسلطة الشرعية ، سواء اكانت في العائلة او الدولة او الكنيسة . هذه الاخلاقيات المبنية على السلطة سقطت ، في نظر الانسان العصري ، بما فيها سلطة الله . وأصبح المهم أوَّلية المسؤولية على الخضوع للسلطة .

وهكذا فإن رجاء العالم العصري ، وهو يستند الى ايمان بالانسان وبقواه وطاقاته – التقنية والسياسية والاخلاقية – يؤدي في الواقع الى الالحاد . نُزعت القدسية عن كل شيء : عن الطبيعة ، وعن البنيات الاجتماعية والسياسية ، وعن السلطات المعنوية . فلم تعد الطبيعة ولا الدولة ولا الضمير مكان وجود الله ، بل أصبحت مكان قدرة الانسان الخلاَّقة .

اطردوا المقدَّسات ، تعُدْ بعجلة

لا حاجة الى مراقبة عالمنا مراقبة طويلة ، للتحقّق من ان ذلك السير شبه الشامل نحو نزع القدسية عن كل شيء يرافقه سير ليس اقلّ شمولية نحو العودة الى القدسية . ما اكثر الاشياء التي تُقدَّس ! العلم والتقدم والحزب السياسي واشياء أخرى كثيرة او اشخاص آخرون كثيرون ! فالمقدَّسات تعمل كثيرًا ، حتى في نظام سياسي ملحد ، اذ ان هناك مثلاً جماهير غفيرة تأتي الى زيارة ضريح لينين .

ان تعمَّقنا في البحث في عالمنا المجرَّد من القدسية على حد زعمهم ، وجدنا ان الانسان لا يزال في حاجة الى الاساطير والطقوس . فالمقدَّسات في كل مكان ، من اللغة الرياضية الى التنجيم ، مرورًا بالمساخر ومآدب رأس السنة . ولا بدّ لنا الآن ان نهتدي بعناية الى ما يعنيه كل ذلك ، ان اردنا ان نفهم ما هي العلاقة الحقيقية القائمة بين المسيحية والرجاء .

منذ ان وُجد بشر على وجه الارض ، وُجد الدين ، لا بل « فيض من الاديان » ، على حد قول بسكال . الدين والمقدَّسات شيء واحد ، فإن الانسان يبحث عفويًا عن « قدرة » قادرة على تحقيق رجائه . وهو يشعر ، فوق حاجاته الحياتية الأوّلية ، بحاجة الى حياة اكثر حيوية وحرية . ويريد التخلّص من زوال وجوده ووضعه ، وبالتالي من القلق (الزوال يولّد القلق والقلق يولّد اليأس) . وما يتوق اليه الانسان ، عن وعي او عن غير وعي ، هو حياة مليئة لا تشوبها شائبة ولا تحدّها حدود ، ما سمَّاه نيتشه ورامْبو « الأبدية » ، اي السعادة .

ما هي القدرة القادرة على جعلنا نتخطّى حدودنا و« نعيش » بالمعنى القوي ؟ يجب اكتشاف هذه القدرة . سبق ان قلنا : يرجو الانسان لأنه يؤمن بأنه يستطيع . أي أحد او ايّ شيء يوليه ان يستطيع ؟ إنه يحار في ما يختار . ولذلك نراه يميل الى قدسنة كل قدرة تفوقه وتبدو قادرة على تحقيق رجائه . فلقد قدسن الانسان القوى الطبيعية والكونية (الشمس والقمر والكواكب والارض

والينابيع والانهار)، والقوى او الطاقات الحياتية والطبيعية الأحيائية (الاشجار والحيوانات والجنس وجميع قوى الخصب)، والقوى الاجتماعية (العِرق والوطن والطبقة والحزب والقائد والحرب والذهب والمال)، بغض النظر عن تكاثر ما في الخرافة من وجوه دنيا لا حد لها. وقصارى القول، كل ما يبدو متمتّعًا بقدرة او طاقة يُرجى منها كل خير على وجه امتيازي، يتعلّق به الانسان ويجعل فيه سرّ رجائه. هذه هي ظاهرة عبادة الاوثان. قال بوسويت: «كل شيء هو الله، ما عدا الله نفسه».

لسنا أمام ظاهرة من ظواهر الماضي فقط، تعود الى عقلية تسمَّى بدائية، بل امام ثابتة من ثوابت الوضع البشري. فإن قدسنة القمر او قدسنة السيَّارة او النجم السينمائي هما ظاهرة واحدة تمامًا. أحيانًا ما نسمع الناس يقولون: فقد الانسان العصري الشعور بالقدسية. هذا خطأ كبير، فالصواب أنه يُفرط فيه. ونسمع الناس يقولون أيضًا: المسيحي يشعر بالقدسية، أمَّا الوثني فلا! الصواب هو العكس! ففي الوثنية يبدو كل شيء مقدَّسًا او قابلاً لأن يكون مقدسًا.

ان المسيحي، وهو كثيرًا ما يكون وثنيًا ولا يعرف (اعني المسيحي الذي لم يتحوّل تحوُّلاً جديًا)، لا يتردَّد في قدسنة جميع انواع القوى. اجل، لا يقدسن الشمس او القمر، ولا يقول: الشمس والقمر هما إلهان، بل يقدسن القائد او المُلكية. يقدسن الطبيعة، مضيفًا أن وجود عدم المساواة بين الناس (اي بعض الاغنياء وكثير من الفقراء) يوافق قوانين الطبيعة. يقدسن البنيات الاجتماعية او السياسية او الكنسية. فلا شك ان عبادة الاوثان هي ثابتة من ثوابت الوضع البشري. لكي تزول عبادة الاوثان، لا بد من زوال كل رجاء من قلوب البشر، او من اهتداء البشرية كلها الى الايمان، لأن الايمان وحده ينزع القدسية عن الاشياء. وهنا يقوم الأنبياء ليُنقذوا رجاء الانسان.

الأنبياء يطهّرون المقدّسات

كان أنبياء اسرائيل كبار مربّي الضمير البشري قبل يسوع المسيح. وكان اليهود القدماء في تردد دائم بين نزع القدسية واعادتها، فقام الأنبياء بإدخال الايمان كمبدأ تمييز. وكانت المقدّسات كثيرة جدًّا، فعلّموا كيف تميَّز القدرة التي لا تخدع الرجاء. ولذلك انتقدوا القوى التي يتّكل عليها الناس والتي تعرّضهم للخطر.

وأوّلها القوى الدينية: «ما فائدتي من كثرة ذبائحكم؟ قد شبعتُ من محرقات الكباش وشحم المسمَّنات...» (اش ١/١١). هذا يعني: لكم دين، ولكن لا ايمان لكم. والحال ان الدين الخالي من الايمان لا يمكن ان يكون إلاَّ سحرًا. تسعون، بصلواتكم وذبائحكم، الى استمالة قدرتي. انكم تضيعون الوقت، لانكم تسيئون معرفة هويتي. فلستُ مَن تظنّون...

وفي الفصل ٥٨ (اي بعد ذلك بثلاثمائة سنة: فلا شك ان الممارسات الدينية الخالية من الايمان كانت مستعصية في اسرائيل)، يقول الله: «أليس الصوم الذي فضَّلتُه هو هذا: حلّ قيود الشرّ وفكّ رُبَط النير وإطلاق المسحوقين أحرارًا وتحطيم كل نير؟ أليس هو ان تكسر للجائع خبزك وان تُدخل البائسين المطرودين بيتك...» (اش ٥٨/٦–٧).

وفي سفر إرميا (٧/٥–١١)، يقول الله ان الهيكل لا يحمي الذي يعيش في اللاعدالة: حرمته كاذبة وقدرته كاذبة، فهما غير قادرتين على تحقيق الرجاء: «أصلحوا طرقكم واعمالكم، فأُسكنكم في هذا المكان... إن أجريتم الحكم بين الرجل وقريبه، ان لم تجوروا على الغريب واليتيم والارملة... فإني سأُسكنكم في هذا المكان!». هذه نصوص علينا ان نحفظها عن ظهر القلب، او على الاقل ان نقرأها في كل صباح.

هكذا يندِّد بالدين الذي ليس هو تحوُّلاً في الباطن، اي في الضمير. القدسية الصحيحة هي على مستوى الضمير والحرية. والقدرة الوحيدة التي تضمن رجاء الانسان هي، في حدّ ذاتها، رغبة في احلال العدل. فإن الله لا يستطيع ان يصغي الى صلاة الانسان، ما لم يمارس العدل.

وندَّد الانبياء تنديدًا شديدًا بالأوثان السياسية. فإن القوى السياسية، سواء أَسُمِّيت المَلِك او الحُكم القائم او القائد او الحزب، تميل دائمًا الى الظهور بمظهر الإله. وهي تفرض على رعاياها وانصارها طاعة غير مشروطة. وأمام تلك القوى المقدسنة التى تستعبد الناس بدل ان تحرِّرهم، «يزأر» الأنبياء: انها كلمة وردت على لسان عاموس، وهو راع عاش على تلال فلسطين. كلَّفه الله بتبليغ «زئيره» الى بني اسرائيل (عا ١/٢).

اليكم الجملة التي تلخِّص كلام الأنبياء على أحسن وجه: الايمان يُنقذ حقيقة الرجاء، لأنه يكشف عن القدرة المطلقة وطبيعتها الحقيقية. ان الأنبياء يطهّرون المقدَّسات من دون ان يقضوا عليها. ويصالحون هذه المقدَّسات مع العقل ومع الضمير، اي مع أفضل ما في الانسان. اذا قام ضمير حريص على إحلال العدل والحرية بالتأكيد على الايمان بقدرة مطلقة، لم تعد المقدّسات مغرِّبة. وخلافًا لذلك، فإن هذا الايمان وحده – الايمان بتلك القدرة المطلقة التي نسمّيها الله – يمنع الانسان من نسبة المُطلَق الى قوى أخرى. وما من شيء مُطلق ما عدا الله. ولكن، يجب ألاَّ تُساء معرفة طبيعة هذا المطلق، اذ لا بد ان يكون في الحقيقة ضمانًا لرجاء الانسان. ولا يمكن ذلك إلاَّ اذا كان رغبةً في إحلال العدل: فما عسى ان تكون قيمة الرجاء البشري، ان لم يكن رجاء العدل؟ لا يكون رجاء بشريًا على وجه صحيح.

وماذا تعنيه العودة في ايّامنا الى المقدّسات سوى أن الانسان غير قادر، بمعزل عن الايمان، على الذهاب الى اقصى حد في انتقاده المقدَّسات؟ يصرّ الناس على وضع رجائهم في قوى غير قادرة على تحريرهم تحريرًا تامًا.

لا بدّ من تحوُّل ثلاثي لتقبُّل القدرة الحقيقية التي نسمّيها الله :

– **تحوُّل الضمير** : يجب الانتقال (الانتقال او العبور هو فِصح ، اي موت وقيامة) من موقف المقدَّسات السحري والمحافظ والتحايلي، الى موقف المحبة الروحي والقرباني والنزيه. وبعبارة اخرى ، لا بدّ ان يتبنّى الايمان جميع مقتضيات الاخلاقية الصحيحة ، ليتخلّص من التباسات المقدَّسات. ذكر المسيح ، في ملخَّص رائع لتعليم الأنبياء ، ما هي تلك المقتضيات : «العدل والرحمة والإخلاص» (متى ٢٣/٢٣).

– **تحوُّل الفكرة المكوَّنة عن القدرة** : يجب على المسيحيين الذين يقولون إنهم يؤمنون بإله قدير أن يعلموا بأن الله لا يقدر إلاَّ على المحبة. ليس هو قدرة على التدمير او السيطرة. إنه المحبة ، اي العطية الخالصة ، الخالية من أي رجوع الى النفس او اي انطواء على النفس. لا يقدر الله على كل شيء ، بل لا يقدر إلاَّ على ما تقدر عليه المحبة. لكنه قادر على كل ما تقدر عليه المحبة.

– **تحوُّل قوانا البشرية** : التقنية والسياسة والطاقة الاخلاقية. ليس المطلوب منَّا ان نقلِّل من قيمتها ، بل يجب وضعها في خدمة العدل والاخوَّة. وبما أن القدرة الحقيقية هي رغبة في إحلال العدل ، يكون الانسان في صلة حقيقية بالعدل اذا مارسه. فلا يمكن معرفة الله ، ان لم يتمّ التحوُّل. والتحوُّل يعني الكفّ عن استغلال الانسان والمشاركة الفعَّالة في رجاء التحرُّر. ترتبط معرفة الله بالعمل المحرِّر وبكرامة الانسان.

يكشف يسوع ان القدرة ليست إلاَّ محبة

تنبَّأ الأنبياء بمجيء المسيح. وها هوذا المسيح يواصل الآن ذلك الانتقاد الذي باشره الأنبياء ويُتمّه. يكشف المسيح أن القدرة الحقيقية هي حضور ، حضور محبة تقدر طاقتها ، المسمَّاة الروح القدس ، على استجابة أمنية الرجاء ، بتحويل البشرية كلها وتحريرها تحريرًا تامًا.

المسيح ينزع القدسية ، كما فعل الأنبياء . سبق للفريسيين ان قدسنوا شريعة موسى ، فذهبوا الى القول بأن الله نفسه يخضع للشريعة . فقال يسوع : كلاً ، لأن الله اكبر من الشريعة ولأن الشريعة ليست هي الله . سبق للفريسيين ان قدسنوا السبت . فقال يسوع وكرّر : «ان السبت جُعل للانسان ، وما جُعل الانسان للسبت» (مر ٢/٢٧) .

المسيح نزع القدسية عن السلطة . ما من شيء أكثر صبغة وثنية من القول بأن السلطة هي غاية تفوق الحرية . فقال يسوع : كلاً ، بل السلطة هي خدمة : «من اراد ان يكون كبيرًا فيكم ، فليكن لكم خادمًا» (متى ٢٠/٢٦) .

المسيح نزع القدسية عن الغنى ، فندَّد به لأنه قدرة على الشرّ : «الويل لكم أيها الأغنياء ، فقد نلتم عزاءكم» (لو ٦/٢٤) ، اي لم تعودوا ترجون أي شيء ، فلستم أحياء .

المسيح ينزع القدسية عن القوى ليحرّر دينامية الرجاء . لنعدْ هنا قليلاً الى التاريخ لنفهم كيف عاش يسوع رجاء شعبه .

يسوع هو انسان ، إنسان متحدّر من الشعب اليهودي . ويعرف تاريخ شعبه ، وهو ، ككل تاريخ ، تاريخ رجاء . فلا نظنّنّ أنه يتخلّى عن تضامنه معه . نحن المسيحيين نميل الى تقسيم الانسان الى اثنين : آماله الزمنية من جهة ، ومن جهة أخرى إله يُشرف عليها من علٍ ، إله يقيم في عالم خلفي . أمَّا يسوع فهو نقيض الإله الذي يُشرف من علٍ ، والتجسُّد هو نقيض الاشراف من علٍ . فلو تجسّد الله في العالم و «حلّق فوق» العالم في الوقت نفسه ، لكان تصرّفه في منتهى الغش . لكن يسوع لا يغش . انظروا اليه يعيش بين اخوته . لا يخفى عليه ان أمل إحياء مملكة اسرائيل لا يزال حيًا منذ حرب المكّابيين . لكنه يرى فلسطين تحت احتلال الرومانيين ، بدل ان تكون محرَّرة . ولا يستغرب ان يسمع الناس يتحدّثون حوله عن امل التحرُّر ذات يوم من الاحتلال الغريب .

والى جانب ذلك ، يرى ان اهتمام مواطنيه هو سياسي محض . ويلاحظ ان رجاء التحرُّر يستند الى شتّى العقائديات : فهناك الغيورون (وأملهم ان يطردوا

المحتلّين الرومانيين عن طريق عمليّات حرب العصابات)، وهناك الأسينيّون (وهم يؤلّفون في دير قمران جماعة أصفياء)، وهناك الصدّوقيون (وهم يشبهون الى حد ما المتعاونين مع الألمان في اثناء احتلالهم لفرنسا).

أخذ يسوع يهذّب ضمير معاصريه. فحملهم شيئًا فشيئًا على تخطّي عقائدياتهم واكتشاف ما يتضمّنه في الحقيقة رجاؤهم التحريري. لم يقل للرسل: ماذا تريدون؟ لا يخفى عليه ما يبحثون عنه في ضميرهم الصافي الذي لم يخضع لانتقاد الايمان. بل قال لهم: «مَن تريدون؟» ليحملهم على الشعور بأنهم، في صميم قلوبهم، يبحثون عن احد، لا عن شيء. فالقدرة الحقيقية على تحرير الانسان هي الله، لا عقائدية من العقائديات. ولكن، على مَن يريد ان يلتقي الله الذي يحرّر أن يخرج من الموقف السحري ويدخل في مجانيّة المحبة.

تربية الناس مهمة عسيرة. تربية الناس هي الوصول بهم الى درجة من العمق يجدون فيها ما يتضمّنه في الحقيقة رجاؤهم التحريري. بعد تكثير الارغفة، يظهر يسوع اولاً بمظهر مَن يصلح لأن يكون وزيرًا ممتازًا للتموين. فيجب تتويجه وتقليده زمام السلطة السياسية. فاقترح عليه الجمع ان يكون ممثّلاً معترفًا به للعقائدية السياسية، وبذلك ظنّ هذا الجمع أنه يحقّق رجاءه. لكن يسوع قال: كلاّ. رفض ان يكون القدرة المقدسنة التي تُغني عن تحوُّل الضمير تحوُّلاً عميقًا. لم يكن الرسل أقلّ ارتباكًا من الآخرين، لكنهم قبلوا ان يخضعوا لانتقاد المسيح... ما عدا يهوذا، فإنه ثار على هذا الجواب ورفض ان يحوّل نفسه، فبقي متمسّكًا بقدرة المال وبعقائدية الربح، مع ان يسوع كان قد قال له إن عقائدية الربح هي أسرع العقائديات انقلابًا على الانسان. لا يستطيع الانسان ان يعمل لله وللمال في آن واحد.

الله محبة وحضور وحرية. هذه الكلمات الثلاث يرتبط بعضها ببعض ارتباطًا وثيقًا: حضور المحبة يحرر او يولّد الحرية. ولا يشعر الانسان بأنه حرّيّة، ما لم يعلم بأنه معروف ومحبوب. وان كانت المحبة لا تجعل الانسان حرًّا، فليست

محبة. وان لم تكن المحبة حضورًا، لم تكن محبة. ليس الله ذلك القدير، بل هو قدرة المحبة. لا تقدر المحبة إلاَّ على جعل الانسان حرًّا. هذا هو الانجيل.

الله هو قدرة قوانا ومبادرة مبادراتنا

هل أصبحنا نفهم الآن على وجه افضل مأساة زمننا الروحية، تلك الازمة التي هي ازمة العالم وأزمة الكنيسة؟ يعبِّر الأب غان عن تلك المأساة على الوجه التالي: «هل تكون طليعة القوى البشرية التي يُرجى منها كل خير، في نظر بني جيلنا، معارِضةً للقدرة التي تأتي من الله والتي يسمّيها القديس بولس «قوّة (او دينامية) المسيح القائم من الموت» (فل ٣/ ١٠)؟ وهل هناك تعارض بين قدرة الانسان وقدرة الله؟ وهل يجب القول بأن القدرة الآتية من الله تدمّر القوى المنبثقة من الانسان؟».

كيف يمكن ان يقال بأن الله يسألنا ان نتخلّى عن قوانا؟ انه يخلقنا خالقين، ويعهد الينا بمهمة خلق عالم انساني بكل معنى الكلمة. ان عدم وجود ذلك العالم الانساني بكل معنى الكلمة أمر ظاهر كعين الشمس. ليس الانسان كائنًا جاهزًا، بل يجب صنعه. ولا يريد الله ان يقوم بهذا العمل، بل يريد ان نقوم به نحن، وهو يمكّننا من ذلك. ومن الواضح ان الانسان لن يبني العالم بقوى غير قواه. فالعالم البشري يُبنى بالوسائل البشرية، وهي تقنية وسياسية وأخلاقية.

ولكن لا بد من انتقاد هذه الوسائل البشرية. والانتقاد هو التمييز. فهناك عمل تمييزي واسع لا غنى عنه، اذ إن قوى الانسان لا تجعل نفسها تلقائيًا في خدمة العدل والحرية. وان لم تُنتَقد قوانا وتُحوَّل، فلا شك أنها تجعل نفسها في خدمة اللاعدالة والعبودية. انظروا الى ما يجري: فهناك السباق الى التسلّح، في حين ان الملايين من الناس يموتون جوعًا، وهناك إرهاق الناس بسبب اوضاع عملهم غير الانسانية... نحن أسرى عالم غير معقول، بالرغم من انتشار موارد

لا حد لها. فالموارد ضخمة، واللامعقولية صارخة. في الواقع، القوى البشرية هي غير انسانية، والرجاء محروم.

حين أقول اني مسيحي، اقول بالضبط ما يلي: الانجيل هو الذي يفيدني عن مقاييس التمييز لأحكم هل استخدام قوى الانسان يتوخّى تأنيس العالم ام لا. الانجيل هو الذي يقول لي من هو الانسان وما هي ميزة العالم الانساني وفي ايّ اتّجاه يجب على التقنية والسياسة وممارسة المسؤوليات ان تتّجه لتكون حقّاً في خدمة التحرُّر، لا في خدمة العبودية.

وان قال لي أحد: ألا يكفيك ضميرك؟ لا احاول ان اكون على صواب وأن أعدّه على خطأ، وأمتنع خاصةً ان اقول إنه مسيحي ولا يعرف، لأني اعلم بأن مثل هذا الكلام يُهينه وبحق. وأمتنع أيضًا ان اقول له ان المسيحي يضيف الله الى رجائه البشري، اذ لا يَحسن بنا ان نُشعر الناس بذلك، فإن الله ليس بكمية تُضاف الى كمية اخرى، وإلاَّ جعلنا من الله «مزخرِفًا»، ويمكننا الاستغناء عن المزخرِفين!

بل اقول له: نعم، الضمير يكفي، فالرجاء البشري يكفي نفسه بنفسه، وبذل النفس هو من المطلَقات، ومحبة الآخرين هي غاية كافية للحياة والموت. فأنا موافق اذًا، وبقولي هذا أبقى أمينًا للانجيل، اذ ان الانجيل هو الذي يقول لي: «كلَّما صنعتم شيئًا لواحد من اخوتي الصغار، فلي قد صنعتموه» (متى ٢٥/٤٠).

لكني اعتقد بأن ما يقتضيه ضميري هذا هو عطية من عطايا الله. وما يعطيه الله هو مهمَّات يجب القيام بها، فتكون الطاعة للضمير محبة أحد يحبني. فإن الله ليس هو في القمر، ولا هو وراء النجوم، بل ليس هو إلاَّ في ضميري الانساني. وهذا الضمير يسكنه احد يحبني، ولأن هذا الاحد يحبني، يريدني خالقًا، خالقَ عالم اكثر انسانية. ما نجده في قلب كل رجاء هو أن يحبَّ الانسان وان يكون محبوبًا. وهذا هو عمق الانسان. والمسيح يكشف لنا عمق رجائنا.

وفي آخر الأمر يصبح السؤال هذا : ما هو مصدر الرجاء البشري؟ نؤمن بأنه الاله الخالق. فحين يخلقنا الله ، يخلق رجاءنا ، جاعلاً فينا توقًا الى الحرية التامّة. والحال ان الحرية التامّة هي مشاركة في حرية الله نفسها ، لأن الله وحده حرّ على الاطلاق. إنه حرّ على الاطلاق لأنه محبة. فرجاؤنا هو رجاء المحبة. واذا كان الله محبة ، فالحياة والمحبة شيء واحد.

حين يخلقنا الله ، يهب لنا ان نحبّ كما يُحبّ. فالحياة بحياة الله والمحبة كما يحب شيء واحد. وهذا ما نسمّيه الحياة الابدية. والحال ان الحياة الابدية ليست بالحياة المقبلة ، بل هي الحياة الحاضرة : «نحن منذ الآن ابناء الله» (١ يو ٣/٢).

ليست طبعًا أية حياة كانت. ليست حياة نتحمّلها تحمُّلاً ، وليست حياة نستسلم لها ، بل هي حياة «نعمل فيها بالحق» ، كما يقول القديس يوحنا (يو ٣/٢١). ليس الحق ، بالمعنى الكتابي ، شيئًا جاهزًا ، بل الحقيقي هو الواقع. والحال ان الواقع هو قيد التكوين : لم يخلقه الله (في صيغة الماضي) ، بل لا يزال يخلقه. ولا يخلقه بمعزل عنّا ، وإلاّ لَما استطعنا ان نقول إنه محبة على وجه تام ، فهو يهب لنا ان نخلقه.

وهذا يعني أننا نؤمن بوجود قدرة الروح القدس في قلب القوى التقنية والسياسة وقدرة المسؤوليات. في القلب ، لا الى جانب ، لا بدلَ الانسان. ان الله هو في قلب نشاطنا ، وهو يستخدم القوى التي في متناولنا لنرجو رجاءً فعّالاً. فليس الله طاقة الى جانب طاقاتنا او فوقها ، بل هو قدرة قوانا ، وطاقة طاقاتنا ، ومبادرة مبادراتنا.

مهمّتنا هي عطية من عطاياه. «فالعمل بالحق» هو القيام بمهمتنا. ومهمّتنا لا تزال ، بوجه من الوجوه ، صنعَ الانسان والعمل على ان يزداد الانسان انسانية ، وان يزداد العالم انسانية ، وان تزداد العلاقات بين البشر انسانية ، اي عدلاً وأُخوَّةً. «العمل بالحق» هو تحويل العالم. «الذي يعمل

بالحق يُقبل الى النور» : تعني اذًا هذه العبارة ان معرفة الله (النور) مرتبطة بتكوين الانسان.

سواء اكنتَ أَبًا او أُمًّا، مناضلاً نقابيًا او سياسيًا، ربَّ عمل او مهندسًا، عاملاً او مزارعًا، مربيًّا او عالمًا نفسانيًا، إصنَع الانسان فتعرف الله. اذكّر فقط بأن فعل «عرف» يعني، في الكتاب المقدس، «عاش مع». فالحياة مع مَن يحبّنا ونحبّه هي الحياة الحقيقية، الحياة الأبدية، في الحاضر. وهذه الحياة مع الله، هذه الالفة معه، ستتجلّى ذات يوم على وجه تام، فتكون السعادة في النور التام.

إليكم الشيء الأخير، ولكنه ليس بالادنى : ان معرفة الله وتحويل العالم (الأمرين اللذين لا ينفصلان) يمرّان بالصليب. وفي كلمة «تحويل» ما يكفي لافادتنا عن السبب، اذ ليس النموّ كبرًا، بل هو تحويل. فليس الرجل طفلاً كبيرًا وليست المرأة بنتًا كبيرة، وليست الفراشة دودة كبيرة، وليس السنبل حبّة كبيرة، وليس الله انسانًا كبيرًا. التحوُّل هو موت وعودة الى الحياة.

فليس الموت حتمية، بل هو لحظة لا بدّ منها في النمو. لا حصاد بدون موت الحبّة، ولا تحوُّل بدون خَيار. الخيار هو موت. وجَعل القوى الارضية في خدمة العدل هو التخلّي عن جعلها في خدمة الربح. وتربية الولد هو السعي الى مصلحته، لا الى مصلحة النفس. والانتعاش بالرجاء هو الموت عن بعض العادات والموافقة على حلول بنيات سياسية واجتماعية أخرى. ما من حياة حقيقية بدون تضحية.

ان موت المسيح هو دخول البشرية في حياة محوَّلة. والصليب هو الذي يقوم بعملية نزع القدسية عن القوى، لأننا لا نعرف، دون اي التباس، ما هي طبيعة القدرة الحقيقية إلاَّ بنظرنا الى يسوع المسمَّر على الصليب. فأمام عجز المسيح المسمَّر، لا يُخشى الاعتقاد بأن الله قدرة على السيطرة وبأنه يُستمال عن طريق الممارسات الدينية بدون تحوُّل الضمير. يحسن بنا ان نقرأ الفصول الثلاثة الأولى من رسالة القديس بولس الى اهل قورنتس، علمًا بأن الأب غان

يقول إنها تشكّل « تفكيرًا لاهوتيًا في قدرة الله الحقيقية » . فإن يسوع المصلوب هو قدرة المحبة والغفران . والليترجية لا تجهل ما تقول ، حين تضع على شفاهنا هذه الكلمات : السلام عليكَ ايها الصليب ، رجاؤنا الوحيد !

الانجيل دعوة الى الايمان والحرية

عَيش الانجيل بكامله

ليس الانجيل رسالة فقط . اجل ، فيه رسالة مسيحية ، لكن الانجيل ، قبل ان يكون رسالة ، هو شخص ، شخص يسوع المسيح . تعلمون بأن كلمة « انجيل » تعني « البُشرى » . وهذه البُشرى ليست أولاً ما يقوله لنا المسيح ، بل ما هو. إنها بُشرى التجسّد : أَحبَّ الله الانسان حتى أصبح انسانًا . الحب هو رغبة المُحبّ في ان يصبح مَن يحبّ ويكون وإيّاه واحدًا . أعمق دواعي ايماني هو العجز عن التفوُّق على التجسّد ، اذ لا يمكن لإله أن يحبّ الانسان محبة أكبر إلاَّ ان يصبح انسانًا مثله .

في الوقت الحاضر ، كثير من الناس يقبلون الرسالة ، ولكنهم يرفضون او يتحفَّظون في جوهرها وهو ألوهة يسوع المسيح بالمعنى الدقيق . وبذلك تُشوَّه الرسالة ، ونرى بعضهم يضعون مختارات من الانجيل يُهملون فيها ما لا يريدون . لكن الانجيل ليس انجيلاً إلاَّ إن أُخذ بكامله . ما أعمق قول بَسْكال : « الكتاب المقدّس قطعة واحدة » .

المسيح يكشف من هو الله

البشرى هي ، قبل كل شيء ، ما يكشفه يسوع المسيح عن الآب . البشرى هي ، قبل كل شيء ، الجواب عن السؤال الذي ما زال الناس يطرحونه على

انفسهم منذ قديم الايام: مَن هو الله؟ ويسوع المسيح يقول لنا، قبل كل شيء، مَن هو الله. وبالنسبة الى هذا الكشف عن هوية الله، تُوجَّه رسالة الى الناس لتقول لهم: لَبُّوا رغبة الله فعيشوا وفقًا لما تعرفون الآن عنه.

في الفصل السادس عشر من متى، مشهد على جانب كبير من الاهمية، أعني شهادة ايمان بطرس في قيصرية فيلبّس. سأل يسوع: «من أَنا في قولكم؟» فأجاب بطرس (اي الاثنا عشر، اي الكنيسة منذ ذلك الحين): «أنت المسيح، ابن الله الحيّ». من الواضح أننا لسنا هنا امام تأكيد عقائدي لألوهة المسيح. لم يكن ممكنًا ان يعلم بطرس في ذلك الحين بأن يسوع هو الله حقًّا، حتى اللهُ المتجسِّد. مهما يكن من امر العذراء مريم التي ليس لدينا أيّ وحي في شأنها، يجب ان نقول بأنْ ما من أحد قبل العنصرة استطاع ان يؤكّد الوهة يسوع المسيح. وما يؤكّده بطرس هو ان يسوع هو في الحقيقة ذلك الذي يقول مَن هو الله، ذلك الذي يستطيع الانسان ان يثق به على وجه تام. «إنك تأتي من قِبَل الله ولا تخدعنا في هوية الله الحقيقية».

والحال ان روح الله وُهب لنا. سيُدرك الرسل هذا الأمر في العنصرة فيقولون: لا نكتفي بالانضمام الى كلمتك، بل نتمتّع في أنفسنا ببنوَّتك نفسها، فإن الروح الذي وُهب للناس في العنصرة هو روح بنوَّتك. «يمكننا ان نصير ابناء الله» (يو ١/١٢).

كل منَّا يُنادى كما نوديَ الرسل، ولا بدّ ان يكون الجواب شخصيًا على الاطلاق. ولا يجوز ان يكون جوابنا صدى لكلام آخَر او ان يتأثَّر بالضغوط الاجتماعية او ان يبدو خضوعًا لضغط سوسيولوجي او تسلُّطي. يجب ان يكون الجواب في الحقيقة كلامي المعبِّر عن اصل كياني.

وهناك جملة اساسية أخرى في الانجيل: «من رآني رأى الآب» (يو ١٤/٩). يجب الكف عن إغفالها حين يُقام بقراءة الانجيل. فالمسيح هو أوَّلاً صورة الآب، مَوشور الآب. فكما ان الموشور يفكِّك الى عدد من الألوان نور الشمس الأبيض، كذلك يعبِّر المسيح عن الله بحركات بشرية وأقوال بشرية

ومواقف بشرية. وان اردتُ ان اعرِف مَن هو الله، وجب عليَّ ان انظر الى حركات المسيح وأتأمَّل في مواقفه العميقة وأسمع أقواله. وما يُكشف لنا من خلال حياة المسيح نفسها هو ان قدرة الله هي رفض القدرة التي تسيطر.

نستطيع ان نقرأ الانجيل من أوَّله الى آخِره، فنلاحظ ان يسوع لم يستخدم قدرته قط. لا يخفى عليَّ ان هناك مسألة المعجزات وان بني جيلنا ينفرون نفورًا شديدًا من المعجزة. المسيحيون المتطوِّرون يؤمنون، لا «بسبب» المعجزات الواردة في الانجيل، بل «بالرغم منها». لكن وجود المعجزة في الانجيل امر واقع، وإن صعب علينا ان نحدّد تحديدًا تاريخيًا ما جرى في بعض الأحوال. لا بدّ لنا ان نفهم ان المعجزة مرتبطة بالـ«لامعجزة». الأهم في الانجيل هو عدم وجود المعجزة: تبتدئ حياة يسوع العلنية بعدم وقوع المعجزة في البرية (رفض تحويل الحجارة الى ارغفة)، وتنتهي حياته في الجلجثة حيث كان صمت الآب تامًا حتى نتوهّم أنه كان غائبًا. ان وظيفة معجزات الانجيل هي السير بنا الى الـ«لامعجزة».

في ذلك التواضع، يسألنا الله منذ الأزل ان نتقبّل عطاءَ نفسه لنا. وحين نتكلّم على عطاء الله هذا، ماذا نعني؟ لا يستطيع الله ان يعطي إلاَّ نفسه. ماذا تريدون ان يعطي؟ إنه كل شيء، والذي هو كل شيء لا شيء عنده. الأمر واضح، وليس كيان الله هذا إلاَّ محبة. نحن نُهدي هدايا نعبِّر بها، الى حد بعيد او قريب، عن بذل انفسنا، لكننا لا نتوصَّل أبدًا الى بذل انفسنا بكل معنى الكلمة. أمَّا الله فهو يبذل نفسه ويسألنا ان نتقبَّل العطية التي يعطينا ايَّاها، لكي نتمكَّن من تحقيق انسانيتنا على وجه تام، علمًا بأن هذه الانسانية هي قدرة انسانية مؤلَّهة. لا يكون الانسان انسانًا إلاَّ ان كان اكثر من انسان.

محبَّة الناس بمحبة الله نفسها

ليس الانجيل إلاَّ التعبير عن شروط تقبُّل عطية الله. يفيدنا الانجيل عمَّا يجب ان نكون لتقبُّل إلهٍ يبذل نفسه، اي يجعلنا على صورته. المطلوب ان

نُشبهه، والله لا يريد غير ذلك. المطلوب ان نقتدي به، كما يقول القديس بولس: «كونوا مقتدين بالله».

المطلوب ان نصبح أحرارًا في ان نحبّ كما يحبّ الله، في ان نكون إلهيِّين كما ان الله هو إله، في ان نصبح ما هو. إنها الجملة الكبرى في خطبة يسوع بعد العشاء الأخير: «أحبُّوا بعضكم بعضًا كما أحببتكم» (يو ١٣/٣٤). ان فكَّرنا ولو قليلاً، رأينا اننا، اذا تخطَّينا طبقات نشاطنا أو عقلنا السطحية، بقي لنا الخيار، في آخر الأمر، بين ثلاثة: يجب الايمان إمَّا بأن الكائن هو مادة، وإمَّا بأن الكائن هو روح، وإمَّا بأن الكائن هو محبة او مشاركة. ان آمنَّا بأن الكائن هو مادة، فلنكن مادّيين، وان آمنَّا بأن الكائن هو روح، فلنكن عقلانيين. أمَّا ان آمنّا بأن صميم الكائن هو محبة او مشاركة، فلنكن مسيحيين، لأن يسوع المسيح وحده يقول لنا إن الله محبة أو مشاركة.

المحبة ليست الاحساس. لا أتكلّم بأي سوء عن الاحساس. فغالبًا ما يكون عظماء الناس ذوي احساس، لكن المحبة ليست في كنهها احساسًا واهتزازًا في البَشَرة. انها، في حدّ قول القدّيس يوحنا، ارادة وفعل: ارادة لبذل النفس وفعل بذل النفس. وهذا التوضيح أمر هام، لأن بني جيلنا يتخوَّفون من الكلام الفارغ في الحب، واعتقد بأنهم على صواب تمامًا.

احدى تجارب الزمن الحاضر هي الادّعاء أن محبّة الناس ممكنة بدون محبّة الله. في ذلك ردّ فعل طبيعي على زمن ادَّعى فيه الناس أن محبّة الله ممكنة بدون محبة الناس. أدَّى ذلك الى جَدَل لفظي في البعد العمودي والبعد الأفقي، علمًا بأن البعد العمودي هو محبة الله والبعد الأفقي هو محبة الناس. صحيح أن الانسان لا يحب الله ان كان لا يحب الناس بالحق والارادة والفعل. ان محكّ محبة الله هو المحبة الحقيقية، لا اللفظية او العاطفية، التي نكنّها للناس اخوتنا. كلُّنا يَعرف الجملة التي وردت في رسالة يوحنا الأولى: «اذا قال احد: إني أحبّ الله، وهو لا يحبّ اخاه، كان كاذبًا» (١ يو ٤/٢٠). ما أصدق هذا القول!

ولكن، يُخشى اليوم ان ننسى ان محبة الناس لا يمكن ان تكون صافية، ان

كنّا لا نحبّ الله. قال الأب هنري دي لوباك ذات يوم قولاً رهيبًا: «خارجَ محبة الله، يُخشى ألاّ تكون محبة الناس إلاّ امتدادًا لمحبة النفس». لا بدّ ان يكون لنا شيء من الخبرة في علم النفس فنرى أنه من شبه المستحيل ان نحبّ الآخرين حبًا صافيًا، إن كنّا لا نتّكل إلاّ على أنفسنا. فالله وحده يحب حبًا مطلقًا ويهب لنا أن نحبّ كما يحبّ. لا يصبح موت أنانيتنا تامًا إلاّ مرورًا بالمطهر، فهو اذًا من الأمور التي نرجوها.

عَيش الانجيل هو الحياة بالايمان: خُطى الايمان الخمس

أطرح عليكم هذا السؤال: ما هو رجاؤكم؟ ماذا ترجون في آخِر الأمر؟ هل ترجون ان تكونوا سعداء؟ هل ترجون ان تحبّوا كما يحبّ الله في الأبدية؟ فإن سعادة الله – وبالتالي سعادتنا الأبدية وموضوع رجائنا – ليست ان يكون سعيدًا فقط. سعيدًا بأيّة سعادة؟ فهناك مستويات سعادة.

ليست سعادة الراهبة التي تقضي حياتها في الاعتناء بالمرضى سعادة رجل الاعمال الغني. على أيّة سعادة تتكلّمون؟ الدين المسيحي يجيب: سعيد بسعادة الله نفسها، وهي تقوم على المحبة، لا على تحقيق رغبات النفس. والسؤال الذي يجب علينا ان نطرحه دائمًا على أنفسنا، ان اردنا ان نعيش الانجيل، هو السؤال عن السعادة. الانجيل كلّه تسوده كلمة يسوع هذه: طوبى... وهذا ما نسمّيه التطويبات. عَيش الانجيل هو الحياة بالايمان.

في الانجيل، لا يزال يسوع يفترض وجود الايمان عند الرجال والنساء الذين يلتقيهم. فلا يقول أبدًا: «خلّصتُك»، بل يقول دائمًا: «ايمانك خلّصك». والحال أنه غالبًا ما يلتقي رجالاً ونساءً لا دين لهم، او دينهم وثني. فقائد المئة رجل روماني لا يعرف شيئًا عن الدين المسيحي، ولا المرأة الكنعانية التي أتت من سورية. لا ينال الانسان الخلاص عن يد الآخَر، وان كان هذا الآخَر الله

نفسه . الانسان هو أحد . والانسان هو الذي يخلّص نفسه في الايمان وبالايمان . لا نستطيع ان نتصوَّر إلى أية درجة من العمق يحترم الله الانسان . وهنا لا بدّ لنا ان نكون على اكمل وجه من المنطق ، وإلاّ لم يكن إلهنا سوى وثن ، والله لا يريد ان يكون لنا وثنًا .

الخطوة الأولى :

كل انسان هو في وضع ايمان

بمجرّد ان يعيش الانسان ، يصبح في وضع ايمان . لا اقول : ايمان ديني ، بل ايمان بمعنى الكلمة الدنيوي . فالزارع ، سواء أكان مؤمنًا ام غير مؤمن ، هو في وضع ايمان ، «يعمل لما لا يُرى» (عن عب ١١/٢٧) . يقوم بفعل ايمان ، لأنه غير واضح أنه سيحصد . فقد يكون هناك جفاف او فيضانات او حرب ... حين يزرع ، لا تتّضح له الاستفادة من الحصاد كما لو قام بعملية حسابية . فهناك الايمان .

والمربّي أيضًا ، وبقدر اكبر ، في وضع ايمان ، سواء اكان أبًا او أمًّا او معلمًا او معلّمة . من أراد الإقدام على تربية احد الأولاد ، وجب عليه ان «يؤمن» ، كما يقولون بالفرنسية . فما اكثر العقبات ! وليس هناك من نتيجة فورية . ما عسى ان يصبح هذا الصبي او هذه البنت بعد عشر سنين او عشرين سنة ؟ لا نعرف أي شيء عن ذلك . فعل ايمان .

فالـ «ايمان» متأصّل اذًا في «الحياة» . والحياة هي الايمان . يجب ان ننتبه الى ذلك ، ان اردنا ان نفهم ان الايمان الديني ليس شيئًا يسقط علينا من علُ : ففي السعي الانساني الأوَّلي شيءٌ من الايمان . ولا ينعدم الايمان ووضع الايمان إلاَّ في أحلام اليقظة . لكن الايمان المسيحي هو نقيض أحلام اليقظة ، بالرغم من وجود اناس يزعمون انهم مسيحيون ويغرقون في العالم الخيالي وفي تخيُّل عالم آخَر ينتظرنا الله فيه . أسمح لنفسي ان أسمّي أحلام اليقظة علم أمراض الايمان .

الخطوة الثانية :

في كل عمل ، صغير او كبير يسعى الانسان وراء السعادة

نخطو خطوة : مهما عمل الانسان ، بطريقة مباشرة او غير مباشرة ، انّما يعمل من اجل السعادة ، سواء أكانت سعادة صغيرة في الحياة اليومية أم سعادة عميقة في الحب او الصداقة او الثقافة. وحتى الذين ينتحرون يسعون وراء السعادة (سعادة سلبية ، إزالة الألم).

الخطوة الثالثة :

السعي وراء السعادة يخضع للقِيَم

أرى أولاً ان حالة الايمان الطبيعية والسعي وراء السعادة لا بدّ ان يتخطّاهما الانسان. ولماذا؟ لأن اللصّ والمستغلّ هما أيضًا في وضع ايمان وفي السعي وراء السعادة. ان الذي يدبّر سرقة هو في وضع ايماني ، لأنه لا يعلم هل تنجح عمليته ، وهو ، ولا شك ، يسعى وراء السعادة التي يوفّرها المال.

حين أسعى وراء السعادة ، يمكنني ان استهدف إشباع انانيتي المستعصية ، ويمكنني ان اتوخّى بناء سعادتي على حساب سعادة الآخرين ، يمكنني ان أستغلّهم أو أسرقهم أو أقتلهم . ومن دون ان يبلغ الانسان هذا المبلغ ، لا شك ان في السعي وراء السعادة كثيرًا من البحث عن المصلحة الخاصة ومن التصرّفات الأنانية . فلا بدّ ان تُنتقَد رغبتي في السعادة وتحوَّل. قال برنانوس : «قل لي ما هي الفكرة التي تكوّنها عن السعادة ، فأقول لك مَن أنتَ».

وهنا يأتي دور ما يسمُّونه في علم الفلسفة القِيَم . أسمّي «قيمة» ما يستحق ان يضحّي الانسان بحياته في سبيله ، وما هو علّة حياة أسمى من الحياة. الموت ولا الوقوع في مَظلمة بالغة ! فالعدل هو «قيمة». العذاب ولا الكذب ، فالصدق هو «قيمة». أسمّي «قيمة» ما يأمر به الضمير ، وما يجعل الانسان انسانًا . ان يكون للانسان حِسّ القيم وان يكون صاحب ضمير شيء واحد . وما

يحدِّد الانسان هو أنه يقدر ان يختار وان يعيش القِيَم. الحيوان لا يسمع، في صميم اعماقه، صوت ضمير يقول له: هذا الموقف غير عادل، فعليك ان تعمل على تحويله لكي يسود العدل. الحيوان هو ما هو، لا اكثر. أَمَّا الانسان فهو يسمع صوت الضمير الذي يذكّره دائمًا بأوَّلية القيم. وان قلتم لي إنه لا يسمعه، وجب الاعتراف بأنه فقد الانسانية.

حين يُخضع الانسان حياته للقيم التي هي حتميّات الضمير، اي حين يرفض سعادة انانية محض، يعرف الله بطريقة معيَّنة. ألوف من غير المؤمنين، الذين لا يعترفون بإله يسوع المسيح والانجيل والكنيسة، يعرفونه بقدر ما يُخضعون سعيهم وراء السعادة لمقياس القيم، بقدر ما يقولون: السعادة، نعم! ولكن لا أيّة سعادة كانت! لا سعادة يُحصل عليها على حساب الآخَرين! فمن الممكن ان يُقرأ الانجيل من زاوية القيم، بدون الايمان بالله، بدون الايمان بأن يسوع المسيح هو الله. لا يدور الكلام فيه إلاَّ على الحق والحرية والعدل والمحبة الاخوية. بهذا المعنى، يبدو الانجيل موجَّهًا الى كل انسان.

في تربية الأولاد المسيحية، لا بدّ من الابتداء بذلك. وإلاّ، يُخشى ان نتكلّم على اله لا تكون له اية علاقة بقيم العدل والحرية والأخوَّة، على إله لا يكون إلاّ القدير، اي الذي هو الأقوى والذي من الفطنة ان نطيعه. انظروا الى النتائج، اذ يُخشى ان نبتعد عن الايمان ونقع في الدين. سيقول ذلك الولد في يوم من الايام: أصدِّق ما علَّموني. أؤمن بأن الله موجود، وأؤمن أيضًا بأن يسوع المسيح هو إله، أؤمن حتى بسلطة الكنيسة. ولكن لا تُزعجوني بالكلام على العدل والأخوَّة والحق! لا بدّ من الكذب ومن شق طريقي بمرفقيَّ لكي انجح في الحياة!...

قد يقول لكم بعض الناس غالبًا: العدالة الاجتماعية والاخوّة البشرية الحقيقية، لا علاقة لها بالله! انتم كهنة، فحدّثونا عن الله، ولكن لا تحدِّثونا عن واجبنا المهني! أَمَّا الذين وُضعت قلوبهم في مكانها فإنهم يفضّلون الاعتراف بأنهم يؤمنون بالعدل والأخوَّة، لكنهم لا يؤمنون بالله ولا بيسوع المسيح. أذكر

أني كتبتُ ، بعد تحرير ليون ببضعة أشهر : «من الأفضل ان يُنكر الانسان الله وان يكون قادرًا على الألم والموت في سبيل العدل من ان يؤمن بإله لا يأمر بالألم والموت في سبيل العدل».

الخطوة الرابعة :

الانتقال من القيم غير الشخصية الى أحد

من أراد ان يعلم ما هو الايمان المسيحي ، وجب عليه ان يخطو خطوتَين : الأولى الانتقال من القيم غير الشخصية الى أحد ، الى شخص حيّ يؤسّس تلك القيم ويعيشها نفسه . في هذه الدنيا ، ما من احد يستطيع ان يقول : انا الحق ، انا العدل ، انا الحرية . أمَّا الذي نسمّيه الله ، فهو الذي يستطيع ان يقول : الحق أنا هو ، والعدل أنا هو ، والحرية أنا هي .

قد تقولون لي : أضروريٌّ هذا الانتقال؟ أجيب : لا ، هذا الانتقال غير ضروري ، بل هو اختياري ، لكنه معقول (قالت الكنيسة ، في المجمع الڤاتيكاني الأول بأن الايمان اختياري ومعقول) . فلديَّ اسباب تدعوني الى الايمان . وما هي الأسباب التي تدعوكم الى الايمان؟ اعمق الأسباب التي تدعوني الى الايمان بأنه ليس هناك سوى قيم غير شخصية وحتميات الضمير البشري ، بل انه هناك احد يعيش تلك القيم وبالتالي يؤسّسها ، هو أن هناك قيمة تفوق سائر القيم وتسمّى المحبة . ولا يمكن ان تكون المحبة غير شخصية ، بل لا بدّ ان تكون المحبة صلة شخص بشخص .

نتصوّر بسهولة ان يقوم العالِم بطلب الحقيقة بدون ان يجعل منها شخصًا . فلا يقول العالِم إن الحقيقة هي أحد . ونتصوّر أيضًا ألاَّ يُجعل من العدل شخصًا . أمَّا المحبة فأمرها مختلف . فلا أستطيع ، بدون الوقوع في التناقض ، ان اتصوَّر ان تكون غير شخصية . ان كنتُ اتكلّم على المحبة ، وجب عليّ ان أقول : أُحبّ وأنا محبوب ، محبوب من احد . فالمحبة هي هبة النفس لأحد ، لا لشيء . قال كارل ماركس في كلامه على المجتمع المستقبل : «يكفي الانسان ان

يكون كائنًا مُحبًّا ليجعل من نفسه كائنًا محبوبًا » . القول رائع ، لكني لا ولن استطيع أبدًا ، في اي مجتمع كان ، ان اقول في كائن بشري إنه يحبني وسيحبني دائمًا ، بما في ذلك من بذل النفس حتى الموت الذي تفترضه المحبة الحقيقية . والحال اني اقول ذلك في الله ، هذا هو ايماني ، هذه هي نواة قانون الايمان المسيحي ، هذا هو الانجيل كلّه .

الخطوة الخامسة :

ليس هذا الأحد إلاَّ محبة

بقيت الخطوة الأخيرة : من يقول لي إن الله محبة؟ يسوع المسيح ويسوع المسيح وحده . يقوله لي ، لا بالكلمات فقط ، بل بحياته وموته . ومن هنا ميزة الايمان الثالثة ، في رأي المجمع الڤاتيكاني الأول : إنه فائق الطبيعة البشرية ، اي انه عطية من عطايا الله . ان الله ، بهبة نفسه للانسان في يسوع المسيح ، يهب للانسان ان يتقبّل العطية التي يقدّمها وأن يعتنقها .

والعقائد؟ والأسرار؟ والأخلاقية؟ والمؤسَّسة الكنسية؟ إنها مجمل ما يلزمنا لكيلا نخدع انفسنا في ما هي المحبة . بطريقة مباشرة او غير مباشرة ، ليس المقصود ولا يمكن ان يكون إلاَّ شروط المحبة ونتائج المحبة .

الفرق الكبير بين المؤمن وغير المؤمن هو ان غير المؤمن يخضع لضميره وان المؤمن ، في خضوعه لضميره ، يحبّ احدًا . لماذا أنا مسيحي؟ لأنني ، في خضوعي لضميري الذي يأمرني باحترام وتعزيز القيم التي تسمَّى الحق والجمال والعدل والحرية ، احبّ أحدًا يحبّني .

في كل ذلك ، حذارِ من تجربة الفورية! إنها تجربة من تجارب العالم العصري : كل شيء او لا شيء ، وكل شيء فورًا . ان عَيش الانجيل هو الدخول في منطق المحبة طوالَ صيرورة . لا بدّ هنا من التشديد على اهمية الزمن . فبدون الزمن ، زمن الحياة ، لا تكون سعادتنا الأبدية من عمل أيدينا . اذا لم

يكن الله إلاَّ محبة، لا يسعه إلاَّ ان يريد ان تكون سعادتنا الأبدية بناء انفسنا بأنفسنا طوالَ صيرورة.

عَيش الانجيل هو اختيار المسيح مربيًّا للحرية

فالانجيل مِقياسي اذًا. هذه كلمة من الكلمات التي لا نستغني عنها لنفهم ذلك. ليس المقياس تعليمات، اي قانونًا جامدًا ووصية تدخل في تفاصيل الأشياء. هناك مثلاً زيّ نسائي في زمننا: إنّه مقياسي، لا يفرض على جميع النساء في بلد معيَّن ان يرتدين الفستان نفسه، بل في إمكان كل امرأة ان تبتكر فستانها مع المحافظة على مقياس الزي. واليكم مثلاً اشرف: كان باخ، من أول أعماله الى آخرِها، امينًا لمقاييس موسيقى زمنه، مع أنه كان مبتكرًا رائعًا. فالمقياس خلاَّق. والانجيل لا يمنعنا ان نكون خلاَّقين، خلاَّقين في حياتنا الجنسية وفي حياتنا العاطفية وفي صلاتنا وفي حياتنا الاقتصادية والاجتماعية والسياسية. ان الله لا يخلق إلاَّ خلاَّقين. فالانجيل هو اذًا نور لحياتنا اللازمة وغير الكافية.

الاختيار الحرّ هو في ملتقى الانجيل وتحليل معيَّن

قبل ان نعمل، قبل ان نتَّخذ قرارًا من تلك القرارات التي تبني كياننا، يجب ان نسأل الانجيل، ولكن يجب أيضًا ان نحلّل الموقف الذي نحن فيه. ان كان الموقف موقفًا زوجيًا أو عائليًا، فقد تكون هناك صعوبة كبرى. وان كان الموقف موقفًا مهنيًا، تكون الصعوبة اكبر، وان كان الموقف موقفًا اجتماعيًا أو قوميًا او دوليًا، تكون الصعوبة أكثر تعقيدًا. فلا أظن، على سبيل المثل، انه يمكن إبداء الرأي في سياسة بلدٍ راقٍ بدون الاهتمام بالبلاد النامية.

والقرار الخلاَّق يتَّخذه المسيحي دائمًا في ملتقى ضوءين: ضوء ينزل من الانجيل ويقول: عدل ومحبة، وضوء يصعد من الموقف بعد تحليله تحليلاً صحيحًا. ان اكتفيتُ بالانجيل، من دون ان احصل على الكفاءة على مستوى

تحليل المواقف، تكون اخلاقي اخلاق ولد ساذج. تصوَّروا ما عسى ان يصبح احد يكتفي بأن يكون أمينًا لهذه الجملة: «من ضربك على خدّك الأيمن، فحوِّل له الآخَر» (متى ٣٩/٤)، أو «من سألكَ أعطِه» (متى ٤٢/٥). لا يمكن بناء مجتمع على مثل هذه الجمل، فإن الانجيل لا يأتينا بحلول جاهزة، ولا يملي علينا كيف نتصرّف عمليًا، اذ ليس هو برنامجًا. وان اكتفيتُ بتحليل الموقف، من دون الرجوع الى الانجيل، كانت اخلاقيتي اخلاقية وثنية، او ما يسمَّى باللغة التقنية اخلاقية الحال. فلا بدَّ من التوحيد بين هذَين الضوءَين، وفي ملتقاهما يجب عليَّ ان اتَّخذ قراري، مع التعرّض لجميع الأخطار التي يتضمّنها هذا القرار. المحبة التي يطلبها الانجيل يجب ان تكون فعَّالة. اليكم بعض التوضيحات، وفقًا لما ورد في «رسالة بولس السادس الى الكردينال رُوا» التي صدرت في ١٩٧١:

١) ان الحياة المسيحية هي في جوهرها حياة في سبيل العدل والمحبة. قد يكون هذا التحديد مُدهشًا، اذ يمكن ان يُقال إنها حياة مكرَّسة لله. القضيتان لا تتناقضان، لأن المسيح نفسه أعطانا صيغة الوصية الجديدة التي تتضمَّن سائر الوصايا: «أحبّوا بعضكم بعضًا كما أنا أحببتكم»، اي بمحبة الله نفسها. فليس الله مُبعَدًا. لكن المسيح، الذي اعطانا وصية المحبة، يدعنا نُعمل العقل لنعرف بأيّة شروط تكون المحبة صحيحة. تلك هي نقطة الانطلاق.

٢) من الواضح ان العدل والمحبة يستهدفان الاشخاص. لا يستطيع الانسان ان يكون عادلاً نحو الأشياء او ان يحبّ الأشياء، بل المستهدفون هم البشر. لكن البشر هم مرتبطون دائمًا بمواقف وأحداث. فمن اراد ان يحيا بالعدل والمحبة، وان يكون أمينًا لوصية الرب، وجب عليه الاَّ ينسى ان الأشخاص لا يطفون في بيئة هوائية. لا وجود للانسان المجرَّد، فهو شاب او مُسِنّ، رجل أو امرأة، متزوّج او اعزب، من سكّان المدينة او الريف، عامل او محامٍ الخ. لا اعرف أيَّ انسان غير مرتبط بموقف حقيقي وفعليّ وبأحداث (وهي تغيِّر المواقف بقدر كبير او قليل: الولادة والفشل والمرض والثورة والإضراب الخ). واذا

أردنا ان يكون عدلنا ومحبتنا حقيقيَين، لا نظريَّين، لا بدّ ان يُنظر الى الأشخاص في ظروفهم الحقيقية والحياتية.

٣) وهذه المواقف وهذه الأحداث تتناول القيم عادة. لا وجود للوقائع المحض، بل هي تنطوي، بقدر كبير او صغير، على قيم، اي العدل او الظلم، والصدق أو الكذب، والحرية او العبودية، والمحبة او البغض الخ. حين انهار رُكام فُسالة في انكلترة قبل سنين وأدَّى الى حادث، بحثت النقابات عن المسؤوليات وتساءلت هل يحق بناء مدرسة على بعد بضع المئات من الامتار من رُكام فُسالة وفي ارض كان معروفًا أنها متحركة.

تذكَّروا ان الله ليس خارجَ قراراتنا. ليس الله جوبيتر يحلّق في الغيوم، بل هو داخلَ حريتنا، فإن جوهر البشرية هو الحرية. وعَيش الانجيل هو الالتحاق به حيث هو، اي في حرية البشر الخلاَّقة والمحوِّلة، وفي القرارات التي نتّخذها، سواء أكانت كبيرة ام صغيرة. والحال ان قراراتنا يجب ان تغلِّب القيم التي هي ضمنَ المواقف والأحداث.

٤) في العالم المعقَّد الذي نعيش فيه والذي تبدو فيه جميع الأشياء مترابطة، نرى ان القرارات الحقيقية التي تغلِّب العدل والأخوَّة هي في آخر الأمر قرارات سياسية (بالمعنى الواسع، اي كل ما يختص بحياة البشر في المجتمع). وكيف يكون الأمر على غير ذلك؟ ان لم نرجع الى السياسة، لن نحصل على نتيجة، لأن رغبتنا لا تكفي. فهل نستسلم لتفانٍ قد يكون مؤثِّرًا ويحملنا على القيام بأعمال فردية رائعة، ولكنها لا تؤدّي الى حلول حقيقية؟ وهنا العقدة. يستحيل على المسيحيين عدم الاهتمام بالحياة العامة والجماعية، ان كانوا يمارسون الاهتمام بمصير اخوتهم المرتبطين بمواقف تتعلّق بالعدل والظلم.

روى لنا المسيح مثل السامري الصالح (لو ١٠). في ذلك الزمان، كانت الأمور سهلة الى حدّ ما: كان هناك يهودي مسكين هجم عليه لصوص وجرحوه في الطريق. فوجد السامري فورًا ما يجب عمله: تقديم الاسعافات الأولية لذلك الرجل وسكْب الزيت والخمر على جروحه، الزيت للتسكين والخمر

للتطهير، ثم الذهاب به الى اقرب فندق والطلب من صاحب الفندق أن يعتني بهذا الرجل المسكين، وتقديم المال اللازم والوعد بالعودة في الغد مع المزيد من المال ان لم يكْفِ المبلغ الأول.

لو روى المسيح ذلك المثل في ايامنا، لَما طلب منّا ان نعود بالمخيِّلة الى البريّة والى لصوص يتردّدون الى الأماكن المقفرة، كما نرى اليوم في بعض الافلام، بل لحدَّثنا بلغتنا الحالية: ان اردتم ان تكونوا تلاميذي، فلا تستطيعون ان تتركوا على الحضيض أُناسًا يتألّمون ويجوعون ويُعذَّبون ويُذبحون. عليكم ان تذهبوا الى أقصى حد، عليكم ان تجدوا الأسباب الحقيقية التي تؤدّي الى البؤس البشري والظلم. من هو في ايامنا اليهودي الجريح في الطريق؟ واين هو؟ أين هم اللصوص؟ وما العمل الآن لِمَنع اللصوص من السرقة؟ تلك هي الأسئلة الحقيقية، وهي واقعية. لا يستطيع المسيحي ان يكتفي بالشفقة على مصائب انسان مسكين او جريح، بل عليه ان يعمل، بطريقة مباشرة او غير مباشرة، على ايجاد الحلول التي تقلِّل من عدد اللصوص، لا في البراري، بل في المجتمعات المتعدّدة الجنسيّات والمصارف والدواوين والمصالح المالية الكبرى الخ. وعليه أيضًا ان يتساءل عن نفسه وآرائه وعن الاهتمام بامتيازاته.

ولا شك ان المسيح يضيف هذا: لا يمكنكم ان تقوموا وحدكم بذلك العمل كلّه، علمًا بأنه لا يُنجز في لمحة بَرْق. أُصرِّح أنا بأني عاجز كليًا عن الوصول وحدي الى تمييز. فحين أبحث في الأمور بحثًا جديًا لأجد حلاً فعّالاً للمشاكل التي يشكو منها اخوتي، اعترف بأني ارتاح للعمل في مجموعة، وأُحيّي بالشكر جميع الذين في امكانهم ان يساعدوني على التفكير. لن يفرضوا عليَّ أي شيء طبعًا. لا يجوز للكهنة ولا للحركات الكنسية ان تفرض عليَّ خيارًا زمنيًا، بل يقوم دورهم على مساعدتي على السير عَبرَ هذا المجال الزمني، اي المجالات العائلية والاقتصادية والسياسية، لكيلا تناقض حياتي متطلّبات الانجيل الأساسية، بل لتعمل على تحقيق مصالحة البشر المعبَّر عنها في سرّ القربان الذي اشترك فيه، لا سيّما وان المقصود هو مصالحة، لا فردية فقط، بل شاملة:

فكيف يمكن ألاَّ يتدخَّل البُعد الاقتصادي والسياسي؟

٥) اعتقد بأن الانسان يخطأ، إن رفض رفضًا نظاميًا أن يبحث عن الفعّالية في المجال الزمني. واجبي، لا اقول: ان أجدها، لأن الأمور معقَّدة، بل ان ابحث عنها. فإن عدم البحث، كلٌّ واحد في مكانه وبحسب امكانياته، هو تهرُّب. ما رأيكم في الانجيل، لو اكتفى السامري بالانحناء على الجريح من أعلى حصانه، فقال له: أُشفق عليك، يا أخي المسكين، واني متأثّر كل التأثّر بأن اراك في هذه الحالة. فإلى اللقاء يا أخي، واتمنّى لك التوفيق! وما رأيكم في مسيحيين يذهبون الى زيارة انسان فقير في بيت حقير ويقولون له: من المؤسف ان لا يزال هناك مساكن حقيرة. اعلم، يا صديق، ان الكنيسة تحبّك! لو علمتَ كم تحبّك الكنيسة! فإلى اللقاء! اتمنَّى ألاَّ نجد مثل تلك المواقف!

أُشير هنا الى بعض العقليات التي تستتر تحت اهتمام كاذب بالصفاء الانجيلي وبرفض التواطؤ الزمني. هناك ملاحظة تُزعجني الى اقصى حد. فمنهم من يقولون لي: «أنت، على الاقلّ، تحدّثنا عن الله، لا عن السياسة!». لستُ هنا لأُطمئنكم واحدّثكم عن الله بطريقة يُخشى ان تُريح ضمائركم وأعرضَ عليكم إلهًا يبرِّر تقصيركم. قال أحدهم: «العالم يموت جوعًا والنفوس الجميلة تذهب الى السماء». اقول لكم فقط ان ذلك الاله ليس الإله الحقيقي.

جميع الناس، عن معرفة او غير معرفة، يمارسون السياسة. وليست المسألة ان تمارَس او ان لا تمارَس، بل ان تمارَس بوعي. للسكوت او الامتناع في المجال السياسي (افهم دائمًا هذه الكلمة بمعناها الشامل، لا بمعنى الالتزام في حزب سياسي) ثقل سياسي ايجابي. كثير من الناس يرون أن لا يمارسوا السياسة. لكنهم يمارسونها بامتناعهم، لأن سكوتهم جزء من نسبة القوى. كل شيء هو نسبة قوى في بلد من البلدان وفي العالم: فهناك القوى الأدبية والعسكرية والاقتصادية الخ. لا يجوز ان نتكلّم بسوء على القوة: فالعافية مثلاً هي قوة. يجب التكلّم بسوء على العنف، فهو شيء يختلف كل الاختلاف عن العافية،

لأن العنف قوّة منفصلة عن العقل ، فتصبح بالتالي حيوانية . ان حلول العنف ، باستثناء التي ورد ذكرها في رسالة البابا بولس السادس « رقيّ الشعوب » ، ليست حلولاً صالحة .

هناك خاصةً قوة تسمَّى المقاومة السلبية . لا يخفى على مراكز السلطة ، سواء اكان الكلام على المسائل الاقتصادية ام الدولية ، اين هي قوى المقاومة السلبية . لا أريد ان أجرح أحدًا بالاشارة الى بعض المهن التي أدّت التحاليل الى عدّها قوى مقاومة سلبية ، اي انه ، أيًّا كانت القرارات المتَّخذة في مراكز السلطة ، لن يُحرَّك ساكن ، او يُكتفى بالقليل القليل ، فيمكن التغاضي عن ردود الفعل المنتظرة من قِبَل الأوساط المهنية او الاجتماعية المعيَّنة .

كان المسيحيون فيما مضى يميلون الى التصريح بوجوب عدم الاهتمام بالسياسة ، لأنه يوسِّخ الأيدي دائمًا . وكان هناك شعار في الأوساط الكاثوليكية يقول : قبل كل شيء ، المحافظة على أيد طاهرة . لو كان الأمر لا يزال على ذلك ، لَظهرت الكنيسة نفسها في البلاد قوةَ مقاومة سلبية ، على مرأى جميع الناس . هذا ما كان مونييه يسمّيه « لاسياسية الأيدي الطاهرة الكاذبة » : ليست لاسياسية ، اي عدم سياسة ، بل هي ثقل سياسي حقيقي . ان أسوأ الأوساخ هو عدم الرغبة في توسيخ اليدين ، بحسب هذا القول الشهير : من امتنع عن ايّ عمل ، لا يرتكب الاخطاء أبدًا ، لكن حياته كلّها خطأ . فأسوأ الامور هو ان يمارس الانسان ثقلاً سياسيًا ، مع زعمه أنه لا يمارس السياسة .

ففي هذه الحال ، يذهب الانسان ضحية وراثته : أبي الذي... جدّي الذي... في الوسط الفلاني... في الدائرة الفلانية... الخ . ان التربية التي يحصل عليها الانسان تؤثّر أيضًا فيه . انك تظنّ انك حرّ ، لكنك لستَ حرًّا على الاطلاق ، لأن ضَغط محيطك يعمل من خلالك . فوراثتك وتربيتك وانانيتك وآراؤك السابقة وميولك العاطفية او الغرامية التي لم تنظر فيها عن كثب ، كل ذلك هو الذي سيرمي ورقة في صندوق الاقتراع . لستَ حرًّا ، لأنك لم تعمل على تحرير نفسك . لا أقول ابدًا إن المسيحي حرّ في خياراته السياسية او

الاقتصادية ، بدون أن اوضّح قبلاً انّ عليه ان يعمل على تحرير نفسه ، بحيث ان يكون انسانًا حرًا نظر عن كثب في نفسه ليكون له عمل اصيل على الصعيد الزمني ، لاسيّما وانه يصبح انسانًا حرًا بقدر ما يعمل على تحرير الآخرين. ان اكتساب حريتنا الشخصية يمرّ بالسعي والعمل والقيام بالمهمة البشرية من اجل حرية جميع الناس. وإلاّ ، فكونوا على حذر ، لا تكون حريتنا حرية حقيقية.

يسوع هو الانسان الحرّ بحرية الله الأزلية

ان سألتموني لماذا أنا مسيحي ، أجبتُكم : اخترتُ الانجيل مربيًّا لحريتي. فلو كانت البوذية او الاسلام يربّيان حريتي تربية افضل ، لوجب عليَّ ان اعتنق البوذية او الاسلام. نعرف جميعًا هذا القول المأثور : أحبّ افلاطون ، لكني افضّل الحقيقة. فيمكنني ان اقول : أحب يسوع المسيح ، لكني افضّل اعلى مستوى للوجود ، وان لم يكن يسوع المسيح هو الذي يربّي حريتي لأُدرك اعلى مستوى للوجود ، أبحث عنه في مكان آخر. اذا كان الذي يكلّمكم مسيحيًا ، فلأنه على يقين من انه يستحيل على القرآن او أُوبانيشاد او كتب مقدسة اخرى ان ترتفع بالانسان الى علو الانجيل. هذا هو يقيني ، هذا هو ايماني.

لا تقوم حرية الانسان على القيام بما يريد ، بل على ارادة ما يعمل ، اي على تحمُّل مسؤولية اعماله . لا يكون الانسان انسانًا صحيحًا ، ما لم يتحمَّل مسؤولية حياته. فالحرية الحقيقية هي القدرة على مواجهة الموت ، لا الموت الأخير ، والنهائي حتمًا ، بل ذلك الموت اليومي الذي تفترضه ممارسة العدل والحق والحرية. لا يستطيع الانسان ان يبذل نفسه ويحتفظ بها. فحين يبذل نفسه حقًا ، حين يلتزم تمامًا في سبيل الآخرين ، لا شكّ ان ذلك يؤلم ويقتضي تضحيات حقيقية. علينا ان نتعلَّم ان نموت عن أنفسنا ، لأننا عبيد انفسنا خاصة ، عبيد تلك «الرغبة في الوجود» التي تستولي على صميم قلوبنا. مثال الانسان الحرّ هو المسيح ، فقد فضَّل الموت على إنكار نفسه. انه شاهد لحرية الله الأزلية.

افهموا ان الحرية ليست القدرة على الاختيار بين الخير والشر. هذه هي حرية الاختيار، ولا وجود لها في الله، فهو لا يستطيع ان يختار الظلم او البغض. أمّا نحن المخلوقات، فإننا نبني حريتنا عَبرَ الاختيارات. ويسوع أيضًا وُضع امام الاختيار وجُرّب.

ان مشهد التجربة في البرية مشهد رئيسي الى ابعد حد، وهو تركيبة ادبية لِما كان دائمًا، ولا شك، في حياة يسوع، اي انه ما زالت تستهويه فكرة استخدام قدرة الله للسيطرة. لو أصغى يسوع الى كلام الشيطان، لكانت حياته كريمة ومجيدة. ان الشيطان هو لسان حال اسرائيل ولسان حالنا نحن جميعًا، بقدر ما نريد ان يكون الله إلهًا يسودنا ويتحكّم فينا، لخوفنا ان نكون اناسًا أحرارًا حقًّا.

فأَن يكون الانسان رجلاً حرًّا وامرأة حرّة أَمرٌ شاقّ. ولذلك نقول للمسيح: اجعلْ من هذه الحجارة خبزًا! لن يكون ايماننا على جانب كبير من الحرية، بل نُرغَم على الايمان، اذ كيف لا نؤمن بأحد يحوِّل الحجارة الى خبز؟ أَرغِمْنا، لا تخفْ! لكن يسوع يقول: لا، لا أريد ان اكشف عن إله كاذب، عن وثن. لنكن على يقين من ان الله لا يمجَّد، ان قدَّمنا له استقالة مهنتنا كبشر، وهي مهنة شاقة. ما أغرب الإله الذي يُسرّ بأن نستقيل بين يديه بلا قيد ولا شرط! يضع پيغي على لسان الله هذه الجملة: ركوعُ العبيد، لا يهمّني ذلك على الاطلاق.

بعض نقاط للتأمّل في حرية المسيح

١) لمّا بلغ يسوع الثانية عشرة من عمره، ترك والدَيه يبحثون عنه في الهيكل مدة ثلاثة ايام (لو ٢). ولمّا وجداه، قال لهما بهدوء: «ألَم تعلما أنه يجب عليَّ ان أكون عند ابي؟». يجب على الانسان ان يكون حرًّا بالنسبة الى كل ما أَلِفَه: الآفاق المألوفة، والآراء المألوفة، والثوب الرهباني المألوف، واللغة الطقسية المألوفة، والسياسة المألوفة. لا وجود للانجيل في حالة خالصة حتى

اليوم ، بل يجب الطموح إليه .

الحرية هي القبول بالشعور بالغربة ، وهذا امر شاق جدًّا ، لأنه الفقر الحقيقي . إنه النقطة التي تترادف فيها الحرية والفقر . والمقصود هو موقف اساسي لا يختلط بالشعور بفقدان الجذور . المحافظة على الجذور في مكان من الاماكن هي جزء من الحياة ، من بهجة الحياة . والأفضل هو التأصُّل (الاجتماعي وحتى الجغرافي) والشعور بالغربة .

ان الشعور بالغربة التامة أمر رهيب . وهناك ألوف من الناس يشعرون بالغربة امام الكنيسة الحالية ولا يقبلون بهذا الشعور ، لأنهم ملاّكون . نعم ، قد تكون الراهبة ملاّكة ثوبها ، قد يكون بعض الناس ملاّكين لغةً طقسية ، وبعضهم الآخر ملاّكين طريقةً معيَّنة في صياغة العقائد . يزعم الناس انهم يملكون الحقيقة ، وينسون ان الحقيقة هي التي تملكهم ، فيرفضون الشعور بالغربة ويمسون ، من غير ان يعرفوا ، على نقيض الانجيل .

٢) قبل طلوع الشمس ، خرج يسوع من الدار التي بات فيها (مر ١/٣٥-٣٩) . ولمَّا استيقظ الرسل ، أخذوا يبحثون عنه ، فوجدوه وقالوا له : عُد الى كفرناحوم ، فأنت بخير هناك ، وجميع الناس يعرفونك ويصغون اليك . لا بدّ من النظر الى وجه يسوع وهو وجه انسان حرّ : ففي العالم أماكن غير كفرناحوم . يجب عليَّ ان اذهب الى الجليل كلّه ، ولا اريد ان تحتكرني طبقة اجتماعية او عِرق او عشيرة او كنيسة او أمَّة . انّي حرّ ومتأهّب للعمل بمشيئة ابي . هذه هي الحرية .

٣) جاع الرسل يوم سبت (مر ٢/٢٣-٢٨) . فقلعوا بعض سنابل قمح وفركوا حبّها وأكلوه . لكن الفريسيين كانوا يراقبونهم ، فدنوا من يسوع وقالوا له : كيف تدع رسلك يفعلون ما لا يحلّ فعله يوم السبت ؟ فأجال يسوع طَرْفَه فيهم وقال لهم : إنهم جائعون ، أفتريدون ان أمنعهم عن الأكل ؟ اجل ، هناك شريعة وضعية ، لكن المحبة فوقها . حرية المسيح بالنسبة الى أقوال الناس .

٤) بعد ذلك بقليل ، كان هناك رجل أشلّ اليد منذ زمن طويل ، فسأل يسوعَ ان يشفيه (مر ٣/١–٦) . وكان الفريسيون يراقبون ويتساءلون : أَيجرؤ على شفاء هذا الرجل يوم سبت؟ ورد في الانجيل ان يسوع نظر اليهم بغضب ، ثم قال للرجل : «مدَّ يدك» وشفاه . فخرج الفريسيون من ساعتهم وتشاوروا في افضل طريقة لقتل يسوع . وكل ذلك منذ بداية الانجيل كما رواه مرقس . حرية يسوع بالنسبة الى «ماذا يعملون بي؟» . لِيعملوا ما شاؤوا ، إني انسان حرّ .

٥) لا بدّ من الاشارة الى مشهد تكثير الارغفة ، حيث يبدو يسوع حرًّا بالنسبة الى المجد البشري (مر ٦/٣٠–٤٦) . كان في امكانه ان يدعهم يقيمونه ملكًا ، فالأمر كان في منتهى السهولة . ولكنه ، بدلَ ذلك ، أمر الرسل بركوب السفينة وبالاجتياز الى شاطئ البحيرة المقابل ، ثم ابتعد وذهب يصلّي في الجبل . حرية بالنسبة الى المجد البشري ، وبالنسبة الى جميع الضغوط التي من شأنها ان تُحيده عن الطريق .

٦) نراه مرّة اخرى في اثناء المحاكمة حيث كان صامتاً . هناك جملة تكرَّر عدّة مرات : «أَمَّا يسوع فكان صامتاً» (مر ١٤/٦١ و ١٥/٥) . ما اروع كرامة هذا الصمت ! حرية يسوع بالنسبة الى اصحاب المناصب والأعيان والعظماء . إنه حرّ . فهل حافظت الكنيسة على هذه الحرية على مرّ الأيّام؟ لا بدّ ان نقوم بفحص ضمير . يحسن بنا ان نقرأ رسالة القديس يعقوب ، لأننا نجد فيها امورًا رهيبة في الحرية المسيحية الحقيقية .

٧) وهناك اخيرًا صورة المسيح على الصليب ، وقد غطّى العرق والدم وجهه . إنه وجه انسان حرّ فضّل الموت على إنكار غاية حياته . كانت غاية حياته تعريف الإله الحق . لو عرَّف قدرة على السيطرة ، لَما ساقه احد الى الجلجثة ، ولكانت حياته قديرة وممجَّدة ، ولَعاش مطمئناً سنين طويلة ، ولَما انقطعت الجماهير عن التصفيق له . لكنه عرَّف الإله الذي ليس هو إلاَّ محبة والذي لا يسعه إلاَّ ان يناقض جميع السعادات الكاذبة التي يسعى الانسان وراءها .

لا يجوز ان نخدع انفسنا ، لأن المسيحية تناقض الانسان. إنها تُكمله وتُنمي شخصيته ، ولكن بتناقضها إيّاه. اذا حُوِّل الماء الى خمر في قانا (رمز العيد) ، فإن الخمر حُوِّلت الى دمٍ في خميس الأسرار. امامنا دائمًا قُطْبان : قُطب الأَنسِيّة وحبّ الحياة ، وقُطب ضرورة الموت لملاقاة الله. الانجيل هو تحويل التوق الى السعادة. ان كان ايمانك المسيحي لا يصدم الذين حولك ، فيُخشى ألاَّ يكون صحيحًا وعميقًا. فقد «نُزِع عنه القَهْوين» ، كما يقول هـ. سيمون. في عالمنا العصري ، لا نمنع الناس من مراوحة مكانهم في النشاطات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية. نشكو أمرنا ونقول في انفسنا إن العالم يسير سيرًا سيِّئًا وإننا لا نعرف الى اين يذهب. مَنِ المُخطئ؟ ليت المسيحيين يكونون مسيحيين! لكن الرهان هو الصليب. فإن كان المسيحي يفعل ما عليه ان يفعل ، وان كان حرًّا بحرية المسيح ، لم يستطع ان يتخلّص من الصليب.

وبكلمة واحدة ، الانجيل هو الكشف عن «حرية الله المحرِّرة». هذا هو تحديد المحبة نفسه. محبة الناس هي الرغبة في ان يكونوا (بالمعنى القوي). والرغبة في ان يكون الآخَر هي العدل ، وبالتالي الاحترام الذي هو في قلب العدل. لكن الآخَر لا يوجد ، ما لم يكن حرًّا ، لأن الانسان انَّما بالحرية هو انسان. وخارجَ الحرية ، لا انسانية حقيقية. وفي آخِرِ الأمر ، ليست الحرية إلاَّ حرية المحبة ، لأنه خارجَ المحبة تسود القدرة على السيطرة التي تَظلم وتمنع الانسان ان يكون انسانًا على وجه كامل. «الله محبَّة» (١ يو ٤/٨) ونحن «دُعينا الى الحرية» (غل ٥/١٣). اذا فهمنا أن بين المحبة والحرية تطابقًا وارتباطًا وثيقًا وعميقًا ، فهمنا حقًّا جوهر الايمان.

الصلاة

قد يبدو تناول مثل هذا الموضوع في أيّامنا تنازلاً للعادة الجارية. لا يحسن ان تكون الصلاة قضية عادة جارية. لكنكم تعرفون قانون رقّاص التاريخ الذي سمّاه برغسُن قانون الجنون المزدوج: اذا ذهب الناس بجنون في اتّجاه، ذهبوا بعد ذلك بجنون في اتّجاه معاكس.

عرفنا جيل الالتزام، تلك الكلمة التي روّجها عمانوئيل مونييه بعد الجيل الذي سادته شخصية اندريه جيد والذي يمكن تسميته جيل الهواية. ان الالتزام او، ان فضّلتم، بذل النفس في خدمة المجتمع، يبدو مخيّباً للأمل في آخِر الأمر، وقليل الفعّالية في الظاهر، فإنه يقتضي القيام بتحاليل شاقّة على الصعيد الاجتماعي والسياسي. والوَساطات التي لا بدّ منها ليكون الالتزام في خدمة العالم فعّالاً تقتضي جميعها بذل جهد كبير.

يبدو الآن أن مطلب الالتزام في رجوع الى الوراء وأن هناك عودة الى الصلاة، فإن الناس يتأرجحون بين البعد الأفقي والبعد العمودي. بعد جيل بالغَ في اهمال البعد العمودي، أي الصلة بالله، أخذ الناس يعودون إليه. من الواضح اننا لا نحتجّ، لكنه من المؤسف ان يتمّ كل ذلك في حركة تأرجحية. يجب الجمع بين البُعد الافقي والبعد العمودي، يجب ان «يساير التوسيعَ في الزمنيات تركيزٌ في الروحانيات».

فإن الصلاة بدون الالتزام ليست أفضل من الالتزام بدون الصلاة. لا

يحسن ان نرى هذا الجيل الذي يعود فيكتشف اهمية الصلاة ، وعلينا ان نبتهج بهذا الأمر ، ينسى بسبب ذلك ما يقتضيه الالتزام والعمل والقيام بالمهمة البشرية .

كيف نصلّي ؟

هل تصبّ الازمة الحالية التي تمرّ بها الكنيسة في تجديد التصوّف؟ هذه أمنيتنا ، لا سيّما وان جميع الازمات التي عرفها تاريخ الكنيسة صبَّت في تجديد التصوُّف بكل معنى الكلمة . هذا كان شأن عصر النهضة ، فلقد ازدهر التصوُّف ازدهارًا رائعًا في القرن الفرنسي السابع عشر . وقد نكون مُقبلين على تجديد من تلك التجديدات . المشكلة هي ان يكون هذا التجديد أصلاً او ان لا يكون ، وسنقول بأية شروط يكون .

أوضّح ، قبل كل شيء ، أن الصلاة عنصر اساسي من عناصر الحياة الروحية ، لكنها ليست الحياة الروحية كلها . كلمة « روحي » تعني « مع الروح القدس » . ان الحياة الروحية هي الحياة بدون اي زيادة ، لكنها تُعاش مع الروح القدس . يقول بعض الناس : همومي وأعمالي كثيرة جدًا ، حتى اني لا اجد المتَّسع من الوقت لتكون لي حياة روحية ! قولوا بالأحرى إن اعمالكم كثيرة حتى انكم لا تجدون المتَّسع من الوقت للصلاة ، ولا تقولوا إن نشاطكم البشري غريب عن حياتكم الروحية .

فإن يوحنا الصليبي يقول لنا إننا سنُدان على المحبة . والحال ان المحبة نعيشها في القيامِ بمهمتنا ، سواء أكانت عائلية ام تربوية ، او شملت تلك الالتزامات المتعدّدة في المجالات النقابية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، وبكلمة واحدة في الحياة كلها .

صيغ الصلاة الثلاث

الانجيل صريح الى اقصى حد في امر الصلاة. اكتفي بلفت نظركم الى جملتَين أختارهما من بين مختلف اقوال يسوع في الصلاة: «يجب المداومة على الصلاة من غير ملل» (لو ١٨/١)، و«اذا صلَّيت، فادخل حجرتك وأغلِق عليك بابها» (متى ٦/٦).

ان الروح القدس نفسه هو الذي يهدي الى البرّية والذي يجمع الناس في جماعة اخوية. من أوّل الكتاب المقدّس الى آخره، تدوّي لازمة موضوع البرية. وهي تعني العزلة والصمت وتجميع الفكر وتركيزه، الى جانب العُري الباطني والجفاف والتكلُّس والجوع والتعطّش الى الله. وأمّا ما يختصّ بالجماعة الاخوية، فالعنصرة توحي بأن الروح القدس يجمع البشر على عكس بابل. برج بابل هو تشتُّت الشعوب في اختلاط اللغات، وأمّا العنصرة فهي تجمُّع الشعوب في فهم اللغات.

نجد في تقليد الحياة الرهبانية ثلاث صيغ للصلاة:

– قبل كل شيء، الافخارستيا وهي الصلاة التامَّة، الصلاة الكاملة، اذ انها امتداد لصلاة المسيح نفسها، وحول الافخارستيا صلاة الفرض الالهي كإكليل لآلئ فاخرة تحيط بألماس. فهناك متوحّدون ومتوحّدات ورهبان وراهبات وكهنة يقيمون تلك الصلاة، صلاة الفرض الالهي الطقسية.

– الصلاة الخاصة او في السرّ، اي ما يسمّونه الصلاة العقلية، ذلك الحديث الخاصّ الى الله. انّها الصلاة التي نمتثل بها لما يأمره الانجيل، حين يوصينا بأن «ندخل حجرتنا ونغلق علينا بابها ونصلّي الى الآب الذي في الخفية». من الواضح ان الحجرة هي رمز. فالحجرة الحقيقية هي الحجرة الباطنية.

– الصلاة العادية، الصلاة الدائمة، الصلاة المتغلغلة في العمل، التي يقوم بها الانسان من غير ان يعرف انه يصلّي. هذه الصيغة تلبّي طلب يسوع في

قوله : « يجب المداومة على الصلاة من غير ملل » . لو كان المقصود بها الصلاة بحصر المعنى ، الصلاة التي يتوقّف فيها الانسان عن العمل ، لَما كُنّا حملنا توصية الانجيل على محمل الجد . يطلب الربّ منّا ألاّ ينقطع الله عن أُفق حياتنا ، عن وعي او عن شبه وعي . تشبه هذه الصلاة لَعب الولد الذي يعلم بأن امّه قريبة ، ومع انه لا ينظر اليها ، يعلم بأنها هنا وبأنه ، ان ابتعدت ، انتبه للأمر على الفور .

صعوبات الصلاة في السرّ

ان ميلنا الطبيعي الى البحث عن السهولة غالبًا ما يحملنا على اختصار صيغة الصلاة الثانية ، وهي الصلاة التي نتوقّف فيها عن العمل وعن النشاط العادي ، والتي تستغرق بضع دقائق . قلتُ : بضع دقائق ، لأني اخاطب اكثرية من العلمانيين ، علمًا بأن الصلاة الطويلة هي خاصة الرهبان .

الناس يمارسون الافخارستيا بأمانة ، ويظنّون أنهم يمارسون « الصلاة الدائمة » أيضًا ، لكنهم يظنّون أن بإمكانهم الاستغناء عن ممارسة الصلاة العقلية . يُخشى ان يبقى الافخارستيا سطحيًا وألاّ تصبح الليترجية التي تقام امامنا ليترجية في قلوبنا . فيُخشى ان تكون الجماعة المصلّية جماعة سطحية ، وبالتالي جماعة لا تدوم . هذا هو الخطر الذي يتعرّض له في ايّامنا كثير من الجماعات الصغيرة المؤلَّفة من الراهبات او من العلمانيين ، ان لم يمارسوا صلاة حقيقية في العمق .

أمَّا الصلاة العادية ، فيُخشى كثيرًا أن تتدهور من دون ان نشعر ، إن لم يكن الى جانبها ما نسمّيه أوقاتًا مكثَّفة للصلاة . فالنظر الى الله في سياق حياتنا يقلّ يومًا بعد يوم والقرارات التي علينا اتّخاذها (وهي جوهر حياتنا ، فإنها ممارسة حريتنا واننا نبني كياننا الابدي بكبير قراراتنا وصغيرها) لا تعود تُتَّخذ مع الله وفي سبيل الله ، بل بالنسبة الى انفسنا وفي سبيلها .

نعلم عن خبرة الى اي حدّ يصعب علينا ان نقول حقًا : ليأتِ ملكوتك . فحتى في نشاطاتنا السخيّة والرسولية ، حين نقول بالفم : ليأتِ ملكوتك ، نفكّر في قلوبنا : لأعملْ على مجيء ملكوتك ، لتعملْ رهبانيتي على مجيء ملكوتك ،

لتعمل الحركة المسيحية او الرسولية التي انتمي اليها على مجيء ملكوتك. وهذا القول قريب من: ليأتِ ملكوتي! ولو اردنا ان نكون قساة الى اقصى حد، لأضفنا أننا نقول لله في صميم قلوبنا، من دون ان نشعر: ليأتِ ملكوتي عن طريق ملكوتك، وهذا هو ادنى درجة في الانحطاط والكذب والنفاق!

لماذا نُهمل غالبًا الحديث الخاص الى الله، الذي يستغرق بعض الوقت؟ اعتقد بأن السبب هو أننا نضجر منه، لا أقل ولا اكثر. وان اردنا ان نستعمل كلمات أسمى، قلنا ان الانسان يحب ان يتفانى في خدمة الآخرين ويتذوّق فرح التفاني. وان كان شابًا، كان يحبّ حياة النشاط، فيصبح مجرَّد التوقُّف عن العمل، حتى لفترة قصيرة جدًا، والاختلاء الى النفس مدَّةً من الوقت، من المستحيلات النفسية. فالحياة هي حركة ومبادرة واتّخاذ مسؤوليات، في حين ان الصلاة هي استراحة وعدم حركة وانتظار وخضوع. في نظر الذي يحب حياة النشاط المكثَّف، تبدو الصلاة نوعًا من الموت، والحال ان الانسان ينفر من الموت.

ومن الاسباب التي تمنع الكثيرين عن الانصراف الى الصلاة بضعَ دقائق كل يوم، لا بد من ذكر الحذر من المخيِّلة والحساسية: فما معنى التعبّد والحرارة؟ وهل الرجل يستطيع ان يحبّ الله كما يحبّ امرأة؟ أفليس الأمر يختلف كل الاختلاف؟ وهل الاهتزاز الاحساسي الذي يشعر به الانسان في الحب البشري يصلح لمحبَّة الله؟ وان نقص ذلك الاهتزاز في البَشَرة، فهل تبقى المسألة مسألة صلاة؟

وهناك الحذر في الاستبطان: ففي زمن التحليل النفساني الذي نحن فيه، نحترس من أشكال التأمُّل الباطني الطُّفَيلية. فالرجال والنساء، والشبّان والشابّات، المطَّلعون بعض الشيء على نفسانية الاعماق، يُدلون باعتراضات مبدئية. إنهم يتخوَّفون من النرجسية، ومن الصحيح أنه يُخشى ان يُسقِط الانسان أمامه صِنْوًا يسمّيه الله. فيظنّ أنه امام الله، لكنه في الحقيقة امام نفسه، ويصبح طرح الأسئلة واعطاء الاجوبة امرًا سهلاً. ويُسمَّى مشيئةَ الله ما

ليس سوى ارادة النفس، او، كما قال لاهوتي بروتستانتي كبير (بونهوفر)، «ينصرف الانسان الى ثرثرة حميمة مع نفسه».

وصلاة الطلب تثير أيضًا بعض المشاكل عند الانسان العصري. افليست استغاثة الخليقة بالله في آخر الامر حيلة مقدَّسة لتشجيع الانسان من الناحية النفسية؟ لولا ضيق الوقت، لَتناولنا هنا التعرُّض لخطر الخلط بين البُعد النفساني والبعد الروحي، بين الحياة الباطنية وهي الحياة مع النفس (فللعاشق حياة باطنية وللفيلسوف حياة باطنية) والحياة الروحية وهي حياة مع الروح القدس. كتب الأب دي مونشوي: «أَفَلا يُستجاب الانسان بمجرَّد كونه يُرفَع؟» افليس ارتفاع الانسان الذي يصلّي أفضل استجابة لصلاته؟

خطر الوقوع في صلاة وثنية

ليست الصلاة ظاهرة وموقفًا خاصًّا بالدين المسيحي، فإن «الوثنيين»، اي غير المسيحيين، صلُّوا كثيرًا. وكما أنه وجب إضفاء الطابع الانجيلي على الالتزام، يجب اضفاؤه على الصلاة أيضًا، لأن الصلاة ليست انجيلية تلقائيًا.

يميَّز بين الايمان والدين. لا شك ان الناس أفرطوا كثيرًا في استغلال هذا التمييز البروتستانتي الاصل، ولكن ليس في ذلك ما يبرِّر التصريح بأنه خاطئ. فالدين والايمان مرتبطان، لكنهما متمايزان مع ذلك. الدين سعي مصدره الانسان، أَمَّا الايمان فهو انضمام الى مبادرة من الله. الدين أمر ثقافي. ويمكن الاعتقاد بأنه وُجد مع الانسان. منذ الملايين من السنين أخذ الجنس البشري يظهر على وجه الارض، في حين ان الزمن الذي يفصلنا عن ابراهيم لا يبلغ اربعة آلاف سنة.

نتساءل هل كان الانسان، مدَّة تلك الألوف والألوف من السنين،

حيوانًا متديِّنًا ، بحسب العبارة التي وردت على لسان ارسطاليس . أنكر ماركس هذا الافتراض ورأى ان الدين لم يظهر على وجه الارض إلاَّ مع استغلال الانسان للانسان ، واستنتج ان الدين يفقد كل علّة لوجوده ، يومَ يزول استغلال الانسان للانسان ، في المجتمع الخالي من الطبقات . أظنّ أن معظم الماركسيين ليسوا أمناء لماركس في هذا الأمر ، وأن المفكّرين الماركسيين عدلوا عن هذه القضية وأخذوا يعتقدون ، على مثالنا ، بأن الدين وُجد مع الانسان .

الدين أمر ثقافي وبشري . اقول : الدين ، الشعور الديني ، بصفته غيرَ الايمان وبصفته قابلاً للنظر إليه بمعزل عن الايمان . إنه أمر يلبّي بعض حاجات الانسان ، وهي تعود الى نموذجَين اساسيين .

الحاجة الى الأمن والثبات

ان الانسان المرميّ في العالم لا يلبث ان يشعر بأن وجوده غير ثابت وسريع الزوال ومهدَّد . ما الذي يهدّده ؟ المستقبل طبعًا . فهو لا يعلم ما قد يجري : المجاعة والصاعقة والمرض والحوادث والموت . وفي أيَّامنا أيضًا ، نحن المدَّعين أنَّنا مثقَّفون ومتطوّرون ، لا نزال محافظين على شيء من ذيول تلك العقلية البدائية ، ونتكلّم على « ايَّام الجدود » او نقول في أنفسنا : لا نعلم ماذا يخبِّئه لنا المستقبل . فالمستقبل يهدِّد ، والماضي يُطمئن . والانسان البدائي يتصوَّر أَن بداية العالم كانت عصرًا ذهبيًا . ومن المعلوم ان اسطورة العصر الذهبي اسطورة تشمل العالم كله على الاطلاق . فالمثال الأعلى هو وراءنا ، والشرّ هو في التقلُّب ، فكان الافضل ان يبقى كل شيء على حاله . والدين هو ما يربط بما لا يتبدَّل ، اي بذلك الماضي الاصلي حيث كان كل شيء على زعمهم صافيًا .

نلمس هنا باليد أمرًا على جانب كبير من الأهمية ، وهو الترابط المحتَّم بين البعد السياسي والبعد الديني . ذلك بأن السلطة القائمة أيًّا كانت (مَلَكية او ديمقراطية او استبدادية) ، وهي تبتغي البقاء طبعًا وتتخوّف من التغيير ، لا تتفوَّق على الضمائر . إنها تسنّ القوانين ، لكنها لا تستطيع ، بصفتها سلطة

سياسية، ان تُرغم الضمائر على احترام تلك القوانين. فهي لا تتفوّق على الضمائر، بل تميل الى الاستعانة بالكهنة، وهم يساعدونها على الدفاع عن الاستقرار ويُرغمون الضمائر على الخضوع للقوانين التي تُصدرها الدولة، بحيث ان يصبح الكهنة المعاونين الطبيعيين لسياسة المحافظة (راجع مصر الفراعنة وحضارة اليونان وروما الخ).

ومن هنا الخطر الدائم الذي يتعرَّض له رجال الدين في العالم كله، اي خطر التراجع الى كهنوت وثني. فالدين يقتضي من الكاهن، يقتضي باسم الله، ما لا تستطيع السلطة القائمة ان تقتضيه إلاَّ باسم القانون. يلوِّح الكاهن بالعقوبات الابدية، حيث لا تستطيع السلطة القائمة ان تلوِّح إلاَّ بالسجن او بمحضر الضبط. لا يخفى على الكهنة، والحمد لله، أن من واجبهم ان يقاوموا التجربة. واذا جهل كاهن هذا الأمر، كانت تربيته سيِّئة او كان تصرّفه صبيانيًا.

ولا شك ان مثل هذا الموقف يؤدّي الى تصوُّرٍ خدَّاع خطير، وهو تصوُّر إله يعيش في الماضي، إلهٍ معاصرٍ للعصر الذهبي. فيُستعان به للمحافظة على الوضع القائم ولكيلا يكون المستقبل مهدِّدًا، ذلك المستقبل المرتبط بتقلُّبات رهيبة.

الحاجة الى إبعاد رهبة الإلهي

أعود فأوضّح، تجنُّبًا لسوء الفهم، اني لا اتكلّم على الايمان المسيحي، بل على الدين وبصفته ظاهرة عامّة. ان حاجة الانسان الثانية التي تولِّد الدين هي الحاجة الى إبعاد الرهبة التي يشعر بها الانسان امام الإلهي، أمام كائن إلهي لا يدري ما هو. فهل الشمس هي الله؟ ام الصاعقة؟ او هل يكون الله وراء الشمس او الصاعقة؟ لا يدري. ما يمكن تأكيده هو ان الوثنية عبدت كل شيء وقدسنت جميع ما في الطبيعة: فهناك البقرات المقدّسة والحيَّات المقدَّسة والاشجار المقدَّسة والحجارة المقدَّسة. يتصوَّر الانسان الوثني عفويًا وجود قدرة

عُليا وراء الظواهر الطبيعية في نوع من عالم آخَر ، ما سمَّاه نتْشِه ، في كتابه « انتقاد الدين » ، « عالمًا خَلْفيًا » .

فمن جهة يولّد الشعور الديني إلهًا يعيش في الماضي ، ويولِّد من جهة أخرى إلهًا يوضع في عالم خلفيّ ، وقدرةً نرتبط بها ونُرضيها أو نثير غضبها . إنها قدرة تُطلع الشمس وتُنزل المطر المفيد ، لكنها قدرة أيضًا تُرسل الاعاصير والصاعقة . فلا بدّ من استمالة عطفها .

هذه هي الصورة الهزلية التي يمكن النظر بها الى الصلاة ، وهي صلاة وثنية بكل معنى الكلمة ، وان كان الانسان يحسب نفسه مسيحيًا . فإن الانسان ، الذي يريد ان يستميل عطف الإله ، يستعمل صلوات (تُرضي الإله) وذبائح (من شأنها ان تسكِّن الإله القدير) . وهكذا ، يظهر الدين بمظهر نظام رُتب وممارسات تُقام لاستمالة عطف الإله . وهذه الرتب والممارسات تنقلب الى عادات ، وتُعدّ هذه العادات مقدَّسة ، اي ان الانسان يقدسن العادة ! هذا هو الدين المحض ، اي الخالي من الايمان .

استخدام الله

هناك أدب ضخم تأثَّر بما كتبه ماركس ونِتْشِه وفرويد ، ولقد استغلَّ موضوع الدين الذي يؤدّي الى إله يعيش في الماضي وفي عالم خَلفي ، والى ممارسات ورتب : ومن الواضح أنها صور هزلية للصلاة ، وهي لا تسقط ما لم نقدر على إسقاط صور الله الهزلية . هناك توازٍ بين صور الله الهزلية وصور الصلاة الهزلية . ولا شك ان مجموعاتنا المسيحية العصرية لا تخلو من بقايا الوثنية .

ومن أغلظ الصور الهزلية عن الله وأَلبقها صورةُ الساحر الاكبر ، الإله الذي يفيدنا في تلبية حاجاتنا ، والقدير الذي نستغيث به حين نضطرّ الى الاعتراف بعجزنا . وفي هذه الحال ، تكون الصلاة صلاة مفيدة تُرفع الى إله يُعدّ مفيدًا ، كغرضٍ للاستهلاك الروحي ، وكالقائم بسدّ حاجاتنا .

ان اردنا ان نكون مسيحيين على وجه اصيل ، وجب علينا ان ينتهي بنا

الأمر الى الاعتقاد بأن الله غير مفيد. فانطلاقًا من الايمان بإله لسنا بحاجة إليه نستطيع الوصول الى السجود المجّاني الاصيل. الحبّ يكون مجّانيًا او لا يكون. وكل فائدة نُدخلها في الحب تؤدّي الى موت الحب وبالتالي الى موت المسيحية.

لا يسعني إلاَّ ان أكتفي هنا بوضع الخطوط الأوَّلية للتمييز الاساسي القائم بين الحاجة والرغبة. هل تحتاجون الى الله ام ترغبون في الله؟ هذا هو المُهمّ. الحاجة هي من اجل النفس، أَمَّا الرغبة فهي الرغبة في الآخَر من أجله هو، لا من اجل النفس. جاء في كتاب الأب ديونيزيوس ڤاس «زمن الرغبة»: «ان الصلاة التي لا تقوم باختبار اللاَّحاجة الى الله تتَّخذ لون الحُلم... ليست الصلاة «الحاجة» او «عدم الحاجة»، بل الوصول الى الشعور المتزايد حيويةً بأنه يمكننا ان نرغب في احد من اجله هو وان نحبّه، بقدر ما لا نحتاج اليه وما لا نستطيع ان نستهلكه او ان نعرفه. الصلاة هي الكشف عن امكانية الانسان ان يرغب في غير الممكن». يمكن سدّ الحاجة، لا سدّ الرغبة. والرغبة في الآخَر من اجله هو (هذا هو تحديد الحبّ) هي ان يباشر الانسان سيرًا يؤدّي حتمًا الى تعميق الرغبة.

علينا نحن المسيحيين ان نحاور العالَم الملحد الذي يحيط بنا. وتلك المسائل هي جوهرية الى اقصى حد في هذا الحوار المعاصر، حيث يجب ألاَّ نكون «اخوية غُيَّاب»، كما قال أحدهم. فعلينا ان نعدل عن فكرة ذلك الإله الهزلي الذي يصبح مخلّص جميع الناس من الورطات، والإله البديل الذي ينوب عنَّا حين نبلغ حدودنا. واعلموا أن هذا الاله يكاد ان يزول. حين كان علم الطب ضعيفًا جدًا، كان الناس يُسرعون الى الصلاة إليه. أَمَّا الآن وقد تقدَّم العلم، فلا يُطلب من الله ان ينوب عنَّا إلاَّ بعد زمن طويل. ولهذا يكاد ان يزول ذلك الاله الكاذب، ذلك الاله الذي يُعدّ مخلِّصَ جميع الناس من الورطات. ولا اقول إنه سيزول، بل انه يكاد ان يزول، بمعنى انه متناسب عكسًا مع تقدّم العلم.

لماذا نصلّي؟
أُسس ضرورة الصلاة

انطلاقًا من هنا ، لا نستطيع بعد الآن ان نحترس من الصلاة الانجيلية بكل معنى الكلمة ، فهي ضرورية على الاطلاق. الصلاة هي التي تصل بنا الى اعلى مستوى من المجّانية ، فتُقيّم حياتنا بقيمة مجّانيتها ، بمجانيّة المحبة. يبقى واضحًا ان الصلاة ضرورية ، اي ان الكلام على الله يجب ان يؤدّي الى كلام الى الله. اجل ، لا كلامَ الى الله ، ان لم يُعرف من هو الاله المقصود ، فإن كل كلام الى الله يفترض كلامًا على الله ، اي تعليمًا واطّلاعًا على عقيدة. لكنّ جوهر كل شيء ، في آخرِ الأمر ، هو ، ولا شك ، الكلامِ الى الله. سأعدد لكم بعض اعمق الأُسس التي تقوم عليها ضرورة الصلاة مدةً من الزمن ، لكن كلاًّ منها يكفي في حد ذاته.

الله نفسه يسألنا

ان صلاة الانسان هي تلبية لسؤال من الله. لا بدّ من التحفّظ في الكلام على وصايا الله وحتى على ارادة الله. لا اريد أبدًا ان أشطب بعض الكلمات التقليدية التي استعملها يسوع نفسه ، ولكن يجب ان تُستعمل استعمالاً صحيحًا. فليس المقصود بارادة الله ارادةً آمرة. في محيط يحبّ الناس فيه بعضهم بعضًا ، في عائلة مثلاً ، لا يأمر بعضهم بعضًا ، بل يسأل بعضهم بعضًا ، ويُعبَّر عن رغبة فيقال : «أتريد؟» او «أسألك» او «تسرُّني ، ان أجبتَ الى رغبتي». افضّل أنا الكلام على الاجابة الى رغبة الله ، لأني أخشى ان تُنسب الى الله سلطة او روح استبدادي توهِم بهما عبارةُ ارادة الله او وصايا الله ، إن أُسيء فهمها. فإن وصايا الله تدلّ على عتبة لا محبّة دونها.

قال جان لاكروا ، في جملة أُحبّ كثيرًا ان استشهد بها : «الحبّ

هو وعد النفس ووعد الكائن المحبوب بعدم استخدام وسائل القدرة في معاملته». ولا يخفى علينا ان وسائل القدرة هي كثيرة في الحب البشري، ابتداءً من الإغواء البريء حتى الاغتصاب الخسيس، وبين الاثنين كل انواع استخدام وسائل القدرة.

ان الله قدير، لكن قدرته تقوم على رفض استخدام القدرة: هذا هو الوحي الذي اتى به يسوع المسيح. فالمحبة هي القديرة، والحال ان قدرة المحبة هي، بالحرف الواحد، التخلّي عن القدرة، والذي يتخلّى عن القدرة لا يأمر، بل يسأل. فالله يسألنا.

والحياة مع الله هي تبادل السؤال، وهي، من كلا الطرفَين، عبارة عن رغبة. فالله يعبّر لنا عن رغبته ان يرانا بشرًا على وجه تام، ان يرانا نبلغ أعلى مستوى ممكن من الوجود. أرهب ما في حياة الانسان ان يمسي حقيرًا من دون ان يشعر، مع ان الله لا يقول لنا إلاَّ شيئًا واحدًا: اخرجْ من حقارتك ولا تنحطّ، بل ابلِغْ أعلى مستوى بشري! تلك هي رغبته، وهي الانجيل كله. وبالمقابلة، نعبر له عن رغبتنا في ان يمجَّد وان يكون تقديسنا الشخصي مجدَه وفرحه. يأمرنا القديس بولس بالاقتداء بالله. وهذا أمر لا يمكننا فيه ان نستغني عن الاقتداء بالاله الذي لا يزال سائلاً امام الانسان.

الله ضمير المخاطَب لا يستطيع ابدًا ان يصبح ضمير الغائب

كتب جبرائيل مرسيل: «ان الله ضمير المخاطَب لا يستطيع ابدًا ان يصبح ضمير الغائب». حين نتكلّم على الله بقولنا: هو، لا يعود الكلام على الله، بل على موضوع. يمكن الكلام على موضوع من الموضوعات، لكن الله ليس هو موضوعًا على الاطلاق، بل هو الذات. لا يمكن ان يكون الله مفعولاً به، وإلاَّ لكان صورة هزلية لله. ومن جهة اخرى، ليس الله غائبًا. يُقال «هو» في الغائب، واذا كان احد حاضرًا، لا يقال فيه «هو»، بل «انتَ».

ان مخاطبة الله بـ «أنتَ» هو ما نسمّيه جَذر الصلاة. في هذه الدنيا، كل

شيء حوار. فهناك الحوار مع انفسنا ونسمّيه الفِكر، وهناك الحوار مع الاشياء او مع الاحداث ونسمّيه العمل، وهناك الحوار مع الآخرين ونسمّيه الرفقة او الصداقة او الحب، وهناك الحوار مع الله ونسمّيه الصلاة.

لكن هذا الحوار مع الله لا يضاف الى سائر الحوارات وليس هو خارجًا عنها، لأن الله ليس هو كائنًا يُضاف الى سائر الكائنات. ليس هو تكملة في عدد المخلوقات، كما يقول الفلاسفة. هذا هو سرّه: إنه آخَر وليس هو آخَر. هو اكثر «أَنا» مني، وهو داخلَ جميع الحوارات التي أُقيمها مع نفسي او مع الاشياء او مع الآخَرين. وقد قال كلوديل، معبّرًا عن قول للقديس اوغسطينس: ان الله هو فيَّ وهو أكثر «أنا» منّي.

ليس الله شخصًا ثالثًا، وأكاد ان اقول: شخصًا ثالثًا منافسًا. وهكذا يراه بعض الملحدين، فهم يرفضون ان يكون الله شخصًا ثالثًا. في «الشياطين»، وهي احدى روايات دستويفسكي، انتحر شخص لأنه لم يستطع ان يصمد لنظر الله الذي كان يغتصبه. ولذلك لا يخلو الكلام على نظر الله من الخطر، فإنه ليس هو نظرًا ينظر، وبالأحرى نظرًا يراقب.

احذروا من بعض العبارات المستعملة مع الأولاد: والداك لا يريانك، لكن هناك احدًا يراك دائمًا، وهو الله. يا للفظاعة! في ذلك ما يدعو الى الانتحار! كشف لنا جان پول سارتر، في ترجمة ذاتية عنونها «الكلمات»، أنه تعرَّض للانتحار. ذلك بأنه لعب بعيدان كبريت فأحرق سجّادة. فحاول ان يستر الضرر، ثم قال في نفسه: لن تراني امّي، لكن الله يراني. فهرب وأقفل على نفسه في الحمَّام وظنَّ انه جُنَّ، قائلاً في نفسه: ان نظر الله اغتصب ضميري، اغتصبه للأبد. وفي ذلك الحين أخذ يفقد الايمان.

ان الله لا ينظر إلينا. فهل تريدون ان نكون مشهدًا لله؟ لا بد من تدمير جميع تلك التصوُّرات الوخيمة النتائج. ايكون الانسان مشهدًا لله؟ كفى! ليست لي أية رغبة ان اكون مشهدًا لكم، ولا اريد ان اكون مشهدًا لأحد من الناس، حتى ولو سُمِّي الله، وارفض ذلك باسم كرامتي. ان الاله الذي كشفه

لنا يسوع المسيح ليس هو، والحمد لله، إلهًا ينظر الينا، بل هو إله يعانقنا، وهذا امر يختلف كل الاختلاف.

الصلاة إسرار متبادل بين الله والانسان

الوحي هو إسرار الله الى الانسان (هكذا يمكن تحديد الكتاب المقدس)، والصلاة هي، بالمقابلة، إسرار الانسان الى الله. الوحي يتناول خفقات قلب الله: كيف يخفق قلب الله؟ ومن هو الله؟ وما هي حياته؟ وسِرُّه؟ هذا سِرّ، كما انّي سِرٌّ لكم.

ان كنتُ أحبّكم، أُسِرّ اليكم بصميم كياني، لكني لا أُسِرّ اليكم به إلاَّ إن كنت احبّكم. لا إسرار من دون حبّ (لن اقول لمجهول صادفته في الشارع إني سأروي له قصة حياتي كلها)، ولا حبّ من دون إسرار (لا اتصوّر الخطيب يقول لخطيبته: أحبُّكِ، لكنك لن تعرفي شيئًا عني). فما من شيء أشدّ وقعًا في القلب من الانتقال من الرفقة الى الصداقة، وهو يتمّ بالإسرار المتبادل. وفي الحبّ، وهو فوق الصداقة، يزداد الإسرار عمقًا حتى الشفافية.

الى إسرار الله يجيب الانسان بإسراره الى الله بصميم كيانه، فيكون هناك إسرار متبادَل. ليست الصلاة مجرّد تلاوة عبارات، بل هي بالأحرى حديث خاصّ مع الله. فنعبرِّ عمَّا هي حياتنا برغباتها ومصاعبها وشدائدها وافراحها. الموقف الصحيح الذي يمتاز به ابن الله هو موقف إسرار. اجل، لا يخفى أيّ شيء من احوالنا على الله. ولكن المسألة ليست مسألة إطلاع الله على احوالنا، بل ان نكون في موقف حق في العمق، وهو موقف ابناء وبنات لله في طور التأليه. فمن الطبيعي ان يكون موقفنا موقفًا بنويًا، اي إسراريًا.

لا وجود للحب الصامت. فالصلاة هي التعبير عن المحبة، كما ان الإسرار في هذه الدنيا هو التعبير عن الحب. وان قلتم لي ان الحبيبَين يستطيعان ان يبقيا صامتَين الواحد مع الآخَر مدة طويلة، اجبتكم ان الصمت هو، في هذه الحالة، صفة الكلام العليا. ما من شيء يخلو من التعبير، وما لا يعبَّر عنه

ينحطّ وينتهي بالزوال. والصلاة هي التعبير عن الايمان.

الصلاة هي تقبُّل عطية الله

ان كانت المحبة تقبُّلاً وعطيةً في آن واحد، لا يجوز لنا ان نكون «مُعطين» فقط، بل يجب ان نكون متقبِّلين أيضًا وقبل كل شيء. من الراجح اننا نلمس هنا ما تمتاز به المسيحية. كثير من غير المسيحيين يعطون كثيرًا، ولا مجال للشك في السخاء الاصيل الذي يظهره الكثير منهم. على هذا المستوى، ليس لدينا احصاءات، لكن الافضل ألاَّ نضع شيئًا منها، لأنه ليس أكيدًا ان المسيحيين يبدون في آخر الأمر أسخى الناس. إلاَّ ان المسيحي يتقبّل من الله ما يعطيه بعدئذ للناس. ما يمتاز به المسيحي هو قدرته على التقبُّل. فنحن نتقبَّل عطية الله ونعطي اخوتنا تلك المحبة التي يهب الله لنا ان نعطيها.

كتب الأب هنري دي لوباك ذات يوم: «كل نشاط يستحق ان يسمَّى مسيحيًا يتمّ حتمًا في خلفية عدم نشاط». لا يخاف من كلمة عدم نشاط، ولكن من الممكن ان نستبدل بها كلمة تقبُّل، ولا أظنّ ان عند بني جيلنا تحفُّظًا لمفردات التقبُّل.

فليست المحبة عطاء فقط، بل هي تقبُّل أيضًا. والصلاة هي تقبّل القبلة الالهية. والقبلة رمز رائع. ففي القبلة نرى ما هو تبادل التقبُّل والعطية، في الحب البشري. ورد في احد المزامير: وسِّعْ فمك فأملأَه. أتقبَّل نَفَسَك فيَّ واسكب نَفَسي فيك. ان تبادل الانفاس مع تبادل التقبّل والعطية يعني تبادل النفوس في العمق. ولذلك لا يجوز الحط من شأن القبلة، فهي شيء رائع.

الصلاة تُزامن الوعي لما هو الله ولما يعمل في حياتنا

في حياتنا، نعي شيئًا فشيئًا بعض الأمور. ففي حداثتنا مثلاً، نعي وعيًا ضعيفًا جدًا للحب الذي يكنّه الوالدان، واذا بنا فجأة، بمناسبة كلام سمعناه او ظرف عشناه، نعي ذلك الحب على وجه أعمق.

واذا كان المقصود هو الله. فغالبًا ما يكون وعينا ضعيفًا جدًا، ولذلك صلاتنا قليلة وسيِّئة. فعلى الصلاة ان ترتفع عفويًا، حالَما نعي، بمناسبة من المناسبات، ما هو الله وما يعمله في حياتنا.

نعي ان الله، في داخل كل من اعمالنا الحرَّة، يضفي بُعدًا الهيًا على نشاطنا البشري المؤنِّس، اذ لا يكون النشاط بشريًا في الحقيقة، ما لم يكن مؤنِّسًا. تقوم مهمَّتنا، ايًّا كان نوعها، على بناء عالم انساني. ليس الانسان تامًّا، بل هناك خطوط أوَّلية للانسانية، علينا نحن ان نعمل لكي يكون الانسان. ليس هناك إلاَّ انسان واحد، وهو يسوع المسيح. أَمَّا نحن فإننا جميعًا في طور التأنُّس، ونزداد انسانية كلَّما قمنا بأعمال حرّة، واتّخذنا قرارات مونِّسة، تلك التي تماشي العدل والمحبة والاخوّة والحرية. لا خلاف على هذا الأمر.

ولكن ما نؤمن به نحن المسيحيين هو ان الله هو في داخل تلك القرارات وأنه يأخذها بعين الاعتبار ليضفي عليها بعدًا إلهيًا بكل معنى الكلمة، لكي يكون نشاطنا المؤنِّس لا نشاطًا بشريًا فقط، بل نشاطًا بشريًا إلهيًا. فإن عزم رجل متزوِّج على خيانة امرأته، لا يستطيع المسيح ان يُسهم في هذا القرار. أَمَّا ان عزم على تعزيز العدل في مساعيه، فإن المسيح يسهم في هذا القرار، فليس قراره قرارًا بشريًا فقط، بل هو قرار بشري إلهي.

ما نسمّيه الحياة الأبدية يَبنيه كل من قراراتنا، دقيقةً بعد دقيقة ويومًا بعد يوم، لأن الله فيه. هذا ما أسمّيه الوضع المسيحي، بالاشارة الى كتاب اندريه مالْرو «الوضع البشري». هل تعون وضعكم المسيحي؟ ان كنتم تعونه، فكيف لا ترتفع الصلاة عفويًا: يا رب، نعم، يا رب، شكرًا! ان الصلاة، في اصلها، تُزامن وعيًا جدّيًا لحضور الآب والمسيح القائم من الموت والروح القدس في حريتي، وهذا الحضور هو فعَّال ومؤلِّه.

هناك أربع صيغ للصلاة (كانوا يسمّونها في الماضي: العبادة والشكر والاستغفار والطلب) يعبَّر عنها بأربع كلمات:

– **نَعَم** : الـ « نَعَم » لله هو العبادة . المُسلم يعبد بحَنْي جبينه امام تعالي الله . يمكننا ان نفعل ذلك أيضًا ، ولكن العبادة في نظرنا هي ، قبل كل شيء ، تقبُّل القبلة الالهية ، الـ « نَعَم » لقبلة الله ، القبلة المؤلِّهة .

– **شكرًا** : كيف لا نقول : شكرًا لله ، حين نعي كيف يحوِّل وجه حياتنا ، حين نعي كيف يُضفي على حياتنا بُعدًا لا يُقاس بكل ما نستطيع ان نتصوَّره؟ لا نتصوَّر انسانًا استفاد من إحسان عظيم ، من مبلغ كبير من المال مثلاً أُعطي للخروج من السجن ، لا يشكر الذي اعطاه كل ما له ليكون انسانًا حرًا . هذه صورة ناقصة لما صنع الله إلينا .

– **عفوًا** : حين أتّخذ قرارات غير مؤنِّسة ، اذ اني خاطئ ، ماذا تريدون ان يعمل بها المسيح ، بما انه لا يستطيع ان يؤلِّهها؟ واذا وعيتُها ، كيف تريدون ألاَّ استغفر الله؟ هذا ما نسمّيه التوبة .

أَعطِ : هذه صلاة الطلب ، حيث نسأل الله ، على ما ورد في الانجيل ، ان يهبنا الروح القدس ، اي مزيدًا من المحبة وحضورًا مكثَّفًا فينا لذلك الذي هو ، في الثالوث الاقدس ، المحبة الجوهرية ، كما يقول علماء اللاهوت .

أفي إمكاننا ان نسأل الله الخيرات الماديّة؟ نعم ، والكنيسة تشجّع ذلك ، لأني ، ان امتنعتُ عن التعبير لله عمَّا ارغب فيه من الناحية البشرية (العافية والنجاح الخ) ، لا أعدُّه أبًا . فالطلبات المادية تعني اننا نضع انفسنا في موقف تقبُّل بنوي بالنسبة الى الله .

لكن جميع تلك الطلبات ليست إلاَّ علامة تدل على طلب اعمق بكثير ، وهو أن يستولي الله علينا ويحوِّلنا . وهذا الطلب وحده يُستجاب دائمًا ، كما ان الرئتين يُستجاب لهما حين نتنفّس . فكلَّما تقدّمنا في الحياة الروحية ، اقتصرت صلاتنا على الطلب الى الله ان يعطينا ما يريد ان يعطينا ، اي مزيدًا من المحبة . والانجيل صريح في هذا الأمر : « ان أباكم السماوي يهب الروح القدس للذين

يسألونه» (لو ١١/١٣). فالله أبونا يهب لنا الروح القدس، شرط ان نضع انفسنا في وضع تقبُّله.

الصلاة هي ممارسة المجانيَّة

لا خوف ان نبالغ في التشديد على اهمية المجانيَّة. فهي اسم آخر للمحبة، ونحن نعيش في قرن يكاد ان يكون خاليًا من الاشياء المجَّانية. اجل، هناك الفن، ولكن الفن نفسه يسوَّق والأمر واضح من ناحية السينما مثلاً. نرى انفسنا مُستعبدين لكل شيء نافع. فعلى المسيحيين ان يهتمّوا بشقّ مجالٍ للمجّانية في المجتمع.

لماذا نصلّي؟ لأن الله هو الله. واذا كانت رغبة الله ان أبلغ أصفى درجة من المجّانية، أُمارس هذه المجّانية فأقطع تيّار النشاط البشري واقدِّم لله بعض الوقت، وقتًا هو اللُّحمة التي تُطرَّز عليها جميع نشاطاتي (الوقت هو أشد الاشياء تأصُّلاً في الوجود البشري).

أقطع التيّار وأُطفئ المصباح واقول لله: أُعطيك شيئًا من الوقت، لأني، في آخر الأمر، لا استطيع ان اعطيك شيئًا آخَر. وأُعطيك قليلاً من الوقت، على مثال الخاطئة التي ورد ذكرها في الانجيل والتي كان في إمكانها ان تكتفي بسكب بضع قطرات الطيب على قدمي يسوع، لكنها كسرت القارورة. فأنا أيضًا أكسر القارورة، مجّانًا. لا يبقى هنا ايّ اعتراض على الصلاة: أفلا يعني هذا لك أيَّ شيء؟ بئس الأمر! أَعطِ شيئًا من وقتك. لكن ليس لديَّ ايَّ شيء أقوله لله! لا تقل له شيئًا، أَعطِه شيئًا من الوقت. انه موت حقيقي، موت لا يطول، لكن الاختبار يدل على اننا نكره الموت، ولو بضع دقائق كل يوم.

كان عمانوئيل مونييه رجلاً نشيطًا مات في الخمسين من عمره لإفراطه في العمل. وقد كتب: «ليس الانسحاب من الحركة أمرًا في غاية الراحة. مَن نزل الى نفسه ولم يقف عند هدوء المآمِن الأولى، بل عقد النية على المغامرة حتى

النهاية ، لا يلبث أن يُلقى بعيدًا عن كل ملجأ . فالفنّانون والمتصوّفون والفلاسفة عاشوا أحيانًا حتى الانسحاق ذلك الاختبار الكامل الذي يُسمّى « باطنيًا » ، وهي تسمية غريبة جدًا ، فإنهم يُلقَون الى رياح العالم الاربع » . ان الصلاة تجعلنا في الالتزام بخدمة اخوتنا ، ولأية غاية في آخر الأمر ؟ لنُعيدهم الى الباطنية الحقيقية . لماذا يجب ان يأكل الناس كفايتهم وان يكون لهم منزل لائق وألاّ يعرفوا نهاية شهرٍ مُقلقة ؟ لكي يستطيعوا ان يكونوا بشرًا على وجه اصيل ، اي ان يدخلوا الى انفسهم ويسكنوا في اعماق انفسهم ويكونوا بدورهم قادرين على العطاء الصحيح ، ان يكونوا انفسهم « مُعْطين » .

لا بدّ اليومَ من بذل جهد خاصّ لتطهير العقل على صعيد الايمان (لم يعد ممكنًا ان يبقى بعض المسيحيين في عقلية صبيانية) ، لكن هذا الجهد يجب ان يزامنه تعمُّق يُعاش في الصلاة ، وإلاّ كان الايمان معرَّضًا للخطر . « قد يكون او يُعدّ ايمان احد الناس نيِّرًا وصافيًا ، ويكون مع ذلك ضعيفًا ومجرَّدًا ومتلاشيًا وخاليًا من الحيوية وعاجزًا عن إثارة أي غبار . ذلك بأن الايمان ليس هو اية موافقة كانت على قيم او على حقائق ، بل هو انضمام شخصي الى الاله الحيّ » (الأب هنري دي لوباك) .

ومن الطبيعي أيضًا ان يطهَّر ما في الصلاة من عاطفة ، لأن العاطفة لا تخلو من حبّ النفس . فإن اردنا ان تكون الصلاة رغبةً في الآخَر من اجله ، وجب القبول بالحرمان من كل عاطفة . وهذا أمر مؤلم جدًا ، لا يخفى على المتصوِّفين ، فإنهم جميعًا اختبروا الله بريّةً والصلاةَ فترة استراحة في البرية . وفي اقصى حد ، لا يكون الله الهًا لنا إلاّ إن حُرمنا الشعور به ، لأنّنا ، كلّما شعرنا بالله ، لا يكون ما نَعدُّه الله سوى شعور عن الله . فالايمان هو غير العاطفة الدينية . كانت تريزيا الأفيلية تقول : لا استغرب ان تحتاج نُسَيّات مثلي الى العاطفة للقيام بالصلاة ، لكن حين أرى رجالاً بالغين لا يصلّون إلاّ إن شعروا برغبة في الصلاة ، لا يسعني إلاّ ان آسف . تلك هي الاصالة في الصلاة .

وأختم بالصلاة الرائعة التي أَلَّفها صلجينستين يوم نال جائزة نوبل :

«ما أسهلَ عليَّ ان أعيش معكَ، يا رب
ما أسهل عليَّ ان أومن بكَ!
حين يرتبك عقلي فيتوارى او ينثني
حين لا يرى أذكى الناس أبعد من هذا المساء
ولا يعلمون ما يجب عمله غدًا
أنت تبثُّ فيَّ اليقين الهادئ بأنك موجود
وبأنك تسهر على ألاَّ تكون جميع سبُل الخير مُغلَقة.
على قمَّة المجد الارضي
أتأمَّل مندهشًا ذلك الطريق المارّ باليأس
ذلك الطريق الذي استطعتُ فيه، حتى أنا
ان أُرسل الى البشرية شعاعًا من أشعّتك.
وما بقي عليّ ان أُرسله ستهبه لي.
وكل ما لن أنجح في إرساله
يعني أنَّك خَصصتَ به أناسًا آخرين».

مقاومة الشر والألم

أخشى ان اتناول اليوم ما يسمَّى مشكلة الشر والألم ، لأنه بقدر ما يبدو لنا النقاش سهلاً ، اذا كنَّا لا نتألَّم ، يجب علينا ، ان كنَّا أمام احد يتألَّم ، ان نعالج هذه المسألة بيدَي ممرِّضة ، اي بكثير من اللباقة. ما من شيء أَشتَم ، لمن يتألَّم او لمن كان ضحيَّة الشر ، مِن أن تُقدَّم له ، بلهجة حازمة او ثابتة ، حلول ليست بحلول. ومع ذلك ، لا سبيل الى إهمال هذه المسألة ، لأنها مسألة مطروحة وهي مطروحة منذ ان وُجد الانسان على وجه الارض.

ما هو مشكلة هو ما يتطلَّب حلاًّ. واني اتساءل هل هناك حلّ لمسألة الشر والألم. وافضّل ان اقول إننا أمام حجر عثرة ، لا امام مشكلة ، لأن هذه المسألة هي قبل كل شيء حجر عثرة. وسنحاول ان نرى كيف يمكننا ان نحوِّل حجر العثرة الى سرّ.

الشرّ حجر عثرة...

ان الشرّ ، بوجهَيه الألم والخطيئة ، هو ما يصدم صميم ارادتنا وضميرنا. إنه ما لا نستطيع ان نفهمه (فليس هناك من حلّ) وأن نحبّه (فهو حجر عثرة). والمشكلة تُثار بالنسبة الى المسيحي بحدّة خاصّة ، لأن المسيحي لا يؤمن بالثنائية ،

لا يؤمن بأن هناك مبدأً ازليًا للشر تجاه مبدأ ازلي للخير هو الله. نقول بأن الله هو خالق كل ما هو موجود، مع أننا لا نستطيع ان نقول بأنه خالق الشر، وإلاَّ ضخَّمنا حجر العثرة. فما عسى ان يكون مثل ذلك الاله؟

ومن جهة أخرى، نقول بأن الله ليس هو إلاَّ محبة وبأنه لا يمكن ان يكون فيه إلاَّ محبة. كم من مرَّة تجرَّأتُ على القول لغير المؤمنين: جوهر الايمان المسيحي هو القول بأن الله محبة. وهل تعرفون أيّ جواب جلبتُ عليَّ؟: «ليس الأمر ظاهرًا!». فلا بدّ ان نكون لَبِقين وألاَّ نقول بأن الله محبة، كما نقول بأن اثنين واثنين يساويان اربعة او بأن مجموع زوايا المثلَّث يساوي زاويتَين قائمتَين. «لو كان الله موجودًا ولو كان محبة، لَما رأينا مثل هذه الاشياء: الحرب والتعذيب والمرض والوباء والخيانة العاطفية والحِداد الخ».

منذ قديم الايام، استُعمل وجود الشرّ حجةً لإنكار وجود الله، ولا غرابة في هذا الأمر. فاذا كان الشر والألم موجودَين، فلا يمكن ان يكون الله موجودًا. ومنذ قديم الأيّام أيضًا، قام المفكّرون بتبرير الله وتبرئته، محاولين ان يبيّنوا ان الله لا يستطيع ان يتصرَّف على وجه آخَر، كما لو وجب الدفاع عن الله لتبرئته من كل ما في العالم من شر ومن ألم.

ثلاث مرافعات لتبرئة الله

أرى ان جميع تلك المحاولات لتبرئة الله لا تنجح، ولذلك أريد أن أوصيكم بأن تكونوا على حذر شديد في استعمال تلك الحجج.

١. يقال ان الألم هو ظِلّ الخير

يجب دَمج الشر في مخطَّط او مُنجَز أوسع، حيث يقوم بدور الوسيلة او الشرط اللازم للحصول على خير اعظم. فكما ان الظلال، في لوحة من لوحات رَمْبرانت، لا غنى عنها للحصول على التكامل الإجمالي، وأن النور لا يكون

جميلاً إن لم يكن هناك ظِلّ ، كذلك يبدو الشر والألم لا غنى عنهما ، من حيث جمال العالم ، لإبراز الخير . حاوِلوا ان تقولوا مثل هذا القول لأحد يعاني الألم ! والحال ان هذه الحجّة توسّع فيها بعض كبار الفلاسفة ، كالقديس اوغسطينس والقديس توما الأكويني وديكارْت . وكتب هذا : « ما قد يكون ناقصًا جدًا ، لو كان وحده ... يبدو كاملاً جدًا ، لو عُدَّ جزءًا من اجزاء العالم » .

ولقد تعمَّق لبنِز في تلك الفكرة الى اقصى حد ، فقال بأن « الشر لا يكون شرًا ، ان كان مرحلة لا غنى عنها لسير التقدُّم » . وهكذا رأى ستالين وهتلر . في نظر هتلر ، كان القضاء على ستة ملايين من اليهود شرطًا لا بدّ منه لتقدّم البشرية ، وكذلك ، في نظر ستالين ، القضاء على جميع الذين عارضوا حكمه . فيقال إن الشر يفقد طابعه الشرّير ، حالما يوضَع في وجهة نظر التطوّر الكامل : فلا يصبح الألم سوى ازمة نموّ ، وتكون الحرب ولادةَ التاريخ ، وتمكِّن التضحية بالاجيال الحاضرة من الوصول الى مجتمع المستقبل .

على المسيحي ان يرفض مثل هذا الدليل ، لأنه يريد ان يقف موقف الذي يتألم ويعاني الظلم . وهو يرى ان مثل هذا التبرير هو ، لا سطحي فقط ، بل غير عادل ، واذا كان غير عادل ، فهو شرّ أيضًا . فهناك أدلّة هي ، لا عقيمة فقط ، بل سيّئة ومعثِّرة . ولا يمكن الدفاع عن مثل تلك النظرية الفلسفية إلاَّ إن عُدَّ الفرد والشخص والانسان لاشيئًا . أنا أحتجّ : فالموجود هو الانسان .

كان برديائف على صواب حين كتب : « اية قيمة لفكرة نظام العالم وتكامله ؟ وهل من شأنها ان تبرِّر ظلم آلام الشخص ؟ » . ما هو في قلب المسيحية هو الشخص . نشدِّد كثيرًا في ايّامنا على الجماعة ونحن على صواب . لكن الجماعة تعني جماعة أشخاص ، ولا وجود للجماعات ، في آخر الأمر ، إلاَّ لمصلحة الاشخاص . وكل كائن بشري هو موضع محبة لامتناهية من قِبل الله . ولا يمكن ان يكون شرطًا لشيء آخَر ، ووسيلة لجمال العالَم . وكيف لا ننزعج ، حين نرى لِبنِز يضحّي بيهوذا في سبيل تكامل العالَم ؟ في وجهة نظر مسيحية ، لا يمكن ان يُستعمل مجد الله لتبرير الألم او الشر الذي تعانيه خليقة واعية واحدة .

ان الحقيقة هي ، بالعكس ، في ما قاله ايڤان كَرَمازوف ، في رواية دوستويفسكي : «حتى ولو أتى المصنع الكوني الواسع بأروع العجائب ولم يكلِّف إلاَّ دمعة واحدة يسكبها طفل واحد ، فأنا أرفض» . المسيحي يعارض كل فكرة تنسب الى الله أن يجعل من جيل وسيلة مرحلية لتحقيق بشرية المستقبل . ففي نظر الله تتساوى جميع الازمنة . ولا يمكن ان تعوِّض ثروات المستقبل وتقدّمه عن الشر الذي يعانيه اشخاص بشرية .

وفي هذا الموضوع ، لا يتردّد الناس في المبالغة . فيقال بأن الألم على الصعيد الطبيعي هو تنبيه مفيد ، وبأن المحنة على الصعيد الروحي تطهِّر . لعلَّ ذلك غير كاذب تمامًا ! فقد يولِّد الألم انتفاضة جرأة ، وقد تولِّد الخطيئة استعادة نشاط . بنى مورياك الكثير من رواياته على هذه الفكرة ، وهي ان الانسان لا بدّ له ان ينحطّ كثيرًا في الخطيئة ليتمكّن من القفز ثانية والانفتاح على الحق والعدل . وقد رأى بعضهم في الألم ، وحتى في الخطيئة ، وسيلة يستخدمها الله في سبيل خلائقه . وذهب بعضهم الآخر الى القول بأن الألم علامة معزَّة الهية خاصة ، ولقد سمعنا جميعًا تلك الجملة (غير الحكيمة خارجًا عن الايمان !) : «ان الله يمتحن من يحبّهم» . اعترف لكم بأني ميَّال عفويًا الى هذا الجواب : «ليت الله لا يحبّني اكثر ممَّا يلزم !» .

لا شك أن في بيتَي أَلَّفريد دي موسيه شيئًا من الصواب :

«الانسان متدرب والألم سيّده
ولا يعرف احد نفسه ما لم يتألّم» .

ولكن ، على اي شيء يدلّ ذلك؟ اذا كان الألم تنبيهًا ، يبقى اننا نستطيع ، مع ماكس شيلر ، ان نطرح هذا السؤال : أيجب ان تكون تلك الاشارات مؤلمة؟ لماذا يجب أن تكون موجعة؟ يمكن ان تكون هناك أجراس إنذار لا توجع ، ويمكن ان يكون هناك معلّم غير الألم ، لكي يصبح الانسان بالغًا في الحقيقة .

ويقال أيضًا : لا شك ان الله لا يريد الشر ، لكنه يأذن به . ما رأيكم في

هذا التمييز؟ أكثر من علامات الاستفهام. لستم في حاجة الى ان يكون رأيكم مطابقًا لرأيي، وفي امكانكم ان تروا ان تلك المرافعات مفيدة، لكني أترككم تواجهون الذين يتألّمون او الذين لا يقتنعون بمثل تلك الأدلة. اتظنّون ان ذلك التمييز بين ارادة الله الصريحة واذن الله تمييز صحيح؟ وما الذي يُجيز لنا الكلام على نوع من الحتمية تفرض نفسها على الله، كما لو كان الله عاجزًا عن التصرّف على وجه آخر؟ لا نَنْسَ أن قدرة الله هي القدرة على المحبة. فالله لا يقدر على التدمير والسحق والسيطرة، لا يقدر إلاّ على ما تقدر عليه المحبة. أفينبغي ان تكون المحبة هي التي تقتضي ان يأذن الله بالألم؟ ربّما، لكننا لا نستطيع ان نقول ذلك، ما لم نصل الى ذروة المسيحية.

في جميع تلك المحاولات التي يقام بها لتبرئة الله او لحلّ مشكلة الشر، يبدو ان المطلوب هو ان يُجعل مقبولاً عند الله ما يعثّر ضمائرنا ويُثير اشمئزازها. ما أعجب ذلك! فالإله الذي يتغاضى عن الشر لا يكون إلاّ وثنًا، والضمير الذي يرفض الشر هو أفضل من الاله الذي يتغاضى عن الشر.

٢. يقالِ ان الألم هو عقاب

هذا موضوع قديم جدًا ورد في بعض صفحات العهد القديم. ونحن نعرف جميعًا العبارات الشعبية: على كل حال، لم تَنل إلاّ ما تستحق! تُعاقَب من حيث خطئتَ! وهذه العبارات تعني ان الانسان يتألّم لأنه يخطأ.

والاعتراضات على هذا القول هي أيضًا قديمة جدًا. يبدو من اول نظرة ان الشر والالم لا يُوزَّعان بحسب ما يستحق كل واحد. كتب ملْبْرانْش، وهو كاهن فرنسي من القرن السابع عشر: «تشرق الشمس على السواء على الاخيار والاشرار، وهي كثيرًا ما تُحرق اراضي الصالحين، في حين أنها تُخصب أراضي الكافرين. وليس الناس أشقياء بقدر ما هم مذنبون». فإذا كان هناك عدل، فلا يمكن ان يكون إلاّ عدلاً الهيًّا يختلف كل الاختلاف عن عدلنا. ويُخشى ان ينسب اليه الانسان ما يريد وان يجرّده من كل معنى. وفضلاً عن ذلك،

يصبح تمرّد الضمير غير معقول ووهميًا. والحال انه من الأمور السليمة ان تقف ضمائرنا وقفة المتمرّد امام الشر والألم.

أمام تصوّرات كهذه، لم تنعدم الاحتجاجات باسم ألم الولد البريء والانسان البار. فكيف يمكن التسليم بأن الولد يستحق الآلام التي يعانيها؟

في سِفر ايوب، تعالَج في آن واحد قضية المصيبة/العقاب، التي يؤمن بها اصدقاء ايوب، ومناداة ايوب المتكرّرة ببراءته. ومن الواضح أن الله لا يقف الى جانب معزّي ايوب، فإنهم يأتونه بكلمات تعزية عقيمة ولا تخدم الألم.

لا نزال أمام ادّعاء الانسان ان يحلّ محلّ الله. في الحقيقة، ما من شيء أسخف من ذلك الادّعاء الذي يرى حكم الله في المصائب الفردية او الجماعية. وهو يفترض وجود تصوّر خاطئ عن العناية الالهية. حين كنتُ صغير السنِ، كانوا يقولون لي في امر رجل خان زوجته فذهب، عند عودته، ضحية حادثة سير: آه! هذا هو عدل الله، هذا هو العِقاب، ولقد استحقَّه! لم اكن سريع الخاطر، لكني فيما بعد قلت في نفسي: وهل حوادث السير في اثناء العودة من زيارة لورد هي أيضًا من عدل الله؟ كفى! ليست العناية الالهية في كابحات السيَّارة التي لم تقم بعملها. من السهل ان يقول الانسان ايّ شيء كان وان يُدخّل الله في القصة على اي وجه كان.

اليكم مثلاً انزلاق ارضٍ قضى على عدد من المنازل، حيث هلك جميع السكّان تحت الأنقاض، ما عدا عائلة واحدة، وكانت مسيحية. فقال الرجل لامرأته واولاده: سنركع ونشكر الله الذي حَمانا. وَيحكَ! أحَماكم أنتم ولم يَحمِ الآخَرين؟ من يستطيع ان يستكشف، مكانَ الله، نيّاته؟ أومن ايمانًا ثابتًا بالعناية الالهية: لكنها لا تعمل على مستوى الاحداث، بل على مستوى الضمائر (إلاَّ في المعجزة، وهو امر نادر جدًا!). اجل، يتدخّل الله في التاريخ، ولكنه يفعل ذلك ليُضفي عليه بعدًا مؤلِّهًا. إنه يؤلِّه اعمالنا البشرية المؤنِّسة!

تلك المرافعات، التي تحاول ان تبرّر الله من الشر، تؤدّي دائمًا الى تبرير الشر، وهذا يعني ان الشر هو خير في آخِر الأمر. فالشرّ المبرَّر لم يعد شرًا،

علمًا بأن الشر هو «ما لا يبرَّر»، كما كتب ج. نابرت. فلا يتوصّل الانسان الى تبرير الشر من دون ان يصدم الضمائر.

٣. يقال ان الشر مرتبط بحرية الانسان

اليكم ما هو اكثر جدّية: يقال: ليس الله هو المسؤول عن الشر، بل حرّية الانسان. يبدو ان القول بأن الشر يصدر عن حريتنا يبرِّئ الله ويتحاشى، في الوقت نفسه، ما هناك من تناقضات في البحث عن تبرير الشر. هذا القول مقبول، ولكنه لا يكفي.

ان الحرية التي تتمتّع بها الخليقة تؤدّي الى احتمال استعمال هذه الحرية استعمالاً سيِّئًا، وبالتالي الى احتمال الوقوع في الشرّ الخلُقي، ومن بين عواقبه المتعدّدة هناك الأَلم خاصةً. لا شك ان الانسان، وفي الكثير من الحالات، هو صانع شروره. أزيلوا الانانية البشرية، يزُلْ، ولا شك، قسم كبير من الألم الذي يعانيه الناس في العالم. لا بل يجب الذهاب الى اقصى حد ممكن في ذلك البحث الذي يُراد به رَبط كل نوع من انواع الشر (الحرب واللاعدالة الاجتماعية الخ) بمسؤوليات بشرية. بأي قدر يُعدّ الفرنسيون مسؤولين عن كل ما جرى في كمبودجيا وعن جميع التعذيبات التي تمارَس في الأرجنتين وتشيلي؟

ليس الجواب بسهل، لكني على يقين من اننا جميعًا مسؤولون، لأننا جميعًا متضامنون. رائعة هي فكرة المسؤولية التي تتخطّى اعمالنا الفردية وتربط ارادتنا السيِّئة بتقصير في بُعد المحبة. أنانيتنا مسؤولة عن اشياء كثيرة. كتب ماكس شِلّر: «لو أحببت الشرّير بقدر كافٍ، أَلكان شرِّيرًا؟». يجب الاعتراف بأن معظم المجرمين هم أناس نقصهم الحب. لا أنسى ابدًا تلك المرأة التي في الثانية والعشرين من عمرها والتي قالت لي إن أمّها لم تقبّلها ولا مرَّة واحدة!

من الصعب، مع كل ذلك، ان تُربط جميع انواع الشر بحرية الانسان.

فهل يكون سوء استعمالي لحريتي سببَ وجود المدود العالية والثورانات البركانية والأعاصير والأوبئة؟ من الصعب ان يُقال بأن تلك الكوارث سببها الخطيئة. حين كنت صغير السنّ، كنت اتساءل لماذا يوجد البرغش، فكانوا يجيبوني: يا صبيّ، لأن الانسان خاطئ! لا ارى اية صلة بين خطيئة الانسان وذلك الحيوان الذي يطنطن ويمنعني عن النوم...

وحتى ان كان كل شرّ وكل ألم صادرَين عن مسعى حرّ قام به الانسان في الماضي، يبقى الألم حجر عثرة أمام الذي يتألّم من دون ان يكون سبب هذا الألم. على كل حال، لستُ مسؤولاً عن خطيئة آدم، والكنيسة تعترف بهذا الأمر. ولا تُستعمل كلمة خطيئة بالمعنى نفسه، سواء أُقصد بها الخطيئة الاصلية ام أُريدَ بها الخطيئة الحالية التي أَرتكبها أنا. والمشكلة تبقى هي هي: فلا بدّ لي ان اعرف لماذا يستعمل الانسان حريته مثل هذا الاستعمال السيِّئ، او ايّ ميل يجرّ الارادة غالبًا الى السعي وراء الشر. ويبدو ان محدودية الانسان وحدها ونقيصته لا تكفيان لتفسير ما في الارادة من تقصيرات كثيرة وشديدة تسمّى خطيئة او ذنب.

كل محاولة لتبرير الشرّ او تفسيره محاولة فاشلة. فالضمير لا يتوقّف عن الاحتجاج. في جميع تلك الادلّة، يندّد الضمير بشيء يبدو غير كافٍ على الاطلاق، ان لم نقل سخيفًا.

... يمكن ان يصبح سرّ تطهير

لعلَّ في احتجاجنا المصدوم درسًا: أفما من شأنه ان يحملنا، امام مشكلة الشر، على اتّخاذ موقف آخَر؟ بدلَ ان نبحث في الله، مهما كلّف الأمر، عن تبرير وجود الشرّ، ألا يجب ان نكتشف الله في داخل احتجاجنا وبذل جهودنا

للقضاء على الشر أو قلّما للتغلّب عليه؟ «يتجلّى الله في الدمعة التي يسكبها الولد المتألّم، لا في نظام العالم الذي يبرّر هذه الدمعة» (بردیائف).

المسيحي، لا بل الفيلسوف، مدعوّ الى الاعراض عن تفسيرٍ للشر لا يمكن ان يكون إلاَّ عقيمًا وغير كافٍ، والتحوّل الى موقف عملي على الانسان ان يتّخذه امام الشر. لا بدّ من التخلّي النهائي عن إيجاد تفسير ووظيفة وغاية للشر والألم. لا تفسير للشر، حتى في داخل الايمان. وليست الخطيئة الاصلية تفسيرًا لمصدر الشر. لا يُطلب من الايمان تفسير الاشياء (هذه المهمة من اختصاص العلم والفلسفة). ان الله لا يفسّر مشكلة الشر، اذ ليس هو معلّمًا يأتينا بأجوبة معلّم عن اسئلة نطرحها عليه. لا يلبّي فضولنا العقلي. لا يوجد الشر ليُفهم، بل ليقاوَم.

الشر هو لامعنى، والألم غير معقول. من المستحيل أن نجد لهما معنى، ولكن هل يمكن ان يُضفى عليهما معنى؟ هل استطيع انا، مع حريتي، أن أُضفي عليهما معنى؟ فقد قال بردِيائف: «موضوعيًا، اللاَّمعنى هو السائد في هذه الدنيا (يبالغ!)، لكن الروح مدعوّ الى اضفاء معنى عليها». ولذلك، اقترح عليكم بعض الخواطر البسيطة.

١. المحافظة على ما يقتضيه الضمير

قبل كل شيء، لا بدّ من الاعتراف بوجود الشر ورفض الحلول الكاذبة. يُطلب من المسيحي، لا ان يحجب الشر كما لو كان لازمًا لإبراز رأفة الله، بل ان يعترف به بالعكس حيثما يندِّد به الضمير. يجب المحافظة بثبات على ما يطمح اليه الضمير ويقتضيه. كلّما تقدّم الضمير، أظهر ما في العالم من انواع متزايدة من الشر والظلم. منذ عهد غير بعيد، كان المسيحيون لا يفضحون تشغيل الأولاد في السن الثامنة ليلاً في الافران.

ان تقدُّم الضمير هو الذي يُظهر أن في العديد من المؤسسات الاجتماعية والسياسية أمورًا لا تسير كما يجب وأنه لا بدّ من اصلاحها. وهناك انواع جديدة

من الشر تظهر للضمير المستيقظ ، لم يتحسّس لها فيما مضى . يجب علينا ان نبقى قادرين على السخط والغضب . فهناك غضب يمكن ان نسميه مقدّسًا . يجب علينا رفض الهواية والروح الفريسية والتعصّب ، فهي تريد ان تحلّ ، في التاريخ ، مشكلة الشر بتقنيات ساحقة . لا نستسلم للشر ، بل لنَبقَ قادرين على التنديد به ، ودائمًا بمزيد من الوعي والوضوح .

٢. الدعوة الى الفرح اقوى من الشر

لو لم يكن تمرّد الضمير امام الشر متأصّلاً في اليقين ، لكان امرًا غير معقول . فإن لم نستسلم للامعقولية طموحاتنا الاساسية الى العدل والخير والحب والاخوّة ، ولم نقبل ان نقول ان كل ذلك مجرّد اوهام ، وجب التسليم بأن وراء رفض الشرّ طموحًا يؤكّد لنا انْ قد تمَّ التغلّب على الشر . أليس لأننا جُعلنا للفرح وان دعوتنا هي السعادة ، نحتجّ على الشر والألم؟ فلو لم تكن دعوتنا ، المحفورة في صميم ضمائرنا ، دعوة الى الفرح ، لَما كان سخطنا على الشر والألم ما هو الآن .

بالخلاص المعروض في يسوع المسيح ، يبقى الانتصار ، في آخر الأمر ، للفرح . فالمسيح يقول لنا : «اريد ان تكونوا ايضًا حيث أنا اكون» (يو ١٤/٣) . بعد تأليهنا وإدخالنا الى قلب الثالوث الاقدس وإشراكنا في علاقات المحبة التي هي علاقات الاقانيم الثلاثة ، سيهب بعضنا لبعض تلك العطية التي يهب بها الاقانيم الثلاثة انفسهم الواحد للآخر . فيكون فرحنا فرح الله نفسه .

٣. الانتقال من التملُّك الى الكيان

في الايمان يمكننا أن نضفي معنى على لامعنى الألم . لا اقول الآن : الشر ، بل اقول : الألم . أمّا الشر ، فليس لنا إلاَّ ان نشمّر عن سواعدنا ونعمل قدر المستطاع على تقليله ، ان لم نقل : على القضاء عليه . وأمّا الألم ، فإني ادعوكم الى ان تضعوا أنفسكم في قمّة الايمان المسيحي . حين نقف امام سلسلة

الجبل الأبيض ، عند غروب الشمس ، نرى الظلّ يبلغ الجبل ويرتفع شيئًا فشيئًا . ثم تأتي ساعة لا يُرى فيها إلاَّ نقطة نيِّرة ، إلاَّ القُنبرة ، وهي القمة التي لا تزال تُضاء بشمس الغروب ، وفجأة ينطفئ كل شيء . لكيلا يكون الألم حجر عثرة امامنا ، لا بدّ ان يكون سرَّ تطهير مرتبط بسرّ السماء .

لو لم يكن المقصود سوى مشاهدة الله للأبد ، كما نشاهد مشهدًا جميلاً او عملاً فنيًا رائعًا ، لربَّما لم نحتَج الى تطهير تام يكوي أنانيتنا حتى جذورها . ولكن الله الحي ليس هو إلاَّ محبة ، ولكن دعوتي كإنسان هي الدخول فيه لأحيا بحياته للأبد وأصبح قادرًا على المحبة كما هو يحبّ ، فلا بدّ لي من التسليم بأنْ لا مجال لذرّة واحدة من الانانية حيث لا مجال إلاَّ للمحبة . ولذلك نرى ان أكبر الأفراح ، كونَنا مسيحيين – ان نكون واحدًا مع المحبة اللامتناهية – يرافقه حتمًا اكبر المطالب : ان اكون كلِّي محبة ، بدون ايّ التفات الى نفسي وايّ نظر الى نفسي وايّ انطواء على نفسي .

لكن الواقع أن فينا غير المحبة . فينا ذلك الألم ، الذي هو اعمق من كل ألم ، والذي هو شرف وإقرار في آن واحد ، أعني ألم عجزنا عن محبة أحد من دون ان نحبّ انفسنا محبة اكبر . حين اقول لأحد : احبّك ، لست صادقًا تمامًا ، فإن الذي اقول له إني احبّه هو وسيلة للحب الذي اكنّه لنفسي . وحين ابكي عزيزًا عليّ ، ابكي على نفسي بعض الشيء . نحن نعلم بأن عدم طهارتنا الاساسي هو في انتمائنا الى انفسنا . التملُّك والمحبة يتنافيان الى اقصى حد . والحال اننا لا نستطيع ، ونحن في هذه الحياة الزائلة ، ألاَّ نكون ملاَّكين ، لا أموالاً مادية ، بل انفسنا . من اراد ان يكون لله ، لا يجوز له ان يكون لنفسه . ومن اراد ألاَّ يكون لنفسه ، وجب عليه الانفصال عن نفسه . لكن الانفصال عن النفس هو ما نسمّيه الألم .

كل ألم نعانيه يمكن ان يُنظَر اليه كإلى بداية موت ، والألم هو بَيدَق الموت الأمامي طوالَ الحياة . والموت هو الانتقال من التملُّك الى الكيان ، ومن الانانية الى المحبة . الألفاظ هنا تترادف : التملُّك هو الأنانية ، والكيان هو المحبة . عبارة

«طوبى للفقراء» تعني: طوبى للذين هم والذين يحبُّون، يحبّون على مثال الله. وان اردتُ أن اكون كياناً حقيقيًا، وجب عليَّ ان اتجرَّد من تملُّكي. وهذا التجرّد هو الألم. وليس الموت الأخير إلاَّ نهاية حركة التخلّي عن التملُّك التي تُلقيني خارجَ نفسي، لكيلا يكون لي ايّ شيء فأكون كلّي لله وللمسيح. واذا تمَّ لي ذلك، استطعتُ ان ادخل اخيرًا في المحبة.

الكنيسة ممتلئة من عظمة محبة الله وعُمق تأصُّل الانانية في الانسان، حتى انها تؤمن بأن المطهر يمتد الى ما وراء الموت، فإن الله واسع وعميق واني ملتصق بنفسي ومتدبِّق بعالم التملُّك! ان الانتقال الأخير من التملُّك الى الكيان هو من عمل المطهر. قال بعضهم: «ان الانتقال من التملُّك الى الكيان هو حقيقة الدين المسيحي الرهيبة الوحيدة، ولا اعرف غيرها». في احدى روايات كلوديل جملة صغيرة تُكرَّر مرارًا وهي بليغة جدًا: «هذا على الأقل هو لي». لا، يجب ألاَّ يبقى لك هذا، وإلاَّ فلن تدخل في المحبة الابدية التي ليس لها ايّ شيء لأنها كل شيء ولأن كل شيء هذا هو كل شيء موهوب.

عافيتي على الاقل هي لي: ألَم المرض الذي ينتزع منك عافيتك.

عقلي على الاقل هو لي: ألم الذلّ او الانحطاط العقلي.

أيوب: «سبعة آلاف نعجة وثلاثة آلاف ناقة وخمسمائة زوج بقر وخمسمائة أتان وعدد كبير جدًا من الخدَّام: هذا على الاقل هو لي. ولمَّا لم يبقَ له ايّ شيء، قال: «عُرياناً خرجتُ من جوف امّي وعرياناً اعود اليه» (اي ١/٢١). انه على صواب، إلاَّ ان المقصود ليس هو الأرض الممثَّلة بجوف الأم، بل جوف الله: ولا يدخلِ فيه الانسان إلاَّ عرياناً.

سأقول بصوت الممرِّضة ما يلي:

زوجتي على الاقل كانت لي، زوجي على الاقل كان لي. هذا صحيح، ولم تكونا انت وهي، وهي وانت، بحسب رغبة الله، إلاَّ جسدًا واحدًا. ولكن لا بدّ ان نعترف بأنك، اذا احببتَها، كنتَ تحبّ نفسك بعض الشيء. بعد الآن، لن تتمتّع بحضورها الحسّي الذي كان يُبهجك ويلبّي رغباتك. أمَّا

الآن ، فإنك تحبُّها بدون ان تحبّ نفسك.
ولَدي على الاقل كان لي ، وأمي وحنانها كانا لي : هوذا الحِداد.
نجاحي كان لي : هوذا الفشل.
ماضيَّ كان لي : ها هي قواي تضعف منذ الآن وماضيَّ أخذ يشبه بيت أحد آخَر.
حياتي على الاقل كانت لي : هوذا الموت حيث يدخل الانسان وحده وليس بيده إلاَّ ما اعطاه. وما لم يُعطه يبقى هنا ويتعفَّن شيئًا فشيئًا. أَمَّا ما اعطاه فإنه تحوَّل الى كيان ، وسيأخذه معه للأبد. فإن كياننا يُبنى ممَّا نعطيه ، على صورة الله الذي هو ، اذا صحّ التعبير ، مبنيّ منذ الازل من عطيته.
اليكم أخيرًا ثلاثة نصوص ، الأول لأحد الفلاسفة ، والثاني لأحد الروائيين ، والثالث لأحد العلماء :
كتب موريس بلونديل : «لا يستطيع الانسان ان يربح كيانه إلاَّ إن أنكره بوجه من الوجوه ، ناسبًا إيَّاه الى مَبدئه وغايته. وان تخلَّى عمَّا هو خاصّ به ولاشى نفسه التي هي لا شيء (اي لاشى ما هو غير محبة) ، نال تلك الحياة الممتلئة التي يطمح اليها ، والتي لا يملك ينبوعها في نفسه. يجب عليه ان يعطي كل شيء في سبيل كل شيء...».
في السنوات التي تلت الحرب العالمية الأولى ، كان اندره جيد قريبًا جدًا من الاهتداء الى الدين ، فكتب : «من أحبّ حياته ونفسه ، وحمى شخصيته ، واعتنى بصورته في هذا العالم ، فقدها. لكن الذي تخلَّى عنها ، جعلها حيَّة وضمن لها الحياة الأبدية : لا الحياة الأبدية في المستقبل ، بل يجعلها تحيا منذ الآن بالأبدية. ان لم تقع حبّة الحنطة في الارض وتمت ، لا تُخرج ثمرًا. القيامة في الحياة التامّة. إهمال كل سعادة خاصة».
وأُضيف مع الأب تيّار دي شاردان : «ان فهمنا تمامًا معنى الصليب ، لا يُخشى ان نجد ان الحياة مُحزنة وقذرة ، بل نصبح اكثر انتباهًا الى خطورتها التي لا تُدرك». ولمَّا اراد ان يقدِّم للكتاب الذي دُوِّنت فيه مذكِّرات شقيقته التي

لازمها المرض، كتب: «يا مرغريتا شقيقتي، حين كنتُ منقطعًا الى قوى الكون الايجابية وكنتُ اطوف في القارّات والبحار، مهتمًّا بولع بجميع ألوان الأرض، كنتِ انت جامدةً، مستلقيةً، تحوِّلين بصمت الى نور، في عمق أعماق نفسك، أسوأ ظلال العالم. قولي لي: في نظر الخالق، من منّا نال النصيب الافضل؟».

فرح الإيمان

بهجة الحياة

مُحاضرات في أهمّ قضايا الإيمان المسيحيّ

الأب فرنسوا ڤاريّون اليسوعيّ



الخاتمة

الافخارستيا يلخّص كل شيء

ان سرّ الافخارستيا عميق جدًا ووجوهه مختلفة ومتشعِّبة جدًا ، حتى انه يصعب استيعاب مضمونه في محاضرة واحدة . ذلك بأنه ملخَّص كل شيء والنقطة التي تتباعد منها جميع الخطوط وتتقارب إليها . انه وحدة الله والانسان في المسيح ، وحدة الماضي والحاضر والمستقبل ، وحدة الطبيعة والتاريخ ، وحدة التقبُّل والعطاء ، وحدة الموت والحياة الخ . ولا يسعني إلاَّ ان اكتفي ببضعة وجوه ، تلك التي افضِّلها .

الاتّحاد بالمسيح الذي يبذل نفسه طعامًا

الافخارستيا هو سر المسيح الذي يبذل نفسه طعامًا للبشر ليحوِّلهم الى نفسه ويكوِّن بذلك جسده السرّي الذي هو الكنيسة (كلمة « سرِّي » لا تناقض كلمة « واقعي ») . وان أردنا ان نفهم ذلك ، وجب علينا ان نعود دائمًا الى ما قيل في المحاضرة الاولى ، وهو ان التدبير الالهي الاساسي هو توحيد جميع البشر في الله بالمحبة وإشراكهم في حياته الخاصة . سبق ان قلت لكم واكرِّر اليوم ان الله شاركنا في ناسوتنا لكي نشاركه في لاهوته . وبعبارة أخرى ، غاية ناسوتنا هي تأليهنا ، والخليقة هي للعهد .

فإن العهد هو الحقيقة الكبرى التي تسود الكتاب المقدس، بمختلف مراحلها، من نوح الى يسوع المسيح الذي قدَّس «كأس العهد الجديد الأبدي». وليس العهد اتّحادًا شرعيًا، بل هو اتّحادُ محبّة. ولذلك، يتّسم الكتاب المقدس، من أوّله الى آخره، برمزية الزواج، ومن قديم الزمان ربط التقليد ربطًا وثيقًا بين سرّ الزواج وسر الافخارستيا.

يخلق الله البشرية ليقترن بها بالتجسّد، ليقترن بها بالمعنى القوي، اي ليصبح معها جسدًا واحدًا. يريد الله ان يكون مع البشرية كلها جسدًا واحدًا. هذا هو جوهر الأشياء. نعلم أن أمنية الحب الزوجي العميقة لا تتوقّف عند تعانق جَسدَين يبقيان خارجَين الواحد عن الآخَر، بل امنية الحب هو الانصهار الخالي من الاختلاط، الذي لا يريد كل واحد ان يبقى فيه إلاّ ليدع الآخَر يستهلكه، بتحوّله، اذا صحّ التعبير، الى طعام له والى جسدٍ لجسده.

رمزية القبلة بليغة جدًا. انَّها بداية حركة تناول الطعام. تقول الأمَّهات الفرنسيات إن اولادهنّ «يُقضَمون قضمًا». يريد الانسان ان يأكل الآخَر وأن يدع الآخَر يأكله، ليكون جسد جسده. عبارة «أحبّك» تعني: اريد ان ادعك تُفنيني وتستهلكني، فأنت غاية حياتي. لا يتوصّل الرجل والمرأة الى تحقيق امنية حبّهما، لأن جسدَيهما اللذين هما أداة اتّحادهما هما، في الوقت نفسه، عقبة تحول دون اتّحادهما التامّ. لا تتمّ امنيتهما، لأنها تفترض موتًا عن الطبيعة وعن التاريخ. فلا بدّ من الموت عن تلك الطبيعة التي تُبقينا خارجين بعضنا عن بعض وتحول دون ان تكون لحظات الاتّحاد الحميم نفسها انصهارًا تامًا، بل لا تدوم إلاّ لحظة. فالرغبة في ان أُصبح في الحقيقة جسدَ جسد الآخر، جسد جسد الذي أحبّه، تفترض الموت.

ذاك هو حلم الرومنطيقية الألمانية: ففي اوبرا ڤَغْنِر، يغنّي تِرِستان وايسولد أنَّهما لا يستطيعان ان يعرفا ملء الحب إلاّ بالموت. وفي الفصل الثاني، يتعانق الحب والموت في أفكار موسيقية رائعة لا يميِّز فيها الواحد عن الآخَر. هذا جميل جدًا، ولكنه غير معقول في آخِر الامر، لأن الموت لا يحقّق الحب، بل يضع

أمامه بالأحرى عقبة عنيفة. ولذلك لا يمكن في هذه الحال ان تحقّق امنية الحب العميقة تحقيقًا تامًا. فالدخول في الحب هو الدخول في الفرح، ولكنه دخول في الألم أيضًا. إنه ألم عدم اكتمال الحب ولا مفرَّ منه. لا يمكن ان تُستجاب أمنية الحب العظمى على صعيد الوجود الطبيعي، لأن طبيعة الانسان تحول دون ذلك.

أَما المسيح، الذي هو إله وبدون خطيئة، فإنه يستطيع ان يتخلّى عن كيانه الطبيعي والتاريخي المباشَر، يستطيع ان يموت عن عالم الحدود الجسدية، وان يبقى في الوقت نفسه العريس الذي يبذل نفسه في سبيل البشرية. ولذلك، يحقّق المسيح، ما بعد الموت، وما بعد الموت فقط، امنية المحبة العظمى. فالمسيح الذي يموت ويقوم من الموت يجعل من نفسه طعامًا، ليصبح في الحقيقة جسد جسد البشرية، على وجه أعمق من التعانق الذي لا يقرِّب بين جسدَين إلاّ لحظةً واحدة. والله في الافخارستيا يقترن حقًا بالانسان. ففي اساس سرّ الافخارستيا، نجد فكرة الطعام، وهي اساسية الى أقصى حد.

فليس الافخارستيا طعامًا نتناوله ونتّحد فيه بعضنا ببعض. لا شك ان هذا الوجه وجه هامّ، لكنه غير كافٍ. والاتحاد، قبل ان يكون اتّحاد البشر بعضهم ببعض عن طريق الطعام الذي يتقاسمونه، هو أوّلاً اتّحاد كل واحد منا بالمسيح الذي يبذل نفسه طعامًا. وبالتالي يوحّد المسيح بين المتناولين. وان اكتفينا بالنظر الى الرمزية على مستوى الطعام بصفته «كانَ مع»، فهي لا تعبِّر عن الحقيقة الاساسية وهي حقيقة انصهار يُكمل الحبّ بين الزوجَين.

ولا نستطيع ان نفهم ذلك، ما لم نقتنع بأن تجسّد الله لا ينتهي الى المسيح، بل الى البشرية كلها. وما دمنا نتصوَّر ان التجسّد هو اتّحاد الله بإنسان يدعى يسوع، لا نفهم شيئًا. جوهر الاشياء هو ان الله يتَّحد او يقترن بالبشرية كلها بالمسيح. فلقد صار الله انسانًا لكي يؤلّه جميع البشر. والافخارستيا هو تعميم عمل المسيح.

ما هو أساسي في الافخارستيا ليس هو مجرّد حضور المسيح، اذ ليس

المسيح هنا ليكون هنا ، بل هو هنا ليبذل نفسه طعامًا لنا ، فيكون الإتّحاد بينه وبيننا على اتمّ وجه ممكن. ليس الافخارستيا أوّلاً حضورًا ، بل هو اتّحاد ، والاتّحاد يفترض الحضور.

حضور المسيح في الخبز والخمر

لا شكّ ان حضور المسيح في الافخارستيا هو حضور حقيقي ، لا بل هو اكثر انواع الحضور حقيقةً ، لأنه حضور يحقّق. فالافخارستيا يحقّق حضور المسيح في اعمالنا الحرَّة: «من أكل جسدي وشرب دمي فله الحياة الأبدية» (يو ٦/٥٤) ، ما من شيء أكثر حقيقة من هذا! اذكّركم مرة أخرى بالتمييز بين صعيد المعنى وصعيد التفسير. فالايمان هو دائمًا على مستوى المعنى. وسرّ الافخارستيا يعني ان المسيح يبذل نفسه طعامًا ليوحّدنا به بتوحيدنا بعضنا ببعض ، بحيث انه لا يمكننا ان نتوصّل الى ذلك بأنفسنا. وهذه الطاقة الموحِّدة تفترض حضوره الحقيقي. لكن هذا المعنى لا يستند الى شيء غير معقول. ان مسألة تفسير أو «كيفية» الحضور الحقيقي هي من اختصاص الفلسفة ، ولا يمكن تناولها بدون الاستعانة بالمفاهيم الفلسفية.

اكتفي بالتذكير بأنْ لا خلاف بين العلامة او الرمز والحقيقة. قوموا بهذا الاختبار فاطرحوا سؤالَين على احد الأولاد:

— ما هي المصافحة؟ لن يجيبكم أنها استهلاك طاقة عضلية يسبّبه ضغط الكفَّين الواحد على الآخر. بل يجيبكم: انها علامة تدل على الوفاق والرفقة والصداقة. فحقيقة المصافحة هي ان تكون علامة.

— ما هو الضوء الأحمر؟ يبدأ الولد بالسخر منكم ، ثم لا يقول لكم إنها مصباح يضيء من وراء زجاج ملوَّن ، بل يقول لكم انها مَنع عن المرور. فالعلامة هي حقيقة الضوء الأحمر.

بتلك الأمثلة البسيطة ، نفهم ان العلامة ليست شيئًا خارجًا عن الحقيقة ، بل هي الحقيقة نفسها بأعمق ما فيها. فالقول بأن الأسرار ، وعلى رأسها

الافخارستيا الذي هو السرّ المثالي، هي علامات و «علامات فعَّالة» لا يعني على الاطلاق أنها خارج الحقيقة، بل أنها اعمق الحقائق.

العلامة الفعَّالة التي تدل على القيام بالمهمة البشرية

يُقال أحيانًا إن جسد المسيح، في القربانة المقدّسة، يحل محل الخبز: اعلموا أن هذه بدعة من البِدَع. لو قام احد الناس، في مختبر، بتحليل كيميائي للقربانة المقدَّسة، لَما وجد فيها غير العناصر التي يُركَّب منها الخبز. هذه الملاحظة بديهية، لكني أرى انها ليست واضحة لجميع الناس. ما ورد قط في الكنيسة أن يؤمن المسيحيون بأن كلمات التقديس تغير بنية الخبز الطبيعية الكيميائية. ولذلك نعترف بأن العبارة التقليدية، الصادرة عن المجمع التريدنتيني، وهي «الاستحالة الجوهرية»، ومعناها تحوُّل جوهر الخبز الى جوهر جسد المسيح، لا يمكن ان تُستعمل من دون أن تُشرح شرحًا طويلاً، لأن كلمة جوهر فقدت المعنى الذي كان لها في القرن السادس عشر.

من قال بأن المسيح يحلّ محل الخبز قال بأن الله يتجسَّد ليحلّ محلّ الانسان، كما لو كان يقول لنا: تَنَحَّ من هنا لكي أقيم مكانك، لأنك غير نافع! فحياتك وعرق جبينك وحَمْلُكِ وتربية اولادك، كل ذلك يكاد ان يكون لاشيئًا: فأنا آتي وآخذ مكانك! لو كان المسيح يأخذ مكان الخبز، لكنَّا امام امر فظيع. مثل ذلك الإله الذي يصير انسانًا ليحلّ محلّ الانسان لا وجود له، ولو وجب الايمان بذلك الإله، لا شكّ اني لكنتُ ملحدًا.

ان المسيح لا يحلّ محلّ الخبز، كما ان المرأة لا تحلّ محلّ البنت الصغيرة، فالبنت الصغيرة هي التي تصبح امرأة. وليست الفراشة هي التي تحلّ محل الدودة، بل الدودة هي التي تصبح فراشة. لا يأخذ مكاني أحد آخَر، بل أنا أصبح آخَر. لا أحبّ انا ان تُستعمل عبارة «العالَم الآخَر»، لأنه، بالمعنى

الدقيق، لا وجود لعالم آخر. فإن عالم حياتنا الأبدية هو العالم بدون زيادة، لكنه يصبح آخَر. هناك فرق كبير بين أن يحلّ محلّي أحد آخَر وأن أُصبح أنا آخَر. وعندما يقول لنا القدّيس بولس إننا «اعضاء المسيح» (١ قور ١٢/٢٧)، لا تُزيل هذه العبارة صفتنا بشرًا وشخصيتنا البشرية. لا يحلّ عضو المسيح محلّ الانسان، بل الانسان يصبح عضو المسيح، او، بالرجوع الى مفرداتنا، لا يكون الانسان مؤنّسًا على وجه تام إلاّ ان تمّ تأليهه، اذا صحَّ ان المسيح هو، في آن واحد، انسان تام وإله تام. وهو لا يستطيع ان يجعلنا ما هو من دون ان يؤنّسنا ويؤلّهنا في آن واحد.

عرضت عليَّ بعض الراهبات، بحسن نيّة وإعجاب كبير، كتيّبًا في شرح الحضور الحقيقي للأولاد. في الصفحة الأولى، رُسمت قربانة، وبين الصفحة الأولى والصفحة الثانية رأيتُ شريطًا يُراد به ان يقال للولد: شُدَّ تَرَ! فكان الولد يشدّ فتذهب القربانة ويرى، مكان القربانة، مسيحًا مبتسمًا. نظرتُ الى الراهبات بشيء من التهكّم والعطف وقلت لهنَّ: «يا اخَواتي، انكنّ هرطوقيّات». فانصعقن وقلنَ لي: «يا ابت، انّك تبالغ!». أجبتُ: «كلاَّ! فان المجمع التريدنتيني رفض كلمة الاستبدال. لا يستبدل المسيح نفسه بالخبز، بل العبارة التي استعملها المجمع التريدنتيني هي «الاستحالة القربانية». قد لا يكون من السهل ان تُشرح هذه العبارة لسامعين ثقافتهم محدودة، لكن الخبز هو الذي يصبح المسيح، ولا يحلّ المسيح محلَّ الخبز».

لقد فهمت الراهبات: فإذا صار الله انسانًا، فلا ليُزيل الانسان. يتصوّر بعضهم ان يسوع القائم من الموت يهبط من السماء في قطعة من الخبز، وإلاَّ لَما وجد مكانًا ليكون في أقرب مكان ممكن. فيؤتى الى الهيكل بسَنَد من حسناته أنه يؤكل، فيأكلونه لأن المسيح بهذه الطريقة يكون حاضرًا على اعمق وجه... مثل هذا الكلام مخيف... لا نخلطْ بين القُرب والحضور المحوِّل.

في معرض باريس الدولي، الذي أُقيم بمناسبة تدشين برج ايفل، لفتت نظرَ أبي قاعةُ المكَنات. كان المشهد رائعًا. كانوا يشاهدون عمليات تحويل الخشب

الى ورق. في احد طرفَي القاعة، كانوا يرون وصول أجذاع الشجر من الغابة، وفي الطرف الآخر، كانوا يرون الورق بعد خروجه من سلسلة عمليات التحويل (نشر الاجذاع وصَنع عجين الورق الخ). كانت هذه قصة الورق.

تصوَّروا أنهم عرضوا، بدل قصة الورق، مراحل قصة الخبز. لا فرق بين العرضَين، ما عدا فارقًا يبدو هامًّا جدًا، وهو أنه قد يُستغنى عن الورق، أمَّا الخبز فلا يُستغنى عنه، لأنه أقرب تعلُّقًا بالحياة. في احد طرفَي القاعة، تصل اكياس القمح التي هي ثمرة عمل الزراعة، ثم سلسلة عمليات التحويل، وفي الطرف الآخَر، يخرج الخبز من فرن الخبَّاز. انها قصة الخبز، اي قصة العمل تحت أشكال الخبز، وأخيرًا قصة الانسان. لأنه صحيح جدًا أن العمل في قصة الانسان له مكانة هامّة، اذ ان الحياة الخاصة، وحتى الحب وحتى اوقات الفراغ مرتبطة بالعمل.

ان اردنا ان نتخلّص من التجريد، وبالتالي من الأساطير، وجب علينا ان ندرك الانسان في حقيقته. والحال ان الانسان لا يُدرَك في حقيقته إلاَّ إن أُدرك في قصته. لا وجود للانسان المجرَّد. أمَّا الانسان الحقيقي، الانسان الذي يُدركه يسوع المسيح ليحوِّله، فهو الانسان الذي يعيش قصَّة، سواء أكان رجلاً ام امرأة، اعزب ام متزوِّجًا، له أولاد ام لا، بطّالاً ام في العمل الخ.

حين يكون لي متَّسع من الوقت، أحبّ كثيرًا، قبل اقامة القدّاس، ان احمل بيدي قربانة غير مقدّسة وان أتأمَّل امام قطعة الخبز هذه. في اللغة الفرنسية، عبارتان مترادفتان: ربحَ حياته وربحَ خبزه. الخبز هو الحياة. وأتساءل: كيف ينظر الله الى هذه القطعة من الخبز؟ لا يراها كما يرى حصاة، لأن هذا الخبز هو نتيجة لقصة طويلة. فلكي استطيع ان أحمله بيدي، توجَّب عمل الفلاَّح والزارع، بغض النظر عن الذين صنعوا المحراث، ثم توجَّب عمل الحصَّادين والذين صنعوا الحصَّادة الحزَّامة، ثم عمل الطحَّان والخبَّاز، وبالتالي جميع الصُنَّاع الذين صنعوا مِعجن الخبَّاز الخ. هذا الخبز هو ثمرة تحويل الطبيعة. مهمّتنا هي في تأنيس الطبيعة، في تأنيس العالَم ليصبح انسانيًا.

ولذلك ينبغي ان نكون قساةً امام العمل الذي لا يؤنِّس تأنيسًا حقيقيًا. وان خرجت المادة من المشغل مشرَّفة وخرج منه الانسان منحطًّا، كانت الفضيحة. في هذا بداية حوار مع الماركسيين، اذ ان تلك الفكرة القائلة بأن الانسان يتكوَّن في العمل وبه هي في اساس الماركسية.

ان وقفنا عند هذا الحدّ، انتهى كل شيء، وبقيت قصة الانسان انسانية محضًا، وأقفلت على نفسها: سيؤكل هذا الخبز ويواصَل العمل، يواصَل تحويل الطبيعة وانتاج الخبز، وليس هناك ايّ مخرج ما بعد القصة. ولكن، ان حملتُ هذا الخبز الى المذبح، جعل منه المسيح جسده، وألَّه ما أَنَّستُه أنا. في القداس الروماني، تبدو صلاة تهيئة الخبز والخمر صلاة ممتازة: «مبارك انت، ايها الرب، اله الكون، يا من جاد علينا بهذا الخبز، الذي نقدّمه لك من ثمر الأرض ومن عمل الانسان، ليصير لنا خبز الحياة... يا من جاد علينا بهذه الخمر التي نقدّمها لك من ثمر الكرمة ومن عمل الانسان، لتصير لنا كأس الخلاص».

ان قطعة الخبز التي احملها الى المذبح، ان لم تكن الانسان، لا يبقى ايُّ معنى للافخارستيا، إلاَّ مسيح يهبط من السماء في قطعة خبز ليصبح طعامنا بمعنى أنه يعزّينا ويقوّينا ويمكّننا من مقاومة التجارب: فنقع في نظام أخلاقي صبياني بكل معنى الكلمة، لا يستطيع بنو جيلنا ان يفهموه. الحقيقة هي ان قصة الانسان كلّها تصبح جسد المسيح. لا تزال مع ذلك قصة بشرية، لكنها تصبّ في ما ابعد من الانسان وهي دعوته الحقيقية. ولا يصبح الانسان انسانًا على وجه كامل، ما لم يصبح جسد المسيح حقًّا.

أوَليس في امكاننا، ان نصنع، لتربية الأولاد، أفلامًا قصيرة تعرض قصة القربانة، من الفلاحة الى المذبح؟ لا وجود للقربانة إلاَّ في ختام تحويل طويل للطبيعة عن يد الانسان، والمسيح يؤلّه ما حوَّله الانسان بقيامه بالمهمّة البشرية. الافخارستيا هو علامة فعَّالة للمهمَّة البشرية المنجَزة.

يُروى ان الشيوعيين دخلوا سَكرستيَّة غُيِّرت جهة استعمالها في لينيغراد، في

اثناء ثورة ١٩١٧، فرموا بالآنية المقدّسة ووضعوا مكانها، بطريقة رمزية، أدوات عملهم. أَحسنوا، اذ أتوا بأدوات عملهم، ولكن كان ينبغي ان يضعوها في الآنية المقدسة، بدل ان يرموا بها. ان كانت هذه القصة صحيحة، دلَّت بوجه مثالي على سوء تفاهم هائل نشهده اليوم، ونحن المسيحيين مسؤولون عنه الى حدّ ما، لأننا نسينا ان يسوع المسيح انسان. اذا صار الله انسانًا، فلا ليتخطَّى وساطة الانسان!

تخطر ببالي الملاحظة التي أدلت بها فتاة ملتزمة في حرب فِيَتنام. قالت لي: «القدّاس، لقد سئمتُ منه! ووالدايَ يريدان أن يرغماني على الذهاب الى القداس». قلتُ لها: «اعتقد أنكِ تُدركين الصلة القائمة بين الافخارستيا والتزامك السياسي». فنظرت إِليَّ لظنِّها اني جُننت»، ثم قالت: «كلاَّ ثم كلاَّ». فقلتُ لها: «ان كنتِ لا ترين تلك الصلة، فلا استغرب أَلاَّ تذهبي الى القدّاس. فماذا تُراكِ تفعلين هناك؟ إن كنتِ تذهبين الى القداس، فلكي يؤلِّه المسيح نشاطك الملتزم كلّه، فلكي يُضفي المسيح بُعد الملكوت الأبدي على مهمّتك البشرية. لا يقوم عملكِ انت على صَنع الخبز، بل على إحلال السلام بين البشر. إنه نشاط محوِّل، لأن كل نشاط بشري مؤنِّس هو نشاط محوِّل، سواء أكان على مستوى العلاقات البسيط بين الزوجَين، او بين الوالدَين والأولاد، او بين المعلِّمين والتلاميذ الخ. وفي التناول، يبذل المسيح نفسه طعامًا لنا، لكي يكون لنا، لا طاقة بشرية فقط، بل طاقة إلهية حقًا، للعمل على بناء الجماعة البشرية الأخوية. فاننا، بدون المسيح، «لا نستطيع ان نعمل اي شيء» (يو ١٥/٥).

فالمسيح حاضر، لا كمن يهبط من السماء، بل بصفته ثمرة التحويل المؤلِّه الذي يُجريه في الافخارستيا الذي هو مركز ايماننا.

الذبيحة (والتضحية)

ما قلناه يمكّننا ان نفهم كيف ان الافخارستيا هو سرّ ذبيحة. لقد نقصت قيمة هذه الكلمة وانحرفت عن معناها الأصلي في اللغة الشائعة. يُقال للولد: ضَحِّ بقطعة شوكولاتة. ولقد اعتدنا المطابقة بين الذبيحة والحرمان، ولم نعد نذهب الى جذور الأشياء.

أصبح صعبًا علينا ان نفهم ان العمل الذبائحي هو العمل الذي نستند به الى الله. انه أسمى شيء في الوجود البشري، إنه ما نوافق به على دعوتنا العميقة وهي ان نزدهر في الله. ليست الذبيحة حرمانًا قبل كل شيء، بل هي توجيه كياننا كلّه وحياتنا كلّها توجيهًا ايجابيًا نحو الله. ان قدَّمنا انفسنا لله، سلكنا الطريق الوحيد الذي يمكّننا ان نكون انفسنا. الله محبة. ولا يكون الانسان انسانًا على وجه تام إلاَّ ان كان من اجل الله.

وهذا يفترض طبعًا حرمانًا، لأن الانسان، في عالم خاطئ، لا يستطيع، في آن واحد، ان يحيا لله ويحيا لنفسه، ان يستند الى الآخَر وأن يستند الى نفسه. والاستناد المحض الى الله هو تخلّي الانسان عن ان يكون مركزًا لنفسه. نحن نعرف انانيتنا ونعلم حق العلم بأننا، في أسخى اعمالنا، ننطوي على انفسنا. من منَّا يتجاسر ان يقول: أنا لا أحيا إلاَّ من اجل الله ومن اجل اخوتي البشر؟ هذا يعني، في لغة الكنيسة، انّي قادر على تقدمة ذبيحة كاملة.

في تاريخ العالم، وبغضّ النظر عمَّا يختصّ بمريم العذراء، ليس هناك إلاَّ انسان واحد نستطيع ان نقول فيه إن نشاطه كلّه وحياته كلّها كانت ذبيحة. ان حياة يسوع المسيح هي استناد دائم الى الله. وفي صميم كيانه – ولذلك نؤمن به ونعلم بأنه مركز كل شيء – هو الوحيد الذي لم يعمل أيَّ عمل حُرّ من اجل نفسه، بل كانت جميع اعماله الحرَّة محبة. لم تكن حياته كلّها إلاَّ محبة. ليس هناك ايّ شيء من الانطواء على النفس، والرغبة في النفس، والنظر الى النفس، وحركة انانية. فكل كيان المسيح هو كيان ذبائحي. والمسيح هو

الانسان الكامل بمعنى أنه استناد محض ومطلق الى الله والى الآخرين. اقول: الى الآخرين، لأنه ليس هناك من تعارض بين الانسان والله. والله لا يطلب منّا غير العمل على إسعاد اخوتنا البشر. وان كان ما نعمله من اجل الانسان من اجل خير الانسان حقًا، كان بالتالي من اجل الله.

ذروة ذبيحة المسيح هي في موته على الصليب، لأن الموت وحده يدل دليلاً ثابتًا على ان الانسان لا يحيا لنفسه. لا يخفى علينا أننا عن جُبن الى حدّ قريب او بعيد نحاول التخلّص من الموت، وان لم يكن المقصود الموت النهائي التام، يكون على الأقل ذلك الموت الجزئي المعبَّر عنه بالنقص في الرفاهية والتخلّي عن بعض الامتيازات، وبكلمة واحدة كل ما يفصلنا عن انانيتنا وكسلنا. ومن هنا القول الرائع الذي قاله پيغي: «لا توجَد الحياة إلاّ لتوهَب».

ان الافخارستيا هو ذبيحة المسيح، انه المحبة التي ليست إلاّ محبَّة، والتي تسير حتى الموت الذي تنبثق منه الولادة الجديدة والقيامة. نحن أمام أمرين: إمَّا أن المحبة هي أقوى من الموت، وإمَّا ان الموت هو أقوى من المحبة. يعني سرّ الفصح ان المحبة هي أقوى من الموت. ينطبق هذا على المسيح وينطبق علينا، ان لم يكن المسيح غريبًا وان كنَّا نتمسَّك به كما تتمسَّك الأعضاء بالجسد. يكفي ان يكون قلبنا موضوعًا في مكانه لنفهم ان الحياة لا تكون أصيلة، ان لم تكن حياة مضحَّى بها، اي انها تتضمَّن انتقالاً في الله. وهذا ما يدلّ عليه الافخارستيا.

الشكر

كلمة افخارستيا اليونانية مشتقة من فِعل شكَرَ، وليس ذلك بطريق الصدفة. والشكر هو الاعتراف بأن كل شيء هو نعمة. واذا كان كل شيء نعمة، فلا بدّ ان يكون كل شيء شكرًا.

يبيّن لنا المسيح في الانجيل كيف ان الطبيعة كلّها هي عطية من الآب. يبين لنا الانجيل أنه يجب علينا ان نعيش المحبة بشكل تقبُّل. كل شيء موهوب. العالم موهوب لنا، ومسلَّم الى ايدينا: «فلا تهتمّوا فتقولوا: ماذا نأكل؟ او ماذا نشرب؟ او ماذا نلبس؟ فهذا كلّه يسعى اليه الوثنيون، وابوكم السماوي يعلم انّكم تحتاجون الى هذا كلّه» (متى ٦/٣١–٣٢). ان الوثنيين هم ملاّكو الأشياء، فإنهم يقتنونها ويملكونها. أمّا المسيحيون، فهم قيّمون على الأشياء، فإنهم ينالونها ويتقبّلونها. ولذلك، نرى الوثنيين قلقين، في حين ان المسيحيين هم او يجب ان يكونوا هادئين. يشعر العالم العصري بالضيق بقدر ما لا يكون ايمانه حيًّا، وبقدر ما ينسى ان كل شيء يصدر عن الله وأنه من واجبنا، اذا كان الله أبانا، ان نكون هادئين على مثال الواثقين.

يلقي يسوع على الطبيعة نظرة صافية هادئة، حتى امام الجوع وامام الموت اللذين هما من المواقف القُصوى. عنده يختلط الطلب والشكر، فهو يطلب بشكل الشكر، من شدّة اقتناعه بأن الآب يهتم بأولاده، شرط ان يهتموا هم بملكوت الله: «فاطلبوا أوّلاً ملكوت الله وبرّه، تُزادوا هذا كلّه» (متى ٦/٣٣). «هذا كلّه»، اي الخبز اليومي: «يا رب، ليأت ملكوتك، أعطنا خبزنا»، اي كل ما نحتاج إليه للعيش، اي ظروف حياتنا.

ما أروع ما قاله يسوع أمام الجوع الذي هو من الأوضاع القصوى. لم يقل: «يا ابت، أسألك ان تكثّر الأرغفة في يديَّ»، بل: «يا أبت، اشكرك» (يو ٦/١١). فقَبْلَ ان تكثَّر الأرغفة، شكر يسوع من شدّة تأكّده من انه سيُستجاب، وأمام الموت الذي هو أيضًا من الأوضاعِ القصوى، قال يسوع عند قبر لعازر: «أشكرك، يا ابتِ، على انك استجبتَ لي». ليس هذا صحيحًا، لأن لعازر لا يزال جثّة ولم يعد الى الحياة، لكن يسوع قال: «اشكرك» (يو ١١/٤١).

واذا رفض يسوع الطعام في البرية، فلأن هذا الطعام لم يأتِه من الآب. وهذا هو المعنى العميق لرفضه أن يحوّل الحجارة الى أرغفة. لا يريد ان يتناول

إلاَّ إن أمكنه ان يشكر. ولا يعترف لنفسه بحق استعمال اي شيء من الطبيعة، ان لم يأته من الآب. ولو حوَّل الحجارة الى ارغفة سِحرًا، لكان هذا الطعام طعامًا لم ينله من الآب. ولو أجرى يسوع هذه الخارقة، ولا اقول: معجزة، لأنها ليست معجزة، لَحقَّ لنا ان نشكّ في الانجيل كلّه.

ان القدّيس بولس يشكر كما يتنفّس، ويمكن القول إن تنفّس بولس تنفّس شكر. يقول: «نشكر الله دائمًا، اشكر الله كلَّما ذكرتكم» الخ (١ تس ١/٢ وفل ١/٣ و ١ قور ١/٤ واف ١/١٥–١٦ الخ). قلب بولس منشرح. على كل حال، يرتبط الشكر، في نظره، بالنعمة او الايمان. والنعمة هي ما يهبه الله للانسان. والايمان هو تقبُّل عطية الله. «اشكر الله أبدًا على ما أُوتيتم من نعمة» (١ قور ١/٤) او «لا نزال نشكر الله (طيموتاوس وأنا) على ما بلغنا من ايمانكم» (قول ١/٣).

لا بدّ من إدراك الصلة القائمة بين الافخارستيا /شكر والافخارستيا/ طعام: فالطعام هو صلتنا الأساسية بالطبيعة. نحتاج الى الطعام لنعيش، وماذا نأكل؟ اللحم والفواكه والبقول، كل ذلك يأتي من الطبيعة ونحن لسنا منعزلين فيها. قال كلوديل إن «أصغر دودة ارضية تحتاج لتعيش الى كل جهاز الكواكب السيَّارة» وان «إقلاع الفراشة يحتاج الى الكون كلّه». وانا أيضًا احتاج، لأعيش، الى الكون كلّه، بما فيه الشمس والبحر.

ان الخبز هو رمز كل ما يعطينا الله ايَّاه لنعيش. والخبز والخمر هما الطعام الأوَّلي في بلاد البحر الأبيض المتوسّط، وفي وطن يسوع نفسه. واذا حذفتُ من طعامي قليلاً من الخبز وجرعة من الخمر، عنيتُ أن على الطبيعة كلّها ان تعود الى الآب. فالافخارستيا هو الشكر تحت اشكال الطعام. واذا كان كل شيء نعمة، وجب ان يكون كل شيء شكرًا. وليس هناك، للتعبير عن كل شيء هذا، افضل من الخبز والخمر اللذين بدونهما ما من شيء ممكن. انهما من عناصر الحياة نفسها. والله يعطينا لكي نعطي بدورنا ما أُعطينا: «مبارك انتَ، ايها الرب، اله الكون، يا من جاد علينا بهذا الخبز...».

لاحظوا أنه علينا ، لا ان نعطي ، بل ان نعطي ما أُعطينا وان نردّ ، لأن ما عندنا هو عطية . العطاء هو تملُّك ، فالانسان يعطي ما يملك ، ولذلك فإن قول بسكال «يا إلهي ، اعطيك كل شيء» ليس قولاً مسيحيًا تمامًا . أمَّا القول المسيحي ، فهو ما كتب القديس اغناطيوس دي لويولا في خاتمة الرياضات الروحية : «يا الهي ، اردّ لك كل شيء» . لسنا ملاَّكين لأي شيء ، بل نحن قيّمون . فالمحبة بدون الشكر لا تكون محبة مسيحية حقيقية ، بل تكون من كرم الملاَّك .

ان الخبز والخمر المقدَّسين في الافخارستيا هما عودة الى الله ، عودة كل تلك الطبيعة التي يعطيها الله للانسان ليحيا . يرى الماركسي ان صلة الانسان بالطبيعة هي العمل ، أمَّا المسيحي فإنه يرى ذلك أيضًا ، لكن هذه الرؤية تستند عنده الى الشكر وتشكّل استعدادًا باطنيًا عميقًا يعاكس عقلية الملاَّك . بدون الافخارستيا ، تُشوَّه حياتنا وتصبح حياة ملاّك . والحال ان الحياة الأبدية هي غياب التملُّك غيابًا تامًا . ليس الله ملاَّكًا على الاطلاق . وبفضل الافخارستيا ، تصبح حياتنا حقيقية ، فهي حياة شكر .

سرّ الجماعة البشرية التي يجب بناؤها

اذا كان المسيح يبذل نفسه طعامًا لنا ، فلكي يجمعنا في جماعة أخوية . لقد شدَّدتُ على ان المسيح يجعل من نفسه طعام كلٍ منا ، فلا يعني هذا اني سأهمل رمزية الجلوس الى المائدة ، اي الطعام الذي نتناوله معًا ، لا كل واحد على حدة . فالوجه الشخصي والوجه الجماعي كلاهما أساسيان . ان المسيح أسَّس سرّ الافخارستيا ، علامةَ العهد الجديد ، في الساعة التي أصدر فيها البند الوحيد في هذا العهد الجديد : «أحبّوا بعضكم بعضًا كما انا أحببتكم» . فبند الاتحاد بالله هو اتّحاد البشر الأخوي بعضهم ببعض ، اي بناء الجماعة المسيحية . لا عهد مع

الله، ما لم يكن هناك عهد متبادل بين البشر.

وُضِّحت رمزية الخبز والخمر منذ القرون الأولى، ولقد وصلتنا بقايا من خلال بعض الصلوات القربانية: «يا الهنا، كما ان حبوب القمح كانت مبعثرة في السهول فطُحنت واصبحت طحينًا واحدًا، وكما ان عناقيد العنب كانت مبعثرة على التلال، فعُصرت واصبحت خمرًا واحدة، لنكن مجمَّعين في جماعة اخوية واحدة». وكان القدّيس اوغسطينس يقول: «حين نأكل جسد المسيح، نضمّ الى انفسنا البشرية كلّها».

حين نفهم ان قطعة الخبز المقدّس، التي نتناولها، هي جزء صغير من ذلك الخبز الواسع الذي هو البشرية كلّها التي ألّهها المسيح، لا تعود لنا رغبة في الضجر. ولذلك يجوز تلبيس الاحتفال القرباني بعناصر ثقافية: فلا بدّ ان يكون الافخارستيا عيدًا، لكنه لن يكون أبدًا مسرح منوّعات! الافخارستيا هو بالأحرى شرط كل عيد، لأنه، لولا الافخارستيا، لَما كان هناك رجاء قيامة، ولكان العيد البشري مُقفلاً على نفسه في دائرة الموت.

ليست الجماعة مجرّد مجموعة. فلا وجود لها، ان لم يكن هناك روابط محبة وصداقة متبادلة، ان لم يكن كل واحد من اجل الآخرين اكثر ممّا هو من اجل نفسه. والذي يجعلنا «واحدًا» هو المسيح. ولذلك لا يعطي جسده إلاّ بعد ان يقسَّم. فالخبز القرباني هو خبز مكسور، والقداس هو «كسر الخبز»، اي بناء الجماعة. حين اتلو الصلاة قبل الطعام، احترس ان اقول: «يا رب، بارك هذا الطعام الذي سنتناوله واعطِ الجائعين خبزًا». أخشى ان يجيبني الله: «عليك انتَ ان تُعطيهم». فأقول دائمًا: «علِّمنا ان نتقاسم».

ان تقاسم الخبز الواحد هو الذي يعني انه يجب علينا ان نقاسم سائر الناس ما يمكننا ان نقاسمهم: مالنا ووقتنا وثقافتنا الخ. بعد ان نكون قد تقاسمنا الخبز الواحد، قد نتكلّم بسوء على جارنا او نرفض القيام بخدمة الخ، لكن ذلك هو الخطيئة. كتب بوسويت: «من تناول القربان وفي قلبه غضب على اخيه، يغتصب جسد المخلّص». «اذا كنتَ تقرّب قربانك الى المذبح وذكرتَ هناك

انَّ لأخيك عليك شيئًا ، فدَعْ قربانك هناك عند المذبح ، واذهب أوَّلاً فصالح اخاك ، ثم عُد فقرِّب قربانك » (متى ٥/٢٣) ، وإلاَّ ، لم يكن له ايّ معنى . لو وعينا حقًّا أن تقاسم الخبز هو الدليل على أنه يجب علينا ان نتقاسم كل شيء ، لكان للحضارة اساس متين. الافخارستيا هو سرّ الوحدة البشرية.

هذا ما يجب ان نفهمه حق الفهم : تعجز موائدنا عن التعبير عن بشرية صولحت مصالحة تامة في المحبة. فإن الطعام الذي نتناوله في بيوتنا ، مع عائلاتنا واصدقائنا ، لا يمكن ان يعني إلاَّ اخوّة جزئية الى حدّ بعيد. نحن ثمانية او اثنا عشر نتقاسم الطعام نفسه ، هذا كل شيء ! على كل حال ، لا ندعو الاعداء الى مائدتنا . فما من تجمُّع بشري بدون استبعاد بعض الناس. لا بل يمكننا ان نذهب الى ابعد من ذلك ونقول إن القطعة التي اتناولها ، على المائدة البشرية ، لا تتناولونها انتم . قد تبدو هذه الملاحظة صبيانية ، لكنها ليست صبيانية . فبينما نعيش في فرنسا مثلاً في اقتصاد البحبوحة ، نعرف أن هناك ، في قارّات أخرى ، شعوبًا كاملة لا تأكل كفايتها . لا شكّ ان تلك المشاكل كثيرة ومعقَّدة ، وان الكلام يدور على الاقتصاد والأسواق وعلى انانية الشعوب المزدهرة ، ولكن المطلوب هو ان نفكّر من هذا المنطلق ، لنفهم أن البشرية لم تصبح حتى اليوم أخويَّة .

كثيرًا ما أقيمُ الافخارستيا في البيوت ، في غرفة طعام احدى العائلات : نبتدئ بتناول الطعام ونواصل سهرتنا بتفكير في الانجيل ونختم بالافخارستيا . لذلك وقع شديد في القلوب ، لأننا نلمس باليد ما هناك من صلة بين العلامة القربانية وما نعيشه في الاخوّة البشرية . لكن هناك ضررًا ، فإن المجتمعين يعيشون منذ اليوم عيشة اخوية . إنهم يؤلّفون مجموعات اصدقاء ، من رجال ونساء ، يعرفون بعضهم بعضًا وينتمون الى ثقافة واحدة الخ . فيُخشى ان يظهر الافخارستيا مجرَّد تعزيز اخوَّة تمَّ تحقيقها .

من اجمل ذكريات حياتي لقائي لمجموعة ارباب عمل ومهندسين ومستخدمين وعمَّال ينتمون الى مؤسّسة واحدة ، وكانوا كلّهم مسيحيين. كان

الاجتماع شاقًّا واستغرق ساعتين، وفي الختام، أخذنا نفترق، واذا بعامل يقف ويقول: «نحن مسيحيون، فلا يجوز لنا ان نفترق بدون ان نتلو الأبانا». فبعد ان تجابه اولئك الناس بعنف مدة ساعتين، تلوا معًا الأبانا. وكان في امكاننا ان نقيم الافخارستيا، فلو فعلنا لاتّخذ كل معناه. فإنه ليس تتويج اخوّة تمَّ تحقيقها، بل هو اقتضاء اخوّة يجب العمل على تحقيقها بالتشمير عن السواعد، كل واحد بحسب دعوته وامكانياته.

والافخارستيا هو نَقْد لموائدنا البشرية التي هي مشروعة، لكنها تستبعد اكثر ممَّا تجمع. فالطعام يمكن تملّكه. أَمَّا جسد المسيح القائم من الموت، فهو وحده لا يمكن تملّكه، لأنه فوق حدود الطبيعة والتاريخ، إنه هو التخلّي المطلق عن التملُّك والمحبة، ذلك الذي لا يعرف ايّ نوع من التملُّك. لا يمكن تملُّك تخلٍّ عن التملُّك، اذ لا معنى له. ليس كلّ جلوس الى مائدة بشرية سوى انتصار موقّت على العدوانية والبغض والأنانية، وما من جلوس الى المائدة في إمكانه ان يتباهى بإحراز انتصار نهائي. والجلوس الوحيد الى المائدة، الذي يدلّ على المصالحة الشاملة، هو تقاسم جسد المسيح. ان الافخارستيا هو الذي يذكّرنا، يومًا بعد يوم، بأنْ لا أُخوَّة شاملة ممكنة خارج موت المسيح وقيامته.

واذا أوجبت الكنيسة على المسيحيين، طوال القرون، الاشتراك في الاجتماع القرباني مرَّة في الاسبوع على الأقل، فلم يكن ذلك بدون اسباب، وما ترجوه الكنيسة هو أنَّ تقدّم المسيحيين في السنين المقبلة يُغنيها عن اصدار الأوامر لكي يشتركوا في اقامة الافخارستيا.

فإن الافخارستيا هو السرّ المثالي، انه المسيح المذبوح الذي، بصفته انسانًا، يتّجه بكل كيانه نحو الله، وبصفته إلهًا، يتّجه بكل كيانه نحو الانسان. ان «قُبلة» رودان محفورة في كتلة رخام واحدة. وليست المرأة إلاَّ حركة نحو الرجل، وليس الرجل إلاَّ حركة نحو المرأة. هذه مجرّد صورة، لكنها قد تساعدنا على تفهّم حقيقة المحبة بين الله والانسان. والقربانة المقدَّسة هي، في آن واحد، عطاء الانسان لله (اي الذبيحة) وعطاء الله للانسان (اي السرّ). وفي نهاية كل

ذلك ، ما أُصرّ على تسميته تأليهنا النهائي ، اي موضوع رجائنا : حريتنا التامة في الفرح . «اريد ان يكونوا معي حيث أكون» (يو ١٧/٢٤) و «سنراه كما هو» (١ يو ٣/٢). هذا ما يأتي به يسوع المسيح ، وهو غير قابل للاستبدال .

الخاتمة

أريد ان اختم بدعوة الى التفاؤل والرجاء. ان فهمتم ما عرضته عليكم في المحاضرات، فلا بدّ ان يسودكم الرجاء والفرح. أيًّا كان ثِقل الحياة، وأيًّا كان الألم الذي لا يمكننا ألاَّ نشعر به امام انقسام المسيحيين، لا شكّ ان الكنيسة في عزِّ تجدُّدها. ولكن علينا جميعًا ان نسهم في هذا التجدّد، وهذا لا يتمّ بدون عمل.

يختتم كلوديل كتابه «جان دارك في المحرقة»، بهذه الكلمات:

«هناك الرجاء وهو الأقوى
هناك الفرح وهو الأقوى
هناك المحبة وهي الأقوى».

الفهرس

صفحة

القسم الأول : **المسيح**

القسم الثاني : **تقبّل عطية الله**

القسم الثالث : **المسيح الاله الحق والانسان الحق يكشف من هو الله ومن هو الانسان**

القسم الرابع : **بعض المقاييس التمييزية للقيام بالمهمة البشرية**